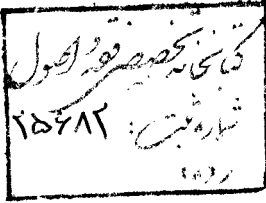


مكتبة نايف بن عبد العزيز آل سعود العالمية  
للشريعة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة



الدورة الأولى  
فرع السنة النبوية  
فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنة النبوية  
د. رقية طه جابر العلواني

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م



## فهرس المحتويات

٣	فهرس المحتويات
٧	المقدمة
٩	إشكالية الدراسة:
٩	أهمية الدراسة:
١٠	منهج الدراسة:
١١	نبذة عن مصادر الدراسة والدراسات السابقة:
٢٥	تقسيم الدراسة:
٢٨	مصطلحات الدراسة:
٣٤	لفظة الحوار في القرآن الكريم:
٣٥	المعنى الاصطلاحي للفظه الحوار:
٤٠	معنى الاختلاف في القرآن الكريم:
٤٩	الباب الأول
٥١	مدخل:
٥٢	أولاً: الاعتراف بظاهرة التنوع والاختلاف:
٥٦	ثانياً: شواهد الإقرار بالاختلاف والاعتراف بالمخالف في نصوص الوحي:
٦٣	ثالثاً: ضرورة فقه طبيعة الاختلاف بين المسلمين:
٨٣	رابعاً: ضرورة فقه الأحاديث المتعلقة بالخلاف:
٩٥	الفصل الثاني

٩٥	أساس التعايش السلمي
٩٥	أولاً: تأكيد روح التعايش السلمي بين البشر:
١٢٦	ثانياً: تحقيق الاجتماع والألفة، والاعتصام بحبل الله بين المسلمين:
١٣٧	الفصل الثالث
١٣٧	أساس اتباع الحق والعدل
١٣٧	أولاً: الإنصاف مع المخالف مطلقاً:
١٤٣	ثانياً: حرمة عرض المسلم:
١٤٩	ثالثاً: مقتضيات العدل مع المخالف:
١٥٧	الباب الثاني
١٥٧	أهداف الحوار
١٦٠	المبحث الأول: إظهار الحقائق المدعمة بالأدلة والبراهين
١٦٧	المبحث الثاني: التفاهم والتعاون للخروج من مرحلة الأزمة
١٧١	المبحث الثالث: الترقى بالذات
١٧٤	المبحث الرابع: التلاقح الحضاري
١٧٨	المبحث الخامس: تصحيح المفاهيم
١٨٢	المبحث السادس: حلّ النزاعات والخلافات
١٨٣	الباب الثالث
١٨٣	ضوابط الحوار وآدابه
١٨٥	المبحث الأول: الحوار بالتي هي أحسن
١٨٩	المبحث الثاني: مراعاة حال المحاورين ومستوياتهم الدينية والثقافية



١٩١	المبحث الثالث: الانصات والاستماع الجيد
١٩٤	المبحث الرابع: التأكيد على القواسم المشتركة
١٩٨	المبحث الخامس: الاحتجاج بما يكون حجة عند المتحاور معه
٢٠٢	المبحث السادس: ضوابط مساعدة
٢٠٧	الباب الرابع
٢٠٧	وسائل الحوار
٢٠٩	الفصل الأول: الحوار بالقدوة والسلوك العملي
٢١٧	الفصل الثاني وسائل معاصرة
٢١٧	المبحث الأول: تفعيل دور سفارات الدول الإسلامية
٢١٨	المبحث الثاني: التركيز على الحوار مع الشعوب
٢٢٣	المبحث الثالث: وسائل تعزيز ثقافة الحوار في المجتمع
٢٢٣	أولاً: التنشئة الاجتماعية SOCIALIZATION
٢٣٠	ثانياً: تفعيل دور المؤسسات التعليمية والتربوية
٢٣٨	ثالثاً: المناهج الدراسية
٢٤٤	رابعاً: المؤسسات الإعلامية
٢٥١	خامساً: تفعيل دور المؤسسات الدينية والمساجد
٢٥٥	الباب الخامس
٢٥٥	الآثار الإيجابية الناجمة عن الحوار
٢٥٧	الآثار الإيجابية الناجمة عن الحوار
٢٥٧	أولاً: تخفيف حدة التعصب

٢٥٩	..... ثانياً: تخلص المجتمع من الشخصيات "السيكوباتية":
٢٦٠	..... ثالثاً: تحقيق الوحدة والاجتماع بين المسلمين:
٢٦١	..... رابعاً: الدعوة إلى الله:
٢٦٥	..... خامساً: التلاقح الحضاري:
٢٧١	..... الباب السادس
٢٧١	..... الآثار السلبية الناجمة عن غياب الحوار
٢٧٣	..... المبحث الأول: الإسراف في تقدير الذات
٢٧٥	..... المبحث الثاني: شيوع فكر التعصب
٢٨١	..... المبحث الثالث: بروز التطرف الفكري
٢٨٣	..... المبحث الرابع: انتشار السلوك العدواني والعنف
٢٨٥	..... المبحث الخامس: فقدان الثقة بين الأفراد في المجتمع الواحد
٢٨٧	..... المبحث السادس: الوقوع في الظلم والبغي و بروز ظاهرة التكفير
٢٩٢	..... المبحث السابع: انتشار داء الفرقة والنزاع
٢٩٣	..... المبحث الثامن: التراجع الحضاري
٢٩٥	..... الخاتمة والنتائج
٢٩٩	..... فهرس المصادر والمراجع
٣١٥	..... المراجع باللغة الانكليزية:

## المقدمة

الحمد لله الذي بعث في الأميين رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين. والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، أرسله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور المبين. وبعد:

فقد جعل الله سبحانه الوحي (قرآناً وسنة) رسالةً إلى الخلق على امتداد العصور، واختلاف الأزمنة والدهور. وقد حوى في ثناياه منهجاً متكاملًا للحياة البشرية، بكل ما تحمله من أعباء ومتغيرات هائلة. كما ضمّ في طيّ توجيهاته وتشريعاته أهم الوسائل، وأوضح السبل للتعايش والتعامل بين البشر، على مختلف أجناسهم وأعراقهم، في سبيل تحقيق رسالة العمران والاستخلاف في هذه الأرض.

والحوار من أهم الوسائل التي تضمنتها تلك التشريعات، سواء ما جاء منها في القرآن الكريم، أو ما ورد في السنة النبوية. وقد جاء اهتمام الوحي (قرآناً وسنة) بالحوار واضحاً، شاملاً لمختلف إحدائياته وأبعاده وأساليبه وغاياته العظيمة. ولم يكن ذلك الاهتمام تجريدياً أو تنظيريّاً في منأى عن واقع الحياة، بل جاءت سلوكيات النبي ﷺ وأفعاله المثبتة في سنته وسيرته، وعاءً تنفيذياً لذلك.

وعلى هذا أصبح الحوار عطاءً معرفة الوحي في الكتاب والسنة والسيرة بمختلف أبعاده: في مجال العقيدة والعبادة والمعاملة والثقافة والسياسة والحضارة والعمران والأخلاق.

بيد أن عملية تفعيل الحوار في الحياة الإنسانية، على امتداد عصورها، وتعاقب تغيراتها لا تتحقق إلا بامتلاك الفقه لنصوص الوحي، والقدرة على التعامل مع قيم الحوار في الكتاب والسنة من خلال التحديات الواقعة والإشكاليات الحادثة، وإيجاد الحلول الشرعية التي تتلائم مع هذا الواقع في ضوء إمكاناته وأطره.

فالاقتصار على التنظير وإطلاق الشعارات المؤكدة لدور الحوار في الإسلام وفاعليته في ماضي الأمة، مع انسحاب سلوكيٍّ من واقع الحوار، وأروقه إلى دهاليز الانكفاء والانغلاق على الذات، أمر مغاير لإدراك غايات نصوص الوحي وأبعاده.

من هنا تأتي هذه الدراسة في محاولة متواضعة لتحويل دفة الحوار وإدارتها من مواصلة السير في اتجاه التفكير التنظيري التجريدي إلى تفكير استراتيجي يستوعب إحدائيات الحوار وقيمه في الوحي، سلوكاً وتنفيذاً. كما تروم الدراسة تأصيل مقدمة ضرورية لتأسيس فقه حوارٍ معاصر، من خلال استلهام المنهجية القرآنية والنبوية في بنائه المعرفي، وتأصيله الفكري من جهة، واستدعاء الدراسات النفسية والاجتماعية في معالجة موضوع الحوار من جهة أخرى.

فالعلم بالقرآن الكريم والسنة النبوية، أحكاماً ومقاصد، لا بد أن يصاحبه فقه بشروط تنزيلها على الواقع، في إطار منهجية إسلامية، تنظم تلك المعرفة من خلال فهم دقيق لظروف الزمان والمكان، وتغيراتها المتسارعة، الأمر الذي يقتضي الفهم العميق، والاهتمام الدقيق بالسياق النفسي والاجتماعي لتلك الأحكام والمقاصد القرآنية والنبوية، وظرفية تنزيلها في الواقع.

فالحوار ظاهرةٌ نتاج حيلةٍ من العوامل النفسية والاجتماعية، والظروف السياسية

والاقتصادية والثقافية. وأية معالجة جادة لهذه الظاهرة، لا تتطلب مجرد الرجوع إلى القرآن والسنة للاستشهاد بهما في موضوع الحوار أو التنظير له فحسب، بل تتطلب إماماً حقيقياً بجملة هذه العوامل والظروف التي يمكن أن تُسهم في توليدها، ومدّها بأسباب الحياة، ونقلها من واقع التنظير والتجريد إلى حيز التنفيذ والتطبيق.

### إشكالية الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تأسيس نظرية الحوار الإسلامي مع المخالف مطلقاً، من خلال القيام بعرض قيم الحوار، وإحداثياته الواردة في مختلف نصوص الوحي (قرآناً وسنة)، مع التركيز على النصوص والوقائع الواردة في السنة النبوية بشكل خاص.

### أهمية الدراسة:

تتميز هذه الدراسة عن غيرها من دراسات اهتمت بموضوع الحوار، بمحاولة المساهمة في تقديم إضافة نوعية في فنّ الحوار مع المخالف، وذلك من خلال وضع استراتيجية، تتسم بالشمول والتكامل، تقوم على الجمع بين ما جاء في الكتاب والسنة من معالم وضوابط وقواعد مستنبطة للحوار، وبين الدراسات النفسية والاجتماعية المؤثرة في إدارة دفة الحوار وتأسيس ثقافته ونشرها في المجتمع.

والدراسة إذ تُسهم بمحاولة تقديم هذه الإضافة، تنطلق من الإيمان بأهمية تفعيل الحوار في ظل الظروف الراهنة، تفعيلاً يعيد للحوار دوره، ويصبح به عاملاً موجّهاً صوب تشكيل شخصية الفرد والأمة المسلمة.

وللوقوف على أثر ذلك في الواقع المعاش أهمية واضحة تتجلى في نقطتين

أساسيتين:

فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنّة النبويّة

**الأولى:** إدراك أن عالمية الإسلام، وخلوده، وصلاحيته لكل زمان ومكان تتجلى في تأسيس ثقافة الحوار، وتبني استراتيجية واضحة الأهداف والمعالم والوسائل لتحقيق ذلك. من هنا يأتي اهتمام الدراسة بإثارة الوسائل الجديدة، والأساليب الحديثة، الناجعة في دفع دفة الحوار إلى الإمام، مع إبراز لأهم المعوقات.

**الثانية:** إن غياب هذا الإدراك لدور استراتيجية الحوار في الواقع المعاش، يمكن أن يعرّس في النفوس صوراً سلبية عن الإسلام ومنظومته المعرفية وحضارته الإنسانية. فيتحول الحوار آنذاك إلى وسيلة تنفيرية، تخلق الحواجز النفسية والفكرية بين أمم العالم وشعوبه من جهة، وبين الإسلام والمسلمين من جهة أخرى.

### منهج الدراسة:

تقوم هذه الدراسة على توظيف منهج التحليل والاستنباط، في محاولة لتلمس دور الحوار، وأسس، ومعالمه، وأهدافه، وشروط تفعيله، من خلال تتبع واستقراء جزئي في السنة النبوية التي تشكل الوعاء التطبيقي لتشريعات القرآن الكريم وتعاليمه.

كما تستدعي هذه الدراسة منهجية الجمع والمزاوجة بين المفاهيم الشرعية الواردة في نصوص الوحي، والاتجاهات النفسية والاجتماعية الواردة في الدراسات الحديثة كلما دعت الحاجة إلى ذلك، في محاولة يمكن اعتبارها من أوائل مثيلاتها في الدراسات الحديثة الفقهية التي تناولت إشكالية الحوار بشكل خاص.

ولا تروم الدراسة من خلال هذا المنهج تقمص بعض الإشارات النفسية والاجتماعية ثم تنزيلها دون إدراك لأبعادها، بل تتلمس من خلال تلك المنهجية، إيجاد نوع من التكامل الضروري بين الدراسات الشرعية والإنسانية، من خلال

استحضار الوسائل والأدوات الحديثة المعينة في الترقى بالذات الإنسانية، وتطوير وسائل التعرف عليها.

وقد راعت نصوص القرآن والسنة النبوية تلك الجوانب النفسية والاجتماعية المتعددة لصدورها عن وحيٍ مفارق للزمان والمكان، محيط بالنفس الإنسانية من مختلف جوانبها.

من هنا فإن عملية إغفال الجوانب النفسية والاجتماعية، أو تجاوزها في دراسة ظاهرة الحوار، يمكن أن يسوق إلى الفشل في التوصل إلى حلول أمثل لتفعيل هذه الظاهرة، والإفادة منها في مناحي الحياة المختلفة. والدراسة محاولة تطبيقية لتأكيد أهمية إحدَثٍ مثل هذا التكامل في عصرٍ يتأكد فيه أهمية الجمع بين فقه الواقع والنصوص.

### نبذة عن مصادر الدراسة والدراسات السابقة:

احتل الحوار مكانة بارزة في الفكر الإسلامي قديماً وحديثاً، كما احتل الحديث عن المخالف منزلة تضاهاها. وتجلّى اهتمام العلماء بالحوار في القديم والحديث من خلال البحث في أهميته وضوابطه وآدابه، مع الاهتمام الواضح بما حفل به التاريخ الإسلامي من حوارات ومناظرات.

وقد تنوعت كتابات العلماء السابقين، رحمهم الله، لإنتاج سلسلة متواصلة، دأبها ترسيخ الحوار بين المسلمين ومخالفهم بشكل عام، وأهل الكتاب بشكل خاص. من هنا فإن الباحث في هذا الموضوع، يجد نفسه أمام ثروة هائلة من الأدبيات المختلفة، التي يمكن إدراج الكثير منها تحت الفكر الجدلي والحواري في الإسلام.

وقد أسهمت المواجهة التاريخية التي حدثت بين المسلمين وغيرهم في عصور

الفتوحات، وما اتسمت به من التسامح، والبعد عن الجمود والتعصب، في ازدهار وانتعاش الحركة الحوارية، أو الجدلية، ونشأة ما عُرف، فيما بعد، بعلم مقارنة الأديان، ودراسة الملل والنحل.

وتكثرت تلك الحركة الفكرية بظهور عدد من المؤلفات في مراحل تاريخية مبكرة، تعود إلى نهاية القرن الثاني وبدايات القرن الثالث الهجري. وأدت تلك القفزات المبكرة إلى قيام ردود فعل من قبل بعض الكُتّاب غير المسلمين من أمثال يوحنا الدمشقي<sup>(١)</sup> و"تيودور" أبو قرّة و"كركيساني" اليهودي، تمثلت في ظهور عدد من كتاباتهم، في جوّ غلبت عليه الروح العلمية. الأمر الذي أسهم في نشأة حوار كتابي بين المسلمين وغيرهم من أرباب الأديان الأخرى وخاصة النصارى.

ثم توالى المؤلفات في هذا المجال وجاء الكثير منها يحمل عنوان الردود على النصارى<sup>(٢)</sup> وهي - كما يوحى عنونها - تعالج قضايا معينة لا تخرج عن استخراج

(١) القديس يوحنا الدمشقي (٦٧٥-٧٥٠م) ولد في دمشق من آباء ومعلمي الكنيسة. حفيد منصور بن سرجون رئيس ديوان المالية في عهد معاوية. ألف في اللاهوت والفلسفة والتاريخ ومهد بمؤلفاته إلى نشأة تعليم الفلسفة واللاهوت في أوروبا. انظر ترجمته: "زوني أيلي الفا"، موسوعة أعلام الفلسفة، مراجعة: جورج نخل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج ٢، ص ٦٠١.

(٢) من أمثلة تلك المؤلفات: ما كتبه المرادار (٢٢٦هـ) تحت عنوان الرد على النصارى، أبو الهذيل العلاف (٢٢هـ) الرد على النصارى أيضاً، والرد على اليهود والرد على أهل الأديان، علي بن ربان الطبري (٢٤٠هـ) الرد على النصارى... عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) المختار في الرد على النصارى، تقديم وتحقيق: محمد عبد الله الشرقاوي، دار الصحوة، القاهرة، ١٩٨٤م. راجع، أبو الفرج محمد بن إسحاق ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨م، ج ١، ص ٢٤٦ - ٢٥٥.



البشارات بنوة محمد ﷺ من التوراة والإنجيل ومسألة دعوى ألوهية عيسى عليه السلام  
في صيغة مناقشة لآراء النصارى وأقوالهم في تلك المسائل. كما تعرضت تلك المؤلفات  
لقضية التحريف الوارد في نصوص الكتابين: التوراة والإنجيل. وكان من أبرز أهداف  
تلك الأدبيات ومثيلاًها، الدفاع عن العقيدة الإسلامية والخوف عليها من التشويش  
والتشكيك، والحفاظ على الهوية الإسلامية. فكان الإصرار على هذين الأمرين عاملاً  
مهماً في الحفاظ على خصوصية الحضارة الإسلامية وهويتها.

وكان من نتائج تلك الجهود، تحول عدد من الكتاب النصارى<sup>(٣)</sup> إلى الإسلام  
والكتابة لأقوامهم شارحين أسباب ذلك التحول، ومن تلك الكتابات: تحفة الأريب  
في الرد على أهل الصليب للترجمان<sup>(٤)</sup>. وقد اشتملت تلك الأدبيات عموماً، إلى جانب  
المناظرة والجدل، على: التاريخ، والوصف، والتحليل العلمي، والمقارنة الموضوعية،

(3) من أمثلة هؤلاء: أبو علي يحيى بن عيسى بن حزنه الطيب، كان نصرانياً ثم أسلم ووصف رسالة في الرد  
على النصارى، وبين عوار مذاهبهم، ومدح فيها الإسلام، وأقام الحجة على أنه الدين الحق، وذكر فيها ما  
قرأه في التوراة والإنجيل من ظهور النبي ﷺ، وأنه نبي مبعوث، وأن اليهود والنصارى أخفوا ذلك، ولم  
يظهروه، ثم ذكر فيها معائب اليهود والنصارى. وهي رسالة حسنة أجاد فيها، وهو من المشاهير في علم  
رآه وعمله وكان يظن أهل محلته ومعارفه بغير أجرة، ويحمل اليهم الأشربة والأدوية بغير عوض، ويتفقد  
الفقراء ويحسن إليهم، ووقف كتبه قبل وفاته، وجعلها في مشهد أبي حنيفة رحمه الله، توفي في سنة ٤٩٣.  
انظر ترجمته في: صديق بن حسن القنوجي، أجدد العلوم، تحقيق: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية،  
بيروت، ١٩٧٨م، ج ٣، ١١٧.

(4) عبد الله بن عبد الله الترجمان، وكان من أفاضلهم، ولما أسلم أراد أن يبين أباظليل نواميسهم، وتناقض  
أناجيلهم، وفساد عقولهم، بالنقل والعقل. حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار  
الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج ١، ص ٣٦٢.

والنقد المنهجي كذلك<sup>(٥)</sup>.

كما ظهرت مؤلفات أخرى تحوي في طياتها حوارات رفيعة دارت بين المسلمين والمسيحيين، والمسلمين واليهود الذين عاشوا في كنف الإسلام في الأندلس بوجه خاص، ومن أشهرها رسائل القاضي الأندلسي أبو الوليد سليمان بن خلف المالكي الباجي<sup>(٦)</sup>. وكانت تلك الرسائل حواراً ورداً على راهب دير كلوني (القديس الفرنسي هيو) كبير الرهبان، الذي أرسل رسالة إلى المقتدر بالله حاكم سرقسطة آنذاك، يدعو به إلى دخول المسيحية؛ فأرسل الحاكم إلى القاضي الباجي للرد عليه.

وتُعدّ الرسالتان من أهم الوثائق التي تكشف اهتمام المسلمين بالحوار والجدل المتبادل مع النصارى، المعبر عن مديات الاحتكاك الثقافي بينهم. وقد لقيت هاتان الرسالتان عناية بالغة من قبل المستشرقين المهتمين برصد العلاقات بين الإسلام والغرب بوجه عام كما تمت ترجمتهما إلى أكثر من لغة أوروبية.

(5) محمد عبد الله الشرقاوي، بحوث في مقارنة الأديان، دار الفكر العربي، مصر، ٢٠٠٠م، ص ٣٤٥.

(6) أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الباجي الأندلسي المالكي، ولد سنة ٤٠٣هـ. كان من علماء الأندلس، وحفاظها، سكن شرق الأندلس، ورحل إلى المشرق، وأقام بمكة، ثم رحل إلى بغداد يقرأ الحديث ويدرس الفقه، له كتاب التجريح والتعديل، وكتاب شرح المدونة، وكتاب إحكام الفصول في أحكام الأصول، وكتاب المنتقى المنهاج في ترتيب الحجاج، وغيرها. وهو أحد أئمة المسلمين، وكان قد رجع إلى الأندلس وولي القضاء هناك. انظر ترجمته في: محمد بن أحمد الذهبي، سير اعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ، ج ١٨، ٥٣٦. إبراهيم بن علي اليعمري، الديباج المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ج ١، ص ١٢٠.

ومن أهم ما ورد في رسالة الباجي إلى الراهب، تلك الآداب التي حوتها في ثنايا الحوار المكتوب، فقد أظهر الباجي اهتمامه بأمر الراهب، واحترامه له، وتقديره لمكانته بين قومه، كما أعرض عن مناقشة الأمور المستحيلة التي ذكرها الراهب من إلهية المسيح، وغير ذلك.

ويتضح من الرسالة، أدب الحوار ونهجه التطبيقي من خلال رفق الباجي، رحمه الله، في محاورته، وصبره، والتزامه بالموضوعية، بأسلوب تطبيقي يمكن الاستفادة منه في كتابة أدبيات الحوار إلى حد بعيد<sup>(٧)</sup>.

بيد أن تلك الفترة أعقبتها فترة جمود في الحركة الحوارية الكتابية حتى منتصف القرن الخامس الهجري، عندما ظهر ابن حزم الأندلسي<sup>(٨)</sup>. بموسوعته: الفصل في الملل والأهواء والنحل. وقد عالج فيها مختلف الظواهر الجدلية، سواء على صعيد العلاقات بين الفرق الإسلامية، أو على صعيد العلاقات بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى. ومما تميزت به موسوعته تلك، أنها لم تأت في سياق الردود، كما غلب ذلك الطابع على كتابات من قبله، إلا أنها لم تخرج، كذلك، عن الاهتمام بالعرض التطبيقي دون الاهتمام بالتنظير للحوار والجدل مع المخالفين الذين تعرض

---

(7) رسالة راهب فرنسة إلى المسلمين وحواب الباجي عليها، تحقيق: محمد عبد الله الشرقاوي، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ١٩٨٦ م.

(8) علي بن أحمد بن حزم ولد سنة ٣٨٣هـ بقرطبة. أقبل على العلم فحصل الكثير من العلوم الشرعية، وألف فيها، كان شافعي المذهب، ثم انتقل إلى مذهب أهل الظاهر، توفي عام ٥٠٦هـ. له العديد من المؤلفات منها: الإحكام في أصول الأحكام، والنبد في أصول الفقه، والفصل في الملل والأهواء والنحل. انظر ترجمته: الذهبي، مرجع سابق، ج ١٨، ص ١٨٤.

لمجادلتهم. وغالب تلك الكتابات ركّز أصحابها على مسألة التحريف الواقع في كتب اليهود والنصارى، وعدم معقولية الاحتكام إليها أو الاحتجاج بها.

ومن المؤلفات المعروفة التي حوت نماذج حوارات تطبيقية كتاب عيون المناظرات<sup>(٩)</sup>. وقد شملت مناظرات عديدة منها ما جاء في القرآن الكريم، ومنها ما ورد في السنة النبوية. ومنها ما حدث في عصور الخلافة الإسلامية بين العلماء والخلفاء من جهة وعلماء النصارى واليهود من جهة أخرى، إضافة إلى بعض الحوارات الدائرة بين أرباب الفرق الإسلامية آنذاك.

وهكذا يمكننا القول بأن أدبيات الحوار والجدال في تلك الفترة، تناولت قضايا محددة على سبيل العرض التطبيقي، وقامت بمعالجتها والرد عليها، بأسلوب اتسم بتطبيق ضوابط الحوار ومنهجيته - في الغالب - التي أرست دعائمها عشرات النصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية. وكان الاهتمام منصباً على صور الاعتراض على آراء المخالفين وأدلتهم، فجاءت كتاباتهم تطبيقية، فتوسعوا في تناول الحوار والجدل كتطبيق، لكنهم، لم يتناولوه من جوانبه النظرية إلا نادراً.

ومن مصادر الدراسة المهمة كذلك، المؤلفات المدونة في علم المناظرة (آداب البحث)<sup>(١٠)</sup>. فقد تضمنت تلك المؤلفات شروط وآداب الجدل، التي يذكرها علماء

(9) أبو علي عمر السكوتي، عيون المناظرات، تحقيق: سعد غراب، منشورات الجامعة التونسية، تونس، ١٩٧٦م.

(10) ذكر ابن خلدون في المقدمة أن الجدل هو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم، فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً، ومن الاستدلال ما يكون صواباً، وما يكون

الجدل في باب المناظرة، وتحدد سلوك المتناظرين في مجالس المناظرة، وهي شروط يمكن الإفادة منها كثيراً في مجال الحوار اليوم، مع إجراء بعض المحاولات التجديدية لها<sup>(١١)</sup>.

ومن أمثلة تلك المؤلفات ما كتبه ابن حزم الظاهري، كذلك، فقد عقد فصلاً كاملاً في كتابه: التقريب لحدّ المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية<sup>(١٢)</sup>، ذاكراً في كتابه عدداً وافراً من آداب البحث والمناظرة الكفيلة بالوصول إلى الحق والخير.

ومن ذلك، أيضاً، ما كتبه الباجي، كذلك وعقد له فصلاً في كتابه: المنهاج في ترتيب الحجج بعنوان: ما يتأدب به المناظر<sup>(١٣)</sup>.

وذهب هؤلاء العلماء جميعاً - في تلك الأدبيات - إلى ضرورة التأدب بجملة من الشروط والضوابط التي تشكّل في جملتها نظاماً من العلاقات بين المتناظرين<sup>(١٤)</sup>. وقد شغلت تلك الآداب والقواعد، على اختلاف مسمياتها بين العلماء، حيزاً كبيراً من

---

خطأ، فاحتاج إلى وضع آداب وقواعد يعرف منه حال المستدل والمجيب، ولذلك قيل فيه إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه.

(11) بدأت العناية بالتأليف والتدوين في فن المناظرة مع ظهور المدارس الكلامية.

(12) كتاب مطبوع بتحقيق: حسان عباس، بيروت، ١٩٥٩م.

(13) الكتاب مطبوع بتحقيق: عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٧م.

(14) من أمثلة هذه الدراسات أيضاً: ابن وهب أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم، البرهان في وجوه البيان، تحقيق: أحمد مطلوب، وخديجة الحديثي، طبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م. وعبد الملك الجويني، الكافية في الجدل، تحقيق: فوقية حسين محمود، عيسى الحلبي، مصر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

حجم مؤلفاتهم في علم الجدل.

أما الدراسات الحديثة المتعلقة بالمخالف غير المسلم، فقد واصل البعض منها تيار الكتابة الجدلية التطبيقية القديم، متناولاً مسائل تتعلق بتاريخ كتابة الأناجيل، وتعدد نسخها، والبحث في مدى مصداقيتها. ومن أمثال تلك الدراسات: كتاب إظهار الحق، للعلامة رحمة الله بن خليل الرحمن العثماني الكيرانوي<sup>(15)</sup>. ويقع الكتاب في جزئين وهو كتاب مناظرة توصيفي تاريخي، شمل المسائل الجوهرية والمواضيع الأساسية والمباحث المهمة بين الإسلام والمسيحية. أظهر فيها الكاتب إبطال مزاعم اليهود والنصارى (من خلال مناظرته العلنية للقس الإنكليزي الشهير فندر) إلى جانب إيراده لما حصل تاريخياً بين علماء المسلمين في الهند والمنصرين من البروتستانت على وجه الخصوص. فقد حاول هولاء بشق الوسائل نشر ديانتهم أثناء احتلالهم للهند، حتى وصل الأمر بهم آنذاك إلى جعل الشوارع والأسواق في الهند منابر لتحدي المسلمين في معتقداتهم، وتشكيكهم في دينهم ومهاجمة كل ما يمت إلى الإسلام بصلة؛ فجاءت مناظرة الشيخ للقس فندر والتي جاءت تفاصيلها في هذا الكتاب، ردّاً صارماً على ذلك التحدي، داحضة الشبهات الباطلة المثارة ضد الإسلام والقرآن وشخصية النبي ﷺ.

والكتاب -بشهادة معاصريه من المسلمين والنصارى- أسهم بشكل واضح في وقف السيل العارم من شبهات المنصرين الذين دأبوا على نشر أفكارهم بين المسلمين الهنود آنذاك، وخاصة القس الشهير "فندر". وقد ترجم الكتاب إلى لغات عدة ونال

(15) رحمة الله بن خليل الرحمن الكيرانوي، إظهار الحق، تحقيق: عمر الدسوقي، طبعة الشؤون الدينية، قطر،

شهرة واسعة حتى أصبح بجدارة مقصداً للباحثين والمحققين في هذا المجال.

وتناولت بعض الكتابات المناظرات الشفاهية التي تمت بين علماء من المسلمين من جهة، وبعض القساوسة من جهة أخرى. ومن أشهرها ما قام به الأستاذ أحمد ديدات<sup>(١٦)</sup>، رحمه الله، العالم المتخصص في تاريخ الأديان المقارن.

إلا أن غالب تلك الأدبيات لم يشكل إضافة نوعية تختلف عما تناوله العلماء السابقون رحمهم الله من مسائل وقضايا تتعلق بالحوار القائم بين المسلمين والنصارى، مثل: ألوهية المسيح، ومصداقية التوراة والإنجيل، والتناقض في الأناجيل، وأمثلة على التحريفات فيها ...

وعليه فقد ظلت تلك الأدبيات تدور في فلك الجدل التطبيقي. وقد اتسمت تلك الأدبيات (خاصة مناظرات الشيخ ديدات) بتعرية أخطاء المسيحيين بوضوح وصرامة. وكان لتلك المناظرات أثرها الإيجابي البالغ، المتمثل في إسلام عشرات من المسيحيين إضافة إلى بث الحماسة في صفوف المسلمين، وازدياد ثقتهم بدينهم.

وثمة أدبيات أخرى ظهرت في أعقاب عام ١٩٦٥م حين دشّن الحوار بين

المسلمين والمسيحيين مرحلة جديدة، تمثلت في تعاون كل من جلالة الملك فيصل بن

(16) من مسلمي جمهورية جنوب أفريقية وأحد أبرز العلماء المسلمين في العصر الحاضر في مجال مقارنة الأديان. قام بإجراء حوارات عديدة مع المسيحيين في أماكن عديدة في العالم. أسس مركزاً لإعداد الدعاة، باسم: مركز الدعوة الإسلامي. وقد طبعت تلك الحوارات وجمعت في كتاب بعنوان مجموعة كتيبات في مقارنة الأديان. انظر ترجمته في: المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان، جمع: أحمد حجازي، مكتبة زهران، القاهرة، ١٩٨٨م.

عبد العزيز آل سعود، رحمه الله، ملك المملكة العربية السعودية آنذاك، والخبير الأكبر البابا بولس السادس، بابا الفاتيكان - عبر المستشارين الخاصين لكل منهما - في بدء الحوار بين الجانبين المسلم والكاثوليكي<sup>(١٧)</sup>.

وقد تمثلت تلك الأدبيات في الأوراق الصادرة عن الندوات واللقاءات، التي قامت بتنظيمها وزارة العدل في المملكة العربية السعودية، وغيرها من مؤسسات، مع كبار رجال القانون والفكر المسيحي في أوروبا. ومن أبرز الموضوعات المتناولة فيها: العقوبات والحدود في الإسلام، مكانة المرأة في الإسلام، حقوق الإنسان في الشريعة الإسلامية، ضمان حقوق المسيحيين في الدولة الإسلامية، السلام في العقيدة الإسلامية، قضية الميراث في الإسلام، شهادة المرأة في الإسلام، تعدد الزوجات وموضوع الحجاب في الإسلام<sup>(١٨)</sup>.

(17) جاء ذلك بعد تصريح عن المجمع الفاتيكاني الثاني خاص بعلاقة الكنيسة مع الديانات غير المسيحية.

جاء فيه: "إن الكنيسة تنظر بعين الاعتبار أيضا إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد الحي القيوم الرحيم القادر على كل شيء، خالق السماء والأرض ومكلم البشر. الذين يجتهدون في أن يخضعوا بكليتهم حتى لأوامر الله الخفية، كما خضع له إبراهيم الذي يسند إليه بطيبة خاطر الإيمان الإسلامي. وإنهم يجلسون يسوع كني وإن لم يعترفوا به كإله، ويكرمون أمه مريم العذراء... .. وإذا كانت قد نشأت على مرّ القرون، منازعات وعداوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين فالمجمع المقدس يحضّر الجميع على أن يتناسوا الماضي وينصرفوا بإخلاص إلى التفاهم المتبادل، ويصونوا ويعززوا معاً العدالة الاجتماعية والخير الأخلاقية والسلام والحرية لفائدة الناس جميعاً". نقلا عن أليكسي جورافسكي، الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم، ترجمة: خلف الجراد، إصدار عالم المعرفة، الكويت، تشرين الثاني ١٩٩٦م، ص ١٤٣-١٤٤. وانظر كذلك:

R. Caspar, Islam according to Vatican 11(2), (Roma: 1976). P.2.

(18) ندوات علمية حول الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان في الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣م، ص ٨، ٥٧، ٧٧، ١٠٥.



وأسهمت تلك الكتابات في رفع بعض الشبهات المثارة ضد تعاليم الإسلام وأحكامه فيما يتعلق بالمواضيع المطروحة للنقاش<sup>(١٩)</sup>. ودونت وقائع تلك الندوات في كتاب وثائقي تحت عنوان ندوات علمية في كل من الفاتيكان، باريس، جنيف، وستراسبورغ.

وتوالى المؤتمرات والندوات في مجال الحوار الإسلامي المسيحي، والتي تشكل أوراق أعمالها حصيلة مهمة لمثيلات هذه الدراسة، ومنها المؤتمرات المنعقدة في الأزهر. ومن ذلك مؤتمر الإسلام ومستقبل الحوار الحضاري يوليو ١٩٩٦م.

ومن أبرز الدراسات المختصة كذلك، الأدبيات الصادرة عن المنتدى الإسلامي العالمي للحوار<sup>(٢٠)</sup>. وتأتي معظم أدبياتها في أوراق تضم بحثاً ودراسات متمخضة عن مؤتمرات وندوات ولقاءات، تمّ فيها تناول مختلف القضايا المتعلقة بالحوار وأهمية تعزيز ثقافته ونشرها، والدعوة إلى احترام الحريات الدينية، والمقدسات، وممارسة الشعائر الدينية. وتعد تلك الكتب والمؤلفات في غاية الأهمية لما تناولته من جوانب تطبيقية في ثقافة الحوار.

بيد أن ثمة أموراً ينبغي الإشارة إليها في سياق الحديث عن الأدبيات المعاصرة، الخاصة باللقاءات والندوات المنعقدة مع المسيحيين، منها:

أولاً: أن تلك اللقاءات جرت على مستوى نخبوي بحث، وليس على مستوى

---

(19) حول ذلك راجع: مناظرة بين الإسلام والنصرانية، نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية، الرياض، ١٤٠٧هـ، ص ١٠.

(20) موقع الحوار على الانترنت: [www.dialogueonline.org](http://www.dialogueonline.org)

جماهيري عام.

ثانياً: أن الكنيسة عرّضت نفسها وتوجهاتها في الحوار للشبهات المتزايدة، بسبب أعمالها التنصيرية في القرنين الأخيرين في الوقت ذاته الذي تشارك وتدعو فيه إلى الحوار، الأمر الذي أدى إلى حذر بعض المسلمين الشديد من تلك اللقاءات باعتراف بعض المفكرين والعلماء المسيحيين أنفسهم<sup>(21)</sup>.

ثالثاً: الطابع الغالب على تلك الكتابات هو العرض التطبيقي، دون الاهتمام بالتحليل والتنظير إلا قليلاً.

والدراسة إذ وقفت على الأدبيات الخاصة بتلك اللقاءات، إنما تروم استقراء واقع الحوار الإسلامي مع المخالفين في محاولة لتقديم اقتراحات وتوصيات - من خلال هذه الرسالة - لوضع استراتيجية للحوار خلال المرحلة القادمة.

### وثمة دراسات معاصرة تناولت بالبحث مسارات جديدة تتعلق بالتنظير لأدب

(21) من ذلك التقرير الذي نشره موقع إسلام أون لاين يوم ٣١ مايو/أيار ٢٠٠٤ نقلاً عن صحيفة "فيلت إم زوغ" الألمانية التي نشرت أن الفاتيكان خصص أموالاً هائلة مؤخراً لتفعيل نشاط منظمة "رابطة الرهبان لنشر الإنجيل" في مجال وقف انتشار الإسلام حول العالم وتنصير أكبر عدد من المسلمين. وقد حمل هذا التقرير عنوان "مليون ضد محمد" وقال إن المنظمة المذكورة يعمل بها نحو مليون شخص "ليل نهار وفي كل مكان من أجل وقف انتشار الإسلام في العالم بكل قوة، وتشويه صورة النبي محمد ﷺ ونعته بأبشع الصفات". وتؤكد الأوراق والدراسات الناجمة عن تلك اللقاءات محدودية دورها في معالجة القضايا الحوارية كما تؤكد ضرورة اهتمام المسلمين بوضع استراتيجية محددة الأهداف والأبعاد للمشاركة في مثل تلك اللقاءات ضمن خطة عمل مدروسة يقوم بها نخبة من المختصين. راجع الموقع:

www.islamonline.com

الحوار بين المسلمين ومخالفهم من المسلمين وغيرهم. وأكدت تلك الدراسات أهمية وضرورة قيام حوار تُستكمل فيه الشروط والضوابط، التي أرسى دعائمها القرآن الكريم والسنة النبوية، كما أشارت تلك الدراسات إلى محورية الحوار ودوره في الواقع المعاصر، مؤكدة أهمية إحياء ضوابطه وشروطه بين المسلمين من جديد، مشيرة إلى الأبعاد السلبية الوخيمة الناجمة عن غياب الحوار، ومن أمثلة تلك الدراسات: أدب الحوار في الإسلام<sup>(22)</sup> لفضيلة شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي، وقد تناول فضيلته في الكتاب الواقع في ٤٦١ صفحة: توصيفاً دقيقاً لآداب الحوار والمناظرة وتطبيقات من القرآن عليها بشكل خاص.

وثمة دراسات معاصرة اهتمت اهتماماً واضحاً في التنظير للاختلاف بين المسلمين خاصة، مؤكدة أهمية الالتزام بأدب الخلاف والحوار فيما بينهم. ومن أبرز تلك الدراسات كتاب أدب الاختلاف في الإسلام لفضيلة الشيخ الدكتور طه جابر العلواني<sup>(23)</sup>. وقد حوى الكتاب الواقع في ١٦٨ صفحة تأصيلاً تاريخياً لما يمكن أن يُعرف بفقهِ الاختلاف معتمداً على الجانب التاريخي، متعرضاً بعمق لسمات الاختلاف بين العلماء المسلمين على مدى التاريخ، وما اصطبغت به خلافتهم من أدب جمٍّ ومحبة عظيمة واحترام متبادل.

ومن الكتابات المهمة في فقهِ الاختلاف بين المسلمين أيضاً، كتاب الصحوّة

(22) أدب الحوار في الإسلام، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٧م.

(23) طه جابر العلواني، أدب الاختلاف في الإسلام، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، جمادى الأولى ١٤٠٥هـ.

الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم لفضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي<sup>(٢٤)</sup>.

وقد تناول فضيلته في الكتاب الواقع في ١٧٦ صفحة، جلّ ما يتعلق بالاختلاف الواقع بين المسلمين مبينا في تمهيد الكتاب أنواع الاختلافات الواقعة بينهم، مؤكدا الأسس التي ينبغي قيام الاختلاف المقبول عليها، من فرضية الاتحاد والترابط إلى كراهية الإسلام ونبذ للفرقة والتباغض. والكتاب في منهجه، متمسك بالأصالة والالتزام بالنصوص الشرعية الواردة في القرآن والسنة. وقد فتح فضيلته - بهذا الكتاب وغيره - الباب لفهم نصوص السنة وأحاديثها وفق ضوابط وأصول في غاية الدقة، يمكن لها أن تسهم في حلّ معظم ما تعانيه الأمة من جراء سوء فهم الأحاديث وإساءة تنزيلها. كما قدّم فضيلته أبرز آداب الاختلاف التي ينبغي الالتزام بها عند وقوعه بين المسلمين، واضعا في خاتمة الكتاب أسس التعامل مع المخالف، بإيجاز غير مخل بالمعاني العظيمة فيها.

وثمة دراسات مختصة بالعلوم النفسية والاجتماعية وقفت الدراسة عليها في سبيل الإحاطة بجوانب موضوع الحوار من زوايا مختلفة لا تقتصر في العرض والمعالجة على الدراسات المتخصصة في الفقه والحديث ونحوهما، بل تمتد لتشمل العلوم الإنسانية<sup>(٢٥)</sup>.

(24) يوسف القرضاوي، الصحوّة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، دار الشروق، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.

(25) من أمثلة هذه الدراسات:

John M. Darely and Russell H. Fazio, *Expectancy Confirmation Processes Arising in the Social Interaction Sequence*, American Psychologist, vol. 35, no. 10, October 1980.

Yinger, J. M & Simpson, G. E., *Techniques for reducing prejudice; Changing the prejudiced person in: P. Waston (Ed), Psychology and Race*, Chicago Aldine

فقه الحوار مع المخالف في ضوء السُنّة النبويّة

يتبين من خلال العرض السابق لكثير مما تناوله العلماء في القديم والحديث في موضوع الحوار مع المخالف، ندرة وجود رسالة جامعة تضم الأسس التي يقوم عليها الخلاف والحوار مع المخالفين مطلقا في المعتقد أو من المسلمين. كما يتضح من عرض الدراسات السابقة قلة الاهتمام بدراسة تؤصل تلك الأسس وتستنبط الآداب والقواعد في الخلاف من السنة النبوية وسلوكيات النبي عليه الصلاة والسلام المندرجة في سيرته ونهجه مع مخالفه.

كما لم يتم الوقوف كذلك على دراسة تجمع بين ذلك كله وبين الدراسات النفسية والاجتماعية المعاصرة، بأسلوب يروم التكامل، والشمول بين العرض الفقهي والحديثي من جهة والاستعانة بعرض الدراسات النفسية والاجتماعية من جهة أخرى. الأمر الذي يؤكد أهمية هذه الدراسة وضرورتها المنهجية والعلمية خاصة في الوقت الحاضر.

### تقسيم الدراسة:

تنقسم هذه الدراسة إلى ستة أبواب، بالإضافة إلى المقدمة، والخاتمة، والفهرس. أما الباب الأول: فقد تم تخصيصه للبحث في الأسس التي يقوم عليه الحوار مع

---

Bublishing Company, 1973.

Straughn, R. Wringley, J. eds, *Values & Evaluation in Education*, London, Harper & Row Pub. 1980

Paul F. Secord and Carl W. Backman, *Social Psychology*, New York: McGraw-Hill, 1974

Henri Tajfel, *Individuals and Groups in Social Psychology*, British Journal of Social and Clinical Psychology, vol, 18, 1979.

Tajfel, *Social Stereotypes and Social Groups*, Little Brown Co, 1980.

المخالف. كما تمّ تقسيمه إلى ثلاثة فصول:

يبحث الفصل الأول: في أساس الاعتراف بظاهرة التنوع وفقه الاختلاف بين البشر.

ويركز الفصل الثاني: على أساس التعايش السلمي بين البشر.

أما الفصل الثالث: فقد تم فيه إيضاح أساس اتباع الحق والعدل مع المخالف.

الباب الثاني: تمّ تخصيصه للبحث في أهداف الحوار، وتمّ تقسيمه إلى ستة مباحث:

المبحث الأول: إظهار الحقائق المدعّمة بالأدلة والبراهين.

المبحث الثاني: التفاهم والتعاون للخروج من مرحلة الأزمة.

المبحث الثالث: الترقّي بالذات.

المبحث الرابع: التلاقح الحضاري.

المبحث الخامس: تصحيح المفاهيم.

المبحث السادس: حلّ النزاعات والخلافات.

أما الباب الثالث: فقد خصص للبحث في ضوابط الحوار وآدابه. وتمّ تقسيمه إلى ستة

مباحث:

المبحث الأول: الحوار بالتي هي أحسن.

المبحث الثاني: مراعاة حال المحاورين ومستوياتهم الدينية والثقافية.

المبحث الثالث: الإنصات والاستماع الجيد.

المبحث الرابع: التأكيد على القواسم المشتركة.

المبحث الخامس: الاحتجاج بما يكون حجة عند المتحوّر معه.

المبحث السادس: ضوابط مساعدة.

أما الباب الرابع: فقد تم تخصيصه للبحث في وسائل الحوار، وتم تقسيمه إلى فصلين:  
**الفصل الأول:** الحوار بالقدوة والسلوك العملي.

أما **الفصل الثاني:** فيضم الوسائل المعاصرة، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تفعيل دور سفارات الدول الإسلامية

المبحث الثاني: التركيز على الحوار مع الشعوب.

المبحث الثالث: وسائل تعزيز ثقافة الحوار في المجتمع. وتم في المبحث الثالث

تناول عدة وسائل ونقاط وهي: التنشئة الاجتماعية  
Socialization، تفعيل دور المؤسسات التعليمية والتربوية،  
المناهج الدراسية، المؤسسات الإعلامية، وتفعيل دور المؤسسات  
الدينية والمساجد.

أما الباب الخامس: فقد خصص للبحث في الآثار الإيجابية الناجمة عن الحوار وهي:

أولاً: تخفيف حدة التعصب .

ثانياً: تحليل المجتمع من الشخصيات "السيكوباتية".

ثالثاً: تحقيق الوحدة والاجتماع بين المسلمين.

رابعاً: الدعوة إلى الله.

خامساً: التلاقح الحضاري.

أما الباب السادس والأخير: فتم تخصيصه للبحث في الآثار السلبية الناجمة عن غياب

الحوار، وتم تقسيمه إلى ثمانية مباحث، يتناول كل مبحث أثراً سلبياً وهي:

الإسراف في تقدير الذات - شيوع فكر التعصب - بروز التطرف الفكري -

فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنة النبوية

انتشار السلوك العدواني والعنف - فقدان الثقة بين الأفراد في المجتمع الواحد -  
والوقوع في الظلم والبغي و بروز ظاهرة التكفير - انتشار داء الفرقة  
والنزاع - التراجع الحضاري.

### مصطلحات الدراسة:

يعتبر مصطلح الحوار من أبرز المصطلحات المستعملة في الدراسة وأهمها. ومدار الحوار  
والمحاورة في اللغة على: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة<sup>(٢٦)</sup>. والحوار: المحاوبة، والتحاور:  
التجاوب<sup>(٢٧)</sup>. وحاورته أي راجعته الكلام<sup>(٢٨)</sup>، ويقال كلمته فما رجع إلى حَوَاراً أو حواراً  
ومُحاورةً وحويراً ومحوّرةً أي: جواباً، وإنه لضعيف الحوار أي المحاورة<sup>(٢٩)</sup>.

وعلى هذا ذكر الراغب<sup>(٣٠)</sup> أن المحاورة والحوار هي المرادة في الكلام<sup>(٣١)</sup> ومنه

- 
- (26) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ج ٤، ص ٢١٨.
- (27) محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة ناشرون لبنان، بيروت،  
١٩٩٥م، ج ١، ص ٦٧.
- (28) أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير، المكتبة العلمية، بيروت، ج ١، ص ١٥٦. وانظر كذلك:  
حسين موسى وآخرون، الإفصاح في فقه اللغة، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، مصر، ج ١، ص ٢٠٥.
- (29) السيد محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: محمود الطناحي، طبعة وزارة  
الإعلام، الكويت، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، ج ١١، ص ١٠٧.
- (30) أبو القاسم الحسين بن محمد. صاحب المصنفات كان من أوائل المائة الخامسة، له: مفردات القرآن،  
وتفصيل الشأتين وتحصيل السعادتين، وغيرهما. نقل السيوطي عن الفخر الرازي أنه من أئمة السنة، توفي  
سنة نيف وخمسمائة. انظر ترجمته في: الذهبي، مرجع سابق، ج ١٨، ص ١٢١. صديق بن حسن  
القنوجي، مرجع سابق، ج ٣، ص ٦٨. وانظر كذلك: حاجي خليفة، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٧٧.
- (31) أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد خليل عيتاني،  
دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠١م، ص ١٤٢.



التحاور كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمْ إِنْ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾<sup>(٣٢)</sup>.

### وثمة ألفاظ تقترب من الحوار إلا أنها تفارقه وتغايره في المعنى وتختلف عنه ومن

ذلك الجدل والمناظرة. فالجدل في اللغة: هو اللدد في الخصومة والقدرة عليها، ومنه أخذ الجدل المنطقي، الذي هو القياس، المؤلف من المشهورات أو المسلّمات والغرض منه إلزام الخصم، وإفهام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان. والمجادلة والجدال: المخاصمة والخصام<sup>(٣٣)</sup>.

وقد جادله مجادلة وجدالاً أي: خاصمه وغلبه، ومنها مقابلة الحجّة بالحجّة، والمجادلة والمناظرة والمخاصمة<sup>(٣٤)</sup>. فالجدل والجدال يعني المفاوضة على سبيل المنازعة، وأصله من جَدَلْتُ الحبل أي: أحكمتُ قَتْلَهُ، ومنه الجدليل<sup>(٣٥)</sup>.

وقد ذكر الفيومي<sup>(٣٦)</sup> أن أصل الجدل من جادل مجادلة وجدالاً، إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب، فهذا أصله. وقد استعمل على لسان حَمَلَة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها، وهو محمود إذا كان للوقوف على الحق، ومذموم إذا كان فيما عداه<sup>(٣٧)</sup>.

(32) سورة المجادلة: ١.

(33) الزبيدي، مرجع سابق، ج ١٦، ص ١٩٤.

(34) ابن منظور، مرجع سابق، ج ١١، ص ١٠٥. وانظر كذلك مختار الصحاح، مرجع سابق، ج ١، ص ٤١.

(35) الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٩٧.

(36) أحمد بن محمد بن علي الفيومي، صاحب المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، جمع أصله من نحو سبعين مصنفًا، مطولاً ومختصراً. توفي سنة ٧٧٧هـ. انظر ترجمته في: حاجي خليفة، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٧١٠.

(37) الفيومي، المصباح المنير، المكتبة العلمية، بيروت، بدون، ج ١، ص ١٥٦.

فالجدل باعتباره منهجاً فكرياً، يتمثل في تبادل الأطراف المختلفة الآراء المتعددة ويدافع كل منهم عن رأيه ويحاول إثبات ذلك الرأي وإثبات خطأ رأي مخالفه. وغالباً ما يكون كل طرف ممثلاً لمذهب معين في المسألة التي يدور حولها الخلاف<sup>(38)</sup>.

أما الجدل باعتباره علماً قائماً بذاته فهو يعني بدراسة القوانين والأسس التي ينبغي للمتناظرين في مسائل أصول الفقه أن يلتزموا بها حين المناقشة أو المناظرة. وغايته ردّ الخصم عن رأيه ببيان بطلانه<sup>(39)</sup>.

والحوار والجدل يلتقيان في بعض الأمور ويفترقان في البعض الآخر: فهما يشتركان في مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين، ويختلفان في أن الجدل يتسم بطابع الغلبة والخصومة والشدة، في حين أن الحوار يتسم باللين والهدوء. ومن الطبيعي أن صاحب الخصومة شخص يهدف الانتصار لرأيه مهما كان ذلك الرأي، ومن أهدافه كذلك إسقاط من يجادله وهزيمته والقضاء عليه إن أمكن. من هنا جاء الأمر القرآني بالإحسان في الجدل لما يتخلله من تلك المعاني.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾<sup>(40)</sup>. وفي ذلك تأكيد أن محور الجدل الشدة

(38) مسعود بن موسى فلوسي، الجدل عند الأصوليين، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص ١٥١.

(39) نجم الدين الطوفي، علم الجدل في علم الجدل، تحقيق: فولفهارت هاينرشيس، فرانز شتاينر فيسبادن، ألمانيا، ١٩٨٧م، ص ٤.

(40) سورة النحل: ١٢٥.

والخصومة. قال تعالى : ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾<sup>(٤١)</sup>.

فلفظ الجدل جاء في القرآن في معرض الذم، وعلى هذا كان التقييد له بالأحسن. ومن الألفاظ التي تقارب الحوار مصطلح المناظرة. والمناظرة في اللغة: مأخوذة من النظر وتقلب البصيرة لإدراك الشيء ورؤيته وقد يراد بها المعرفة الخاصة بعد الفحص والروية، يقال: نظرت فلم تنظر، أي: لم تتأمل ولم تترو.

وقال الزبيدي<sup>(٤٢)</sup> المناظرة أن تناظر أحاك في أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف تأنيانه وهو مجاز. والمناظرة المباحثة والمباراة في النظر واستحضار كل ما يراه يبصيرته. فالمناظرة تجري بين نظيرين أو متقاربين فلو جرى حوار بين غير متماثلين، لا يسمى في اللغة مناظرة<sup>(٤٣)</sup>.

في حين أن الجدل والمجادلة يمكن أن يكون بين نظيرين أو غير نظيرين. فالجدل في اللغة أعم من المناظرة على هذا الاعتبار.

أما المناظرة في الاصطلاح فهي النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيعين إظهاراً للصواب<sup>(٤٤)</sup>.

(41) سورة العنكبوت: ٤٦.

(42) أبو الفيض محمد بن محمد الحسيني الزبيدي، لغوي نحوي أصولي، أصله من واسط في العراق، ولد في بلجرام في الهند سنة ١١٤٥هـ، ونشأ في زبيد باليمن، ورحل إلى الحجاز، وأقام في مصر وتوفي بها عام ١٢٠٥هـ. من أهم مصنفاته تاج العروس في شرح القاموس، الغريب في مصطلح آثار الحبيب. انظر ترجمته في: القنوجي، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٧.

(43) الزبيدي، مرجع سابق، ج ٣، ص ٥٧٥.

(44) الجرجاني، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الريان، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٢٩٨.

وذكر البعض أنها: علم آداب البحث وهو علم يبحث فيه عن كيفية إيراد الكلام بين المتناظرين. وموضوعه الأدلة من حيث أنها يثبت بها المدعى على الغير. والغرض منه تحصيل ملكة طرق المناظرة لئلا يقع الخبط في البحث فيصبح الصواب خطأ<sup>(٤٥)</sup>.

وعرفها بعض المعاصرين بأنها: المحاوراة بين فريقين حول موضوع، لكل منهما وجهة نظر فيه تخالف وجهة نظر الفريق الآخر، فهو يحاول إثبات وجهة نظره وإبطال وجهة نظر خصمه مع رغبته الصادقة بظهور الحق والاعتراف به عند ظهوره<sup>(٤٦)</sup>.

وعلى هذا يكون علم المناظرة أعم من علم الجدل فالجدل يختص في المعنى الاصطلاحي بعلم أصول الفقه دون غيره، في حين أن المناظرة لا تختص بعلم دون آخر، فهي تتعلق بقواعد الاستدلال وطرق الحجج والمناظرة بوجه عام.

وثمة نقطة مهمة لا بد من الإشارة إليها في ثنايا الحديث عن مصطلحات: المحاوراة، والمناقشة والمجادلة، ألا وهي صعوبة التفرقة الدقيقة بينها والتطور الدلالي لكل منها، بسبب عدم توافر معجم عربي يهتم بتطور دلالات الكلمات أو المصطلحات. فجميع هذه المصطلحات تقوم على الحوار المتبادل الذي يفترض وجود متحاورين اثنين على الأقل فليس هناك متكلم من طرف واحد ومستمع من طرف واحد فقط. إلا أن المصادر القديمة لا تقدم لنا توضيحاً فيما يخص العلاقة بين تلك المصطلحات، كما لا تقدم تفسيراً واضحاً يمكن أن يميز بين كل مصطلح وغيره أو يؤرخ تطور دلالة المصطلح.

(45) حاجي خليفة، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٨.

(46) عبد الرحمن حسن حنكة الميداني، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، دار القلم، دمشق،

الطبعة الثانية، ١٩٤١/هـ ١٩٨١م، ص ٣٦١.

فأصل مصطلح المناقشة - على سبيل المثال - من نقش الشوكة أي استخراجها من جسمه. والمناقشة في المفهوم الاصطلاحي: الاستقصاء في الحساب بمعنى المحاسبة والتدقيق في الحساب في كل أمر صغير كان أو كبيراً.

ولا يذكر ابن منظور<sup>(٤٧)</sup> في لسان العرب، معنى الكلمة الاصطلاحي، بحسب مفهوم اليوم الدائر حول المجادلة أو الحوار في موضوع معين.

من هنا فقد نبّه بعض المعاصرين إلى الخطأ الذي يقع فيه البعض عند استعمال كلمة المحاورة أو الحوار مرادفة لكلمة المناقشة، رغم التباين الحاصل بينهما، فلكل مصطلح خصوصيته وحدوده<sup>(٤٨)</sup>.

ويؤكد ابن منظور أن الهدف من المجادلة والمباحكة، الدفاع عن وجهة نظر معينة، وإثبات القدرة الذاتية على الجدل وإظهار خطأ رأي الخصم، مهما كانت طبيعة ذلك الرأي.

وعلى هذا تحدد مفهوم الجدل بشكل نهائي في القرن الثاني عشر للهجرة بأن المجادلة هي عند أهل المناظرة لا لإظهار الصواب بل لإلزام الخصم<sup>(٤٩)</sup>.

---

(47) جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الأفريقي المصري المتوفى سنة ٥٧١١هـ. من أشهر مؤلفاته لسان العرب، جمع فيه بين التهذيب والحكم. انظر ترجمته في: حاجي خليفة، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٥٤٩.

(48) عبد الحليم حفي، أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م، ص ١٥.

(49) التهانوني، كشف اصطلاحات الفنون، ١٩٦٦م، ج ١، ص ٢٤٢.

وخلاصة القول أن الفارق بين الحوار وما يقاربه من معانٍ أخرى، يكمن في الموقف الحوارية ذاته، كما يكمن في غاية المتحاورين والأسلوب المتبع في ذلك.

### لفظة الحوار في القرآن الكريم:

لم ترد لفظة الحوار ومشتقاتها في القرآن الكريم إلا في ثلاثة مواضع:

١- ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾<sup>(٥١)</sup>.

٢- ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾<sup>(٥١)</sup>.

٣- ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾<sup>(٥٢)</sup>.

إلا أن ذلك الاقتضاب في استعمال اللفظة في القرآن الكريم، لا ينصرف بحال إلى التقليل من أهمية أو محورية الحوار في القرآن الكريم. فقد كانت قضية الحوار حاضرة كنموذج تطبيقي باستمرار في المواقف القرآنية المتعددة وسيتم توضيح ذلك من خلال عرض أنواع ونماذج الحوار في القرآن.

في حين أن كلمة الجدل ومشتقاتها وردت الإشارة إليها في آيات كثيرة، وصلت إلى ٢٨ آية. بيد أن معظمها جاء في معرض الذم والنهي. ولعل في ذلك تأكيد التناسب

(50) سورة الكهف: ٣٤.

(51) سورة الكهف: ٣٧.

(52) سورة المجادلة: ١.

بين المعنى اللغوي لكلمة الجدل ومفهوم الجدل في القرآن.

ومما يلاحظ على كلمة الجدل في القرآن أنها لم تأت في معرض الأمر بها، أو استحسانها إلا في موضعين، اقترن كلاهما بالأمر بالإحسان في الجدل، مما يؤكد أن الأصل في الجدل هو المعنى السلبي، إلا إذا جاء مقروناً بالإحسان كصفة طارئة عليه وليست أصيلة فيه.

ولعل أبرز تلك النصوص القرآنية تلك الآية التي ربطت الجدل بالطبيعة الإنسانية حيث قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾. ففي الآية تأكيد أن صفة الجدل طبيعية فطرية في الإنسان تستحث العقل الذي أودعه الخالق سبحانه فيه للبحث والتساؤل والنقاش المستمر. مع التحفظ على تلك الطبيعة ومحاولة تهذيبها وتشذيب مثالبها للوصول إلى الحالة الإنسانية المعتدلة المتمثلة في الحوار.

### المعنى الاصطلاحي للفظ الحوار:

يدور معنى الحوار في اللغة حول المراجعة في الكلام، والرجوع عن الشيء، وإلى الشيء. وفي ذلك إشارة إلى التلازم الحاصل بين معنى الحوار وما ينبغي أن يتسم به من إمكانية التراجع عن الخطأ إلى الصواب، من خلال تأكيد مقصد المراجعة والتراجع عن الرأي إذا اقتضى الأمر ذلك، بغية الوصول إلى الحق الواضح. فتكون مرادة الكلام في الحوار هيئة لينة غير قاسية وغير عنيفة.

أما في الاصطلاح فقد عرّفه بعض المعاصرين بأنه: مراجعة الكلام بين متحاورين، وتقليب وجوهه للوصول إلى معنى ثابت يقطع الخلاف، ويرفع النزاع بينهما،

ويحملهما على التسليم بأحد المعاني الخلافية<sup>(٥٣)</sup>.

والتأمل في بداية هذا التعريف يلحظ ملائمته لمعنى الحوار. إلا أن التعريف اشتمل على حصر الغاية من الحوار في إقناع الطرف الآخر بالتسليم لمعنى معين، وهو أمر لا يتناسب والغاية من الحوار كما ستبينه الدراسة لاحقاً.

فالعديد من الحوارات الواردة في القرآن الكريم بين الأنبياء وأقوامهم - على سبيل المثال - لم تنته بتسليم الطرف المتحاور معه. بمعنى يقطع النزاع بل على العكس من ذلك، فغالباً ما ينتهي الحوار بالتزام كل طرف بقناعاته الفكرية.

من هنا فهذا التعريف يحمل نوعاً من الخلط بين معنى الحوار في الاصطلاح والمناظرة، التي غايتها بالفعل، الوصول إلى معنى ثابت يقطع الخلاف ويرفع النزاع بينهما ويحملها على التسليم بها.

ولا يعني ذلك، عدم أهمية وضع أهداف بعيدة للحوار تروم إيصال الطرف المتحاور معه إلى الحقيقة المعضدة بالأدلة والبراهين، بل المقصود ألا يكون ذلك هدفاً تتوقف عنده أية محاولات أخرى للتوصل إلى الحقيقة ومواصلة الحوار.

كما عرّفه الأستاذ الميداني بأنه: جدال كلامي يتفهم فيه كل طرف من الفريقين المتحاورين وجهة نظر الطرف الآخر ويعرض فيه كل طرف منهما أدلته التي رجحت لديه استمساكه بوجهة نظره، ثم يأخذ بتبصر الحقيقة من خلال الأدلة التي تنير له

(53) أحمد إسماعيل أبو شنب، مشكلات الحوار وأثرها على النهوض الثقافي.. دراسة نقدية، حولىة كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية، قطر، العدد الحادي والعشرون، ١٤٢٤ / ٢٠٠٣ م، ص ١٢٧.



بعض النقاط التي كانت غامضة عليه<sup>(٥٤)</sup>.

وعرفه الأستاذ عبد العزيز التويجري بأنه: المراجعة في الكلام، وهو التجاوب بما يقتضى ذلك من رحابة الصدر وسماحة النفس ورجاحة العقل، وبما يتطلبه من ثقة ويقين وثبات، وبما يرمز إليه من القدرة على التكيف، والتجاوب والتفاعل، والتعامل المتحضر الراقى مع الأفكار والآراء جميعاً. وهذا المعنى يؤكد بما لا يرقى إليه الشك أن الحوار أصل من الأصول الثابتة للحضارة العربية الإسلامية، ينبع من رسالة الإسلام وهديه، ومن طبيعة ثقافته وجوهر حضارته<sup>(٥٥)</sup>.

وعلى هذا لا يمكن تصور حوار إلا مع التعدد وإلا كان حواراً مع الذات، وحديثاً مع النفس. فالحوار وسيلة اتصال واستمرار لسريان الفكر والمعنى بين اثنين أو أكثر مما يدفع إلى استمرار الاتصال بينهم<sup>(٥٦)</sup>.

أما الجدل فيكون عندما يكون هناك صراع فكري حول قضية من القضايا أو مسألة من المسائل، ويكون الهدف عند كل واحد من المتجادلين هو هزيمة الآخر فكرياً، والانتصار عليه.

والعمل على تحقيق هذا الهدف قد يدفع كل واحد من المتجادلين، أو على أقل تقدير أحدهما، إلى أن يعتمد على أي سلاح يمكنه من النصر والغلبة، حتى ولو كان

---

(54) الميداني، مرجع سابق، ص ٣٦١.

(55) عبد العزيز بن عثمان التويجري، الحوار والتفاعل الحضاري من منظور إسلامي، المؤتمر الثامن، يوليو

١٩٩٦م.

<http://www.alazhr.org/conf/default.asp>

(56) صموئيل حبيب، فن الحوار، الدار الثقافية، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ١١.

اعتماداً على ما هو باطل، إذ الغاية في هذا الموقف هي تبرير الوسيلة.

من هنا أكد القرآن الكريم أهمية الالتزام بالقواعد والآداب التي لا بد من التمسك بها في الجدل، فقال آمراً نبيه ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾<sup>(٥٧)</sup>. ويقول في موضع آخر: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٥٨)</sup>.

ولم تقف آداب الجدل في القرآن الكريم عند طلب أن يكون الجدل بالتي هي أحسن فقط، وإنما تجاوز ذلك إلى جعل الهدف من الجدل التوصل إلى الحق لا مجرد الجدل.

وخلاصة القول في هذا الأمر أن للحوار معنى خاصاً به يختلف عما يقاربه من ألفاظ ومصطلحات، حتى وإن كان هناك ثمة استعمال لمصطلحات أخرى عبر التاريخ تقترب من الحوار في بعض المعاني، كالمناظرة وغيرها.

بيد أن هذه الخصوصية في المعنى لمصطلح الحوار، لا ينبغي أن تصرف نظر الباحثين والمفكرين عن أهمية الإفادة مما كُتب من مؤلفات عديدة في موضوع الجدل والمناظرة، خاصة فيما يتعلق بآدابهما وشروط المتناظرين ونحو ذلك. فقد تناول العلماء في القدم والحديث هذه المباحث بتفصيل دقيق ينبغي الوقوف عليه من قبل الباحثين المعاصرين والإفادة منه في ثنايا معالجة موضوع الحوار.

(57) سورة النحل: ١٢٥.

(58) سورة العنكبوت: ٤٦.

ومن أبرز مصطلحات الدراسة كذلك مصطلح المخالف. وهو مأخوذ من الخلاف والاختلاف، وأصل اشتقاقهما لغوياً من كلمة خَلَفَ الثلاثية، التي وردت في أصول معان ثلاثة: أحدها: بمعنى مجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه، والثاني: ما يعني خلاف أمام وقدام، والثالث: ما يأتي بمعنى التغيير.

وفي لسان العرب: الخلاف بمعنى المضادة، وقد خالفه مخالفة، وخلافاً إلى الشيء، عصاه إليه أو قصده بعد ما نهاه عنه<sup>(٥٩)</sup>. وفي القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُمُ عَنْهُ﴾<sup>(٦٠)</sup>. وتخالف الأوامر إذا اختلفا ولم يتفقا، ويأتي خلفه في كذا: أي سلك طريقاً آخر غير طريقه، فبينهما تفاوت وتباين وتناف وتغاير، وعلى هذا فإن الخلاف يساوي عدم الموافقة إطلاقاً. والاختلاف: افتعال من الخلاف، وهو تقابل بين رأيين فيما ينبغي انفراد الرأي فيه<sup>(٦١)</sup>.

أما في الاصطلاح، فقال الراغب: الاختلاف والمخالفة أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو قوله، والخلاف أعم من الضد، لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل مختلفين ضدين<sup>(٦٢)</sup>. وعلى هذا فلا يمكن القول بأن مجرد الاختلاف يعني التضاد والتعارض.

(59) لسان العرب، مرجع سابق، ج ٩، ص ٩٠.

(60) سورة هود: ٨٨.

(61) محمد عبد الرؤوف المناوي، التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ١٤١٠هـ، ج ١، ص ٤٢.

(62) أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ١٦٢.

## معنى الاختلاف في القرآن الكريم:

عند البحث عن اللفظة واستعمالاتها في القرآن الكريم، نجد أنها تتردد بين معنيين اثنين، وهما التنوع والاضطراب. فمن باب التنوع قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالاختلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾<sup>(٦٣)</sup>. وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾<sup>(٦٤)</sup>.

أما دلالة الاختلاف على الاضطراب فتتمثل في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾<sup>(٦٥)</sup>. وقريب من هذا المعنى النهي الوارد للأمة عن الاختلاف والتفرقة المؤدية إلى الشقاق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾<sup>(٦٦)</sup>.

إلا أن بعض العلماء ومنهم الإمام ابن تيمية<sup>(٦٧)</sup> رحمه الله ذهب إلى أن الاختلاف في القرآن الكريم لم يُستعمل إلا في معنى التضاد، حيث يقول: "لفظ الاختلاف في القرآن يراد به التضاد والتعارض لا يراد به مجرد عدم التماثل كما هو اصطلاح كثير

(63) سورة الروم: ٢٢.

(64) سورة فاطر: الآية ٢٧.

(65) سورة النساء: ٨٢.

(66) سورة البقرة: ١٧٦.

(67) تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحاراني شيخ الإسلام، إمام مجتهد محدث مفسر أصولي واعظ، ألف تصانيف عدة منها: مجموع الفتاوى - جُمِعَتْ مِنْ بَعْدِهِ - السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، وغير ذلك كثير. توفي سنة ٧٢٨هـ. انظر ترجمته: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد خان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ١٩٧٢م، ج ١، ص ١٦٨.

من النظار ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾<sup>(٦٨)</sup>. وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلَفٍ. يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾<sup>(٦٩)</sup>. وقوله: ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾<sup>(٧٠)(٧١)</sup>.

والترفة الدقيقة بين اللفظتين أمر له خصوصيته وأهميته في هذه الدراسة. فإذا ذهبنا إلى القول بأن معنى الاختلاف هو التضاد والتعارض حصراً، وصلنا إلى القول بأن كل من يخالف في مسألة ما، فهو معارض وضد لمن يخالفه.

في حين أن العلماء القدامى رحمهم الله استعملوا لفظة المخالف لمن يخالف في العقيدة، أو غيرها من الأمور الفقهية، أو الاجتهادية ونحو ذلك، فقالوا: الكافر المخالف للشرع كاليهودي والنصراني<sup>(٧٢)</sup>. كما استعمل الأصوليون والفقهاء وغيرهم لفظة المخالف لمن يختلف معهم من المسلمين في الرأي أو في بعض المسائل الفقهية ونحوها<sup>(٧٣)</sup>.

(68) سورة النساء: ٨٢.

(69) سورة الذاريات: ٨-٩.

(70) سورة البقرة: ٢٥٣.

(71) أحمد عبد الحليم ابن تيمية، كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه، تحقيق: عبد الرحمن محمد قاسم العاصمي، مكتبة ابن تيمية، السعودية، بدون تاريخ، ج ١٣، ص ١٩.

(72) أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي، تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، الطبعة الثانية، دار الشعب، القاهرة، ١٣٧٢هـ، ج ١، ص ٣٥٦. وانظر كذلك محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ، ج ١٢، ص ٥٣.

(73) أحمد بن علي الرازي الحصاص، أحكام القرآن، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، ج ١، ص ٢٠٠. علي بن سليمان المرادوي، الإنصاف، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٢، ص ١٧٩. منصور بن يونس البهوتي، الروض المربع، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، ١٣٩٠هـ، ج ١، ص ٢٤٩. ابن تيمية، المرجع السابق، ج ٢٧، ص ٣٣٨.

وعلى هذا فالدراسة تؤكد أهمية استعمال لفظة "المخالف" دون استعمال مصطلحات جديدة كمصطلح الآخر الذي ازداد استعماله من قبل عدد من المفكرين المعاصرين في الوقت الحاضر.

حيث أن استعمالنا للفظة الآخر أو الغير يمكن أن يوحي بوجود نمطية فكرية مسبقة تجاه المخالف في العقيدة، أو المبادئ أو نحو ذلك. في حين أن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية فرّقت بين المخالفين ولم تعاملهم على أساس واحد يكرس مبدأ النمطية تجاه الآخر وإنما بحسب مواقفهم، على ما سيأتي توضيحه.

وعلى هذا فالدقة الاصطلاحية تقتضي استعمال لفظة "المخالف" دون الآخر أو الغير، فلا آخر في قاموس الفكر الإسلامي، ولا علاقة نمطية موحدة تجاه المخالف لمجرد مخالفته للإسلام.

فالنصوص القرآنية الكريمة، يلحظ أنها حددت استعمال المصطلحات؛ فلم تُدخل جميع المخالفين لعقيدة الإسلام في علاقة نمطية واحدة، بل فرّقت بين الحالات: فهناك أهل كتاب من نصارى ويهود، وهناك نصوص تحدثت عن كل فئة منهم على حدة، كما أن هناك نصوصاً أخرى تحدثت عن الكفار فقط والمشرّكين فقط.

ولم تجعل العلاقة بين المسلمين ومخالفهم حتى من الكفار والمشرّكين في سياق واحد، بل تختلف تلك العلاقة وفق معايير متعددة، على ما سيتم ذكره في مواضعه من الدراسة.

ومما يؤكد هذه الحقيقة أن ثمة آيات ونصوصاً عديدة في القرآن الكريم تحدثت عن "فئة"، و"طائفة" و"فريق" و"كثير" وهي مصطلحات تدل بوضوح على عدم وجود نمطية إزاء المخالف، منها:

فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنّة النبويّة

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ  
وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾<sup>(٧٤)</sup> وقوله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا  
أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾<sup>(٧٥)</sup>. وقوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ  
إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾<sup>(٧٦)</sup>. وقوله  
تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ  
يَسْجُدُونَ﴾<sup>(٧٧)</sup>. وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ  
إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ  
سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾<sup>(٧٨)</sup>. وقوله: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾<sup>(٧٩)</sup>.

وفي الصفات السلبية المذكورة في القرآن عن المخالفين من اليهود والنصارى،

جاءت النصوص في غاية التخصيص والدقة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا  
يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ  
عِنْدَ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٨٠)</sup>. وقوله:  
﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾<sup>(٨١)</sup>.

(74) سورة المائدة: ٦٥.

(75) سورة البقرة: ٧٨.

(76) سورة آل عمران: ٧٥.

(77) سورة آل عمران: ١١٣.

(78) سورة آل عمران: ١٩٩.

(79) سورة الأعراف: ١٥٩.

(80) سورة آل عمران: ٧٨.

(81) سورة آل عمران: ٦٩.

كل هذه النصوص جاءت تأكيداً لنفي النمطية عن العلاقة بالمخالف في المعتقد.  
فالمخالف ليس جنساً واحداً، وإن كثر فيه السوء أحياناً في زمن ما أو بيئة معينة.

والقرآن الكريم بهذا النهج يعلم المسلمين خطورة الوقوع في النظرة النمطية، التي  
تقوم على أساس التعميم، والإطلاق، والنظر إلى الأمم والشعوب على أنها شريحة  
واحدة، دون تمييز أو تفرقة بين الأفراد والأشخاص، وهو أمر في غاية الإنصاف  
والعدل الذي باتت تفتقده أكثر الأنظمة العالمية ادعاءً للمساواة والعدالة.

وقد أثبتت الدراسات الاجتماعية الحديثة خطورة التمييز، ودوره في توجيه الإدراك والعمليات المعرفية المنبثقة عنه، فإن تأثيره في توجيه تفاعل الفرد مع الآخرين، وسلوكه تجاههم أكثر وضوحاً وأشد خطراً. فكثير ما يعتمد الفرد على صورة النمطية كأطر معرفية توجه سلوكه وتفاعله مع الآخرين؛ فيسلك تجاههم على نحو يتسق مع هذه الصور وينسجم مع محتواها<sup>(82)</sup> دون تفرقة أو تمييز بينهم.

كما أن أصل التصنيف والتمييز في المجتمع المسلم إلى مسلمين وغير مسلمين، يعود لما يترتب عليه من أدوار ووظائف وحقوق وواجبات لكل فئة في الدولة الإسلامية.

من هنا لم تكن نظرة الإسلام مع المختلفين في الدين واحدة، فمنهم الكافر. ولفظة الكفر لم تأت في القرآن تعبيراً عن محض مخالفة، بل جاءت تعبيراً عن دلالات أخلاقية وقيمية وموقف اجتماعي أخلاقي قبل كل شيء.

والكفر في اللغة: ستر الشيء ووصف الليل بالكافر لستره الأشياء بالظلام،

(82) John M. Darely and Russell H. Fazio, Expectancy Confirmation Processes Arising in the Social Interaction Sequence, American Psychologist, vol. 35, no. 10( October 1980), pp. 867-881.



والزرّاع لستره البذر في الأرض، وليس ذلك باسم لهما، وكذا البحر والوادي العظيم والنهر الكبير والسحاب المظلم والزرع. والكفر ضد الإيمان؛ لأن المتصف به يستر الحق، والكفر ضد الشكر؛ لأن كافر النعمة يسترها بترك أداء شكرها<sup>(٨٣)</sup>.

فلفظة الكافر في القرآن الكريم لا تنصرف إلى مجرد الذات المغايرة في الرأي، أو المخالفة في المعتقد، مهما كانت هذه المغايرة أو المخالفة عميقة. فليس ثمة ترادف أبداً ما بين مفهوم الكافر، كما هو في المنظومة القيمية والعقدية، وبين مدلول غير المسلم، وذلك لأن كل كافر لا بد وأن يكون غير مسلم، ولكن العكس غير صحيح.

فالكفر في الاستعمال القرآني هو الجحود في الوجدانية أو الشريعة أو النبوة، والكافر هو من امتنع عن الإقرار بهذا الدين جحوداً واستكباراً وإعراضاً، أو إهمالاً، مع وضوح الدلائل والبراهين أمامه. وليس من امتنع عن هذا الإقرار بدافع الجهل والالتباس ونحوه. ويؤكد هذا المعنى، دلالات السياق القرآني التي جاءت تؤكد أن من يصح وصفه بالكفر، هو من قام بكتمان الحق وستره وتغطيته.

أما المشرك، فالشرك في اللغة: مأخوذ من أشرك، فيقال أشركه في أمره: أدخله فيه، وأشرك بالله جعل له شريكا في ملكه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، والاسم الشرك<sup>(٨٤)</sup>.

أما الصنف الآخر من غير المسلمين فهم أهل الكتاب، وهم أصحاب الديانات الذين نزلت إليهم كتب سماوية. فالكتابيّ هو كل من يعتقد ديناً سماوياً، أي منزلاً،

(83) ابن منظور، مرجع سابق، ج ٢، ٣٠٦. القيومي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٣٤. الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٤٣٥.

(84) ابن منظور، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٠٦. القيومي، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٢٣. الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٢٥٩.

كاليهود والنصارى. وقد اتفق العلماء على إطلاق "أهل الكتاب" على اليهود والنصارى؛ لأن الله تعالى ذكرهم في القرآن الكريم بهذه التسمية<sup>(٨٥)</sup>.

أما أهل الكتب الأخرى مثل صحف إبراهيم والزرور المنزّل على داود عليه السلام، فقد اختلف الفقهاء في اعتبارهم من أهل الكتاب. فقال الحنفية والشافعية هم من أهل الكتاب وتشملهم أحكام أهل الكتاب؛ لأنهم أصحاب كتب منزلة من السماء على الأنبياء ونصّ عليها القرآن الكريم. ويرى الحنابلة أن أهل الكتاب ينحصرون في اليهود والنصارى باعتبار أن تلك الصحف لم تكن شرائع بل مواظ فقط، فليس لها حرمة الأحكام. وهو قول عند الشافعية كذلك<sup>(٨٦)</sup>.

والواقع أن المسلمين لم يتعاملوا مع طائفة من هذا الصنف، وعلى هذا يبقى الاصطلاح الشرعي محصوراً في أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، دون غيرهم. كما بقي الخلاف بين الفقهاء في تحديد مفهوم أهل الكتاب خلافاً نظرياً فقط.

وذهب العلماء إلى أن هذه الأصناف الأخرى يقاسون على أحكام أهل الكتاب الشرعية، إلا فيما يتعلق بذبائحهم والزواج من نسائهم. روي أن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ذَكَرَ الْمَجُوسَ فَقَالَ: مَا أَدْرِي كَيْفَ أَصْنَعُ فِي أَمْرِهِمْ. فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ:

---

(85) أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، ج ٦، ص ٢٥٩.

(86) محمد الخطيب الشربيني، معني المحتاج، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، ج ٤، ٢٤٤. ابن قدامة المقدسي، المعني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ، ج ٩، ٣٣٣. منصور بن يونس البهوتي، كشف القناع عن متن الإقناع، تحقيق: هلال مصيلحي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ، ج ٣، ١٠٩.

أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ سَنُوا بِهِمْ سَنَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ سَنُوا بِهِمْ سَنَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ<sup>(٨٧)</sup>.

ويستخدم الفقهاء في كثير من الأحيان اصطلاح أهل الذمة، وهم المعاهدون من أهل الكتاب، ومن جرى مجراهم، الذين أعطوا عهداً يأمنون فيه على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم ودينهم. وسموا ذميين لأنهم أقاموا مع المسلمين على أساس العهد، ولهم ذمة أي: عهد وأمان. فهم يتمتعون بالحماية الكافية لأنفسهم وأموالهم، ويلتزمون بأحكام الإسلام المتعلقة بالأمن والنظام في ديار المسلمين، كالمعاملات ونحوها، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين إلا فيما يتعلق بدينهم وعقيدتهم فإنهم يُقرون عليها<sup>(٨٨)</sup>.

وثمة صنف آخر منهم، وهم المستأمنون، وهم الحربيون الذين دخلوا ديار المسلمين بعقد أمان مؤقت، بغرض الزيارة أو التجارة أو المرور، فلهم ما للذميين من حماية وصيانة لأنفسهم وأموالهم<sup>(٨٩)</sup>.

وعقد الذمة هو العقد الذي يتم بين السلطة الإسلامية وغير المسلمين، يكتسب بموجبه هؤلاء حق الأمان الدائم في الدولة الإسلامية ويتولى المسلمون حمايتهم والدفاع

---

(87) مالك بن أنس الأصبحي، موطأ مالك، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، مصر، بدون تاريخ، باب حزية أهل الكتاب والمجوس، ج ١، ص ٢٧٨، حديث: ٥٤٤.

(88) بتصرف عن علاء الدين الكاساني، بدائع الصنائع، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م، ج ٩، ٤٣٣. الشربيني، مغني المحتاج، ج ٤، ٢٤٣. ابن قدامة، مرجع سابق، ج ٩، ٣٣٧.

(89) للمزيد حول تعاريف الفقهاء لهذه المصطلحات راجع: محمد بن الحسن، السير الكبير، مطبعة مصر، ١٩٥٧م، ج ١، ص ٢٨٤. البعلي، المطلع على أبواب المقنع، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٢٢٦. الشوكاني، السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م، ج ٤، ص ٥٧٦.

عنهم، مقابل ضريبة شخصية يدفعونها تسمى الجزية<sup>(٩٠)</sup>.

ويُعد عقد الذمة هذا من أرقى وسائل الدعوة إلى الإسلام في بلاد المسلمين من خلال استقطاب غير المسلمين، وتعريفهم بمبادئ الإسلام وتعاليمه، من خلال المعاملة اليومية والاحتكاك المباشر في المجتمع، ولا يراد به تحصيل المال.

وقد تفتن إلى تلك الحكمة الراقية، وذلك المقصد التشريعي العظيم بعض الفقهاء. يقول الكاساني<sup>(٩١)</sup> في ذلك: "إن أهل الذمة إنما تركوا بالذمة وقبول الجزية، لا لرغبة فيما يؤخذ منهم أو طمع في ذلك، بل للدعوة إلى الإسلام، ليخالطوا المسلمين فيتأملوا في محاسن الإسلام وشرائعه، وينظروا فيها، فيجدوها مؤسسة على ما تحتمله العقول، وتقبله، فيدعوهم ذلك إلى الإسلام فيرغبون فيه، فكان عقد الذمة لرجاء الإسلام"<sup>(٩٢)</sup>.

وعلى هذا اختلفت أساليب الحوار مع تلك الفئات المخالفة، كما تباينت طرائق الخطاب ومحتوياته ووسائله، وهو أمر ينبغي أن تتوجه الأنظار إليه في طرح الحوار اليوم.

فلا يُعمم أسلوب معين - كما ستقف على ذلك هذه الدراسة - على مختلف المخاطبين دون تمييز أو تفرقة في أهمية السياق الذي ورد فيه الحوار القرآني، أو الوارد في السنة النبوية وحال المخاطبين به.

---

(90) محمد ضياء الحق، أحكام المعاهدات الدولية في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، السنة الثانية عشرة، العدد السادس والأربعون، يوليو/تموز ٢٠٠٤م، ص ٤٥.

(91) أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني ملك العلماء علاء الدين الحنفي مصنف البدائع. في سنة سبع وثمانين وخمسة مائة وتولى التدريس بالحلاوية. انظر ترجمته في: أبو عبد القادر بن أبي الوقاء، طبقات الحنفية، مير محمد كتب خانة، كراتشي، بدون تاريخ، ج ١، ص ٢٤٦.

(92) الكاساني، مرجع سابق، ج ٩، ٤٣٣٠.

# الباب الأول

## الأسس التي يقوم عليها الحوار مع المخالف

- مدخل.

- الفصل الأول: أساس الاعتراف بظاهرة التنوع وفقه الاختلاف بين البشر:

أولاً: الاعتراف بظاهرة التنوع والاختلاف.

ثانياً: شواهد الإقرار بالاختلاف والاعتراف بالمخالف في نصوص الوحي.

ثالثاً: ضرورة فقه طبيعة الاختلاف بين المسلمين.

رابعاً: ضرورة فقه الأحاديث المتعلقة بالخلاف.

- الفصل الثاني: أساس التعايش السلمي:

أولاً: تأكيد روح التعايش السلمي بين البشر.

ثانياً: تحقيق الاجتماع والألفة والاعتصام بحبل الله بين المسلمين.

- الفصل الثالث: أساس اتباع الحق والعدل:

أولاً: الإنصاف مع المخالف مطلقاً.

ثانياً: حرمة عرض المسلم.

ثالثاً: مقتضيات العدل مع المخالف.

کتابخانه مخصوص  
فقہ و اصول

## مدخل:

ثمة أسس ينبغي الوقوف عليها واستحضارها عند الحديث عن الحوار مع المخالف مطلقاً. وبعض هذه الأسس لا تختلف عند الحديث عن المخالف في المعتقد أو المخالف المسلم، والبعض الآخر ينبغي مراعاته عند الحديث عن المخالف المسلم بوجه خاص، على ما سيأتي بيانه في هذا الفصل.

فالحوار الذي يشكل قيمة كبرى من القيم التي جاء بها الإسلام، تناولته نصوص القرآن والسنة كلونٍ من ألوان الخطاب العام التكليفي، الذي يتجه إلى وشيخة الإخاء الإنساني. فالبشرية في عمومها أسرة واحدة، ترجع في أصل خلقتها ونشأتها إلى نفس واحدة، هي نفس آدم عليه السلام أبو البشر. وقد قرر القرآن الكريم هذا المبدأ في مفتتح سورة النساء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

من هنا جاءت نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، التي تمثل المرجعية المطلقة، لتحديد إحدائيات الحوار وشروطه وما يتعلق به مكرسة تلك الحقيقة، داعية الإنسانية إلى إحياء الشعور بالتعاطف الأخوي الإنساني، مؤكدة وشائج الترابط التَّسْبِي بين أفراد الإنسانية في شتى الأزمنة والعصور بما يدعم ذلك الترابط والتعاون المسوق إلى تبادل المنافع والخير وتحقيق المحبة والوئام للبشرية أجمع.

وعليه فجميع الأسس التي قامت قيم الحوار عليها مع المخالفين، لم تفرق بين مسلم وغيره في الجذور، والدراسة سارت على عدم التفرقة والتمييز إلا فيما يتعلق ببعض الخصوصية الناجمة عن الأخوة الإسلامية ومتعلقاتها وما يترتب عليها، فأفردتها في مواضعها.

## الفصل الأول

أساس الاعتراف بظاهرة التنوع وفقه الاختلاف بين البشر

أولاً: الاعتراف بظاهرة التنوع والاختلاف:

قرر الإسلام الاختلاف كحقيقة إنسانية طبيعية، وتعامل معها على هذا الأساس. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(٩٣)</sup>. فالإنسانية واحدة وقد خلقت من نفس واحدة. وهذه الوحدة ليست وحدة في الأصل فحسب، بل في الهدف كذلك، وهو التعارف.

وتقوم هذه الوحدة على الاختلاف والتنوع، وليس على التماثل والتطابق. وإظهار الوحدة في التنوع ودعوة الناس إلى التعارف هو غاية هذا الاختلاف. ذلك أن الاختلاف آية من آيات عظمة الله، ومظهر من مظاهر روعة إبداعه في الخلق. يقول القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾<sup>(٩٤)</sup>. واختلاف الألسن واللغات المشار إليه في الآية لا يعني اختلاف اللهجات، كوسائل للتخاطب والتفاهم والحوار فحسب، بل ينصرف إلى ما تتضمنه تلك اللغات والاختلاف في اللهجات من معانٍ وأفكارٍ وتصورات.

فقد خلق الله الناس مختلفين إثنيًا واجتماعيًا وثقافيًا ولغويًا، ولكنهم في الأساس

(93) سورة الحجرات: ١٣.

(94) سورة الروم: ٢٢.



"أمة واحدة" كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾<sup>(٩٥)</sup>. أي أن اختلافهم على تعددها لا تلغي الوحدة الإنسانية فيما بينهم. من هنا كان الاختلاف الفكري بين بني الإنسان قديماً قدم الإنسان في هذه الأرض، ابتداءً معه حيث ابتداءً، ينظر إلى الكون فيشده بعظمته، وتأخذه الحيرة في إدراك كنهه وحقيقته<sup>(٩٦)</sup>.

جاء في أبعاد العلوم: "كما أن الموت أمر طبيعي لحياة البشر باعتبار الطبيعة الخاصة والعامّة معاً، فالخاصة تقتضيه لقيامها بالحرارة والرطوبة، والعامّة لإيفاء العناية الأريّة مقتضى الطبائع الكلية من العناصر والأفلاك والبسائط تقتضي انحلال المركبات، والأوضاع السماوية تنتهي إلى القواطع، فكذلك الاختلاف طبيعي لعقول البشر باعتبار الطبيعة الخاصة والعامّة معاً، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾<sup>(٩٧)</sup>. أما الخاصة فلوجود القوة الحاكمة منهم، ومخالفة ما أحاط مدركه أحدهم لمدرّكة الآخر... وأما العامّة فلأنّ صانع العالم جلّ مجده لما أراد انتظام النشأتين وتعمير الدارين، بإبداء آثار الجمال والجلال فيهما، وناط بحسب تلك العناية، المساعي والدرجات بالاعتقادات وجب اختلافها، فما التطبيق إلا بحسب العلم والفهم، لا بإزالة الخصومات من بين الناس"<sup>(٩٨)</sup>.

(95) سورة يونس: ١٩.

(96) محمد أبو زهرة، تاريخ الجدل، دار الفكر العربي، بدون تاريخ، ص ٧.

(97) سورة هود: ١١٨ - ١١٩.

(98) القنوجي، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٠٤.

بل إن البطليوسي<sup>(٩٩)</sup> رحمه الله عدّ الاختلاف دليلاً وعلامة على وقوع البعث والجزاء، فالدنيا لا يمكن أن تخلو من الاختلاف، وهذا دليل على ضرورة البعث، الذي يفصل فيه الله عز وجل بين المختلفين. يقول البطليوسي في ذلك: "إذا كان الاختلاف مركزاً في فطرتنا، مطبوعاً في خلقنا، وكان لا يمكن ارتفاعه وزواله إلا بارتفاع هذه الخلقة ونقلنا إلى هذه الجبلية، صحَّ ضرورة أن لنا حياة غير هذه الحياة، فيها يرتفع الخلاف والعناد، وتزول من صدورنا الضغائن الكامنة والأحقاد، وهذه هي الحال التي وعدنا الله تعالى بالمصير إليها فقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾<sup>(١٠٠)</sup> (١٠١).

فالإنسان بطبيعته السوية، ذو استعداد وقابلية للتنوع والتغير المتواصل، الأمر الذي نجم عنه أشكال الحياة، وتباين صور فهمها، وطبيعة نظرتها إلى الكون والوجود، فالتنوع والتعدد والاختلاف حياة الإنسانية، وهو سرُّ ارتفاعها واستمراريتها.

ومع حتمية التنوع تكويناً وفطرةً، لا بد من التأكيد أن هذا التنوع لا يعني بالضرورة التنافر المطلق أو التضاد المؤدي إلى نفي الطرف الآخر وإلغاء وجوده. وإنما يعني ضرورة الاعتراف والإيمان بالتعدد والتنوع لتحقيق التفاعل بين أشكال متنوعة من

(99) أبو محمد عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي النحوي اللغوي صاحب التصانيف. له: التنبية على الأسباب الموجبة للخلاف بين المسلمين، والخلاف الواقع بين الملة الحنفية. مات في رجب سنة إحدى وعشرين وخمسة مئة. انظر ترجمته في: الذهبي، مرجع سابق، ج ١٩، ص ٥٣٢.

(100) سورة الحجر: ٤٧.

(101) عبد الله بن محمد البطليوسي، الإنصاف، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، ج ١، ص ٢٧.

الصور والأفكار. فالتباين والاختلاف والتنوع ليست عوامل هدم، بل هي في الحقيقة عوامل تحفيز فكري، واستنفار ذهنيّ تقوم على ركائزه حركة الحياة الإنسانية المتفاعلة. ومن الطبيعي أن ينتج عن هذا التفاعل أن تتلاقى الأفكار، أو تتنازع، وقد تتصارع كذلك، ومن هنا ينشأ الحوار والنقاش والجدال لعرض تلك الأفكار وطرحها. ولا يمكن أن يخلو بشر من الحاجة إلى تلك الأولويات الذهنية في طرح أفكاره والتصريح بتصوراته، بقطع النظر عن طبيعة تلك الأفكار، أو كيفية عرضه لها<sup>(١٠٢)</sup>.

فإثارة الأفكار وتبادلها ومناقشتها موافقة أو مخالفة، أمر مرتكز في الفطرة الإنسانية. من هنا كان البيان والإفصاح عن ذلك كله من أخصّ المواصفات الإنسانية، التي تميز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات. وعلى هذا تظهر تلك النزعة الفطرية في مراحل مبكرة عند الإنسان تصل أحياناً إلى مرحلة الطفولة والصبا.

يقول الإمام نجم الدين الطوفي<sup>(١٠٣)</sup> في ذلك: "نرى العامة بل الصبيان تقع بينهم المناظرات على القانون الصناعي من إيراد الاستفسار.." <sup>(١٠٤)</sup>.

### فالحوار يتطلب أولاً وقبل كل شيء الاعتراف بجمتية وجود الاختلاف بمعنى

(102) زاهر عوض الألمي، مناهج الجدل في القرآن الكريم، بدون تاريخ، ص ٢٧.

(103) نجم الدين سليمان بن عبد القوي الطوفي الحنبلي. ولد بطوفي في العراق. صنف في علم معرفة جدل القرآن. له العديد من المصنفات منها الإكسير في قواعد التفسير، شرح مختصر الروضة، في الأصول، توفي سنة ٧١٠هـ. انظر ترجمته في: العسقلاني، الدرر الكامنة، مرجع سابق، ج ٢، ٢٩٥.

(104) نجم الدين الطوفي، علم الجدل في علم الجدل، تحقيق: "فولفهارت هاينريشس" و"فرانزشتاينر" ألمانيا ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ٢٠٩-٢١٠.

## التنوع في الحياة الإنسانية المطلقة. الأمر الذي يترتب عليه مبدأ الاعتراف بوجود الآخر وأحقيقته في الوجود كما أن للفرد أحقيقته في الوجود.

واحترام حقه ليس في تبني رأي أو موقف أو اجتهاد مختلف فحسب، بل احترام حقه في الدفاع عن هذا الرأي أو الموقف، ثم واجبه في تحمل مسؤولية ما هو مقتنع به. وهذا كله يعني احترام الآخر والانفتاح عليه والتكامل معه، وليس تجاهله أو إلغاءه وتذويبه.

وقد أكد هذه الحقيقة علماء النفس والاجتماع في دراساتهم حول الشخصية الإنسانية، أن الإنسان كائن اجتماعي من الضروري أن يرتبط بالآخرين برباط من التقبل حيث لا يستطيع أن يحيا بمعزل عن الآخرين، فهو نتاج التفاعلات الاجتماعية، وعليه الانشغال بمثل تلك الأنشطة الإيجابية ليحيا حياة اجتماعية سوية<sup>(١٠٥)</sup>.

### **ثانياً: شواهد الإقرار بالاختلاف والاعتراف بالمخالف في نصوص الوحي:**

لم يضق الإسلام بالتنوع والاختلاف، بل اعتبره وأقر وجوده، كحقيقة واقعة بين البشر. وجاء ذلك الأساس في آيات ونصوص قرآنية عدة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾<sup>(١٠٦)</sup>.

جاء في تفسيرها: أي لجعلهم مسلمين كلهم. وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ فالاختلاف الذي وصف الله الناس أنهم لا يزالون به هو الاختلاف في الأديان، كما

(105) منيرة أحمد حلمي، ثلاث نظريات في تغير الاتجاهات، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ١٢ وما بعدها.

(106) سورة هود: ١١٨.

قال البعض بمعنى ولا يزال الناس مختلفين على أديان شتى من بين يهودي ونصراني  
ومجوسي ونحو ذلك<sup>(١٠٧)</sup>. وجاء موقف القرآن والسنة من المخالفين في العقيدة منطلقاً  
من مبدأ الاعتراف بهم، لا كـ "آخر" بالمعنى الأوربي للكلمة، بل كأهل دين متساوين  
أمام الله. فالاعتراف أولاً هو القاعدة الأساسية التي يركز عليها الحوار، إذ لا  
حوار دون الاعتراف بوجود تنوع وتعدد آراء في مجتمع واحد وعالم واحد.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ  
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ  
يَحْزَنُونَ﴾<sup>(١٠٨)</sup>.

من هنا جاءت أولى الوثائق الدستورية التي وضعها النبي عليه الصلاة والسلام في  
المدينة معبرة عن معالم تعامل الدين الإسلامي مع المخالف في المعتقد، وهي صحيفة  
المدينة التي حددت أسس العلاقة بين المسلمين واليهود في المدينة حيث جاء فيها:

"ويهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم ..  
وأن بطانة يهود كأنفسهم إلا من ظلم وأثم. فإنه لا يوتغ (أي يهلك) إلا نفسه وأهل  
بيته...ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة  
غير مظلومين ولا متناصر عليهم...ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ..على اليهود  
نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم .. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه

(107) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ، ج ١٢، ص ١٤١.

وانظر كذلك أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ، ج ٢، ص ٤٦٦.

(108) سورة البقرة: ٦٢.

الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم..<sup>(١٠٩)</sup>.

وقد التزم البعض من اليهود بادئ الأمر بالدفاع عن المدينة، وذكر بعضهم بعضاً بما تضمنته الصحيفة فجاء على لسان مخيريق أحد أحبارهم: "يا معشر يهود والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا إن اليوم يوم سبت قال: لا سبت لكم فأخذ سيفه وعدته وقال: إن أصبت فمالي لمحمد، يصنع فيه ما يشاء"<sup>(١١٠)</sup>.

وقد نظر الإسلام إلى الوفاء بالعهد على اعتبار أنه فضيلة إنسانية لا تختص بجنس أو عقيدة أو جماعة فالعهد مع الكافر كحرمته مع المسلم وهو مع الأعداء كقداسته مع المواليين، فلا يحل عقدة الوفاء بالعهد إلا بسبب موجب من نحو خيانة أو غدر أو ممالاة عدو للإسلام والمسلمين. قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾<sup>(١١١)</sup>. وقد امتثل المسلمون لهذا الأمر الإلهي فاعتبروا كل عقد وعهد جرى بين إنسانين فإنه يجب عليهما الوفاء به بمقتضى ذلك العهد والعقد.

(109) محمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي، والخلافة الراشدة، بيروت، ١٩٩٠م، ص ١٥-٢١.

(110) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجليل، بيروت، ١٤١١هـ، ج ٣، ص ٨٩. ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، بدون، ج ٤، ص ٣٦. وقد ذكر الألباني رحمه الله أن هذه المعاهدة ذكرها ابن هشام عن ابن إسحاق بدون إسناد وقد نقلها عنه ابن كثير ولم يزد عليه في تخريجه شيئاً على خلاف عادته مما يدل على: أنها ليست مشهورة عند أهل العلم والمعرفة بالسيرة والأسانيد فلا يحتج بها لأنها بدون إسناد وهي معضلة. انظر: الألباني، دفاع عن الحديث النبوي والسيرة، في الرد على جهالات البوطي وكتابه فقه السيرة، مكتبة الخافقين، دمشق، ص ٢٥-٢٦. إلا أن هذه المعاهدة وكتابة الصحيفة قد ثبتت بأحاديث صحيحة منها ما أورده أبو داود في سننه. وانظر في تأكيد ذلك: حميد الله، مرجع سابق.

(111) سورة الإسراء، الآية ٣٤.

ومعاهدات النبي ﷺ وموآثيقه مع المخالفين من اليهود والمشركين كما جاء في صلح الحديبية وغيره كما سيأتي ذكره، دليل قاطع على إقراره الاعتراف بهم. وأن الأصل في طبيعة العلاقة معهم أن تقوم على الإنسانية والتعارف.

فالإسلام خطاب مفتوح للعالم بأسره ينبذ العدوان، ويهدف إلى إيجاد حالة من التعاون على البر والخير. بما يعود على المسلمين والبشرية بالخير والنفعة. وكانت تلك المعاهدات تنص على التعاون بين الطرفين وحسن الجوار معهم وتحقيق المصالح للمتعاقدين؛ لحماية المجتمعات وتحقيق الأمن والاستقرار وإشاعة السلام والعيش الكريم للإنسان مطلقاً.

كما نجد في السيرة النبوية أمثلة حية وأقوالاً تؤكد تبني منهج الحوار كطريق أمثل لعرض العقيدة الإسلامية الجديدة منذ بواكير الدعوة إلى الإسلام في مكة.

من هنا كانت محاورات النبي عليه الصلاة والسلام للمشركين على اختلاف مواقفهم وتوجهاتهم إزاء الدعوة الإسلامية. ولم يتوقف الحوار بين الطرفين في أصعب الفترات وأكثر الفترات تأزماً وتعقيداً. ولم يتخل النبي عليه الصلاة والسلام عن سلوك سبيل الحوار في أكثر المواقف قوة وانتصاراً.

ومن ذلك مواقفه في فتح مكة التي عكست تبني الإسلام العميق لمبدأ الحوار مطلقاً والاعتراف بوجود الآخر المختلف.

فقد روت كتب السيرة في فتح مكة أن بعض كفار قريش كانوا يستهزئون ويحكون صوت بلال غيظاً، وكان من جملتهم أبو محذورة<sup>(112)</sup> وكان من أحسنهم

(112) أبو محذورة الجمحي مؤذن المسجد الحرام وصاحب النبي ﷺ أوس بن معير بن لؤذان ابن ربيعة بن

صوتاً. فلما رفع صوته بالأذان مستهزئاً سمعه رسول الله ﷺ فأمر به فمثل بين يديه، وهو يظن أنه مقتول، فمسح رسول الله ﷺ ناصيته وصدرة بيده الشريفة، قال أبو محذورة: فامتلاً قلبي، والله، إيماناً و يقيناً فعلمت أنه رسول الله. فألقى عليه ﷺ الأذان وعلمه إياه وأمره أن يؤذن لأهل مكة، وكان ست عشرة سنة، وعقبه بعده يتوراتون الأذان بمكة<sup>(١١٣)</sup>.

وهكذا كان نهج احتواء المخالف والذين معه سلوكاً نبوياً لم يزل ملازماً للنبي عليه الصلاة والسلام في أصعب المواقف وأكثرها إثارة للغضب من قبل مخالفه.

أما ما يظنه البعض تغيراً في المواقف من المخالف، وإعلان البراءة منه، والحض على عدم موالاته، فهو أمر لا ينبغي نزعته من سياق الأحداث والظروف التاريخية التي جاءت مقارنة له، وتغير موقف المخالف ذاته من المسلمين، وإعلانه العداء أو الغدر، ونقض العهود والمواثيق.

فالنبي عليه الصلاة والسلام حين قدم المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام: قسم صالحهم ووادعهم على ألا يجاربه ولا يظاهروا عليه، ولا يوالوا عليه عدوه، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم. وقسم حاربوه و نصبوا له العداوة، وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يجاربه بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه، ثم من

سعد بن جمح وقيل اسمه سمير بن عمير بن لوزان بن وهب ابن سعد بن جمح وأمه خزاعية. كان من أندى الناس صوتاً وأطيبه. انظر ترجمته في: الذهبي، مرجع سابق، ج ٣، ١١٧.

(113) علي بن برهان الخليلي، السيرة الخليلية في سيرة الأمين والمأمون، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ، ج ٣، ص ٥٦.



هؤلاء من كان يجب ظهوره وانتصاره في الباطن، ومنهم من كان يجب ظهور عدوه عليه وانتصارهم، ومنهم من دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه في الباطن ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون، فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه تبارك وتعالى، وفق منهج لا يجيد عن الحق والإنصاف في التعامل، كما سيأتي توضيحه في موضعه.

ولم تتغير المواقف مع المخالف عقيدة إلا ما كان من تغير موقف المخالف نفسه من الدولة الإسلامية لا باعتباره مجرد مخالف. ومن ذلك موقف الروم، التي رأت آنذاك أن الإسلام لم يعد مجرد حركة داخل الجزيرة العربية، بل صار دولة تشكل خطرا يهدد مصالح الروم في المنطقة، خاصة بعد فتح مكة. فبادرت إلى الاصطدام العسكري معه في غزوة مؤتة (٥٨هـ) فقتل الروم رسول رسول الله ﷺ، الذي أرسله النبي عليه الصلاة والسلام بكتابه إلى ملك الروم. فاشتد ذلك على النبي عليه الصلاة والسلام فبعث البعوث وكانت غزوة مؤتة<sup>(١٤)</sup>.

فهنا نرى تغيرا في طبيعة المخالف وموقفه، أدى إلى تغير طبيعي في التعامل معه؛ فتغير الموقف إزاء المشركين من قريش الذين نقضوا معاهداتهم معه، فالموقف من المخالف هنا ليس مجرد مخالفته وغيريته عن المسلمين، وإنما لموقفه العدائي الواضح تجاه الإسلام والمسلمين، وموقف المسلمين منه موقف ترعاه الدولة وتسوسه، وليس أفراد المسلمين.

وعلى هذا فإن جميع الآيات القرآنية التي جاءت في الإذن بالقتال، عللت ذلك

(114) الجوزية، زاد المعاد، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٨١.

الإذن بإخراج الكافرين للمؤمنين من ديارهم وأهلبيهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَذِنَ لِّلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْتُهُمْ ظُلْمُوا وَإِنَّ اللّٰهَ عَلٰى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾<sup>(١١٥)</sup>. وعندما نزل الأمر بالقتال، جاءت مسألة إخراج المؤمنين سبباً لقتالهم، على اعتبار أن كفار قريش هم الذي بدأوا العداوة والإخراج. قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾<sup>(١١٦)</sup>. وهكذا جعل القرآن الكريم الإخراج من الديار والفتنة المتمثلة في مصادرة حرية الناس واضطهادهم لأجل عقيدتهم، وإرغامهم على تغيير دينهم، جماع أسباب الجهاد القتالي في الإسلام<sup>(١١٧)</sup>.

يقول ابن القيم<sup>(١١٨)</sup> رحمه الله في ذلك: "ومن تأمل سيرة النبي ﷺ تبين له أنه لم يُكره أحدا على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله، وأما من هادنه فلم يقاتله ما دام مقيما على هديته لم ينقض عهده بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللّٰهِ وَعِنْدَ رَسُوْلِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾<sup>(١١٩) (١٢٠)</sup>.

(115) سورة الحج: ٣٩.

(116) سورة البقرة: ١٩٠.

(117) محمد عمارة، مرجع سابق، ص ١٢٢-١٢٣.

(118) محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي من كبار العلماء. ولد في دمشق عام ٦٩١هـ، تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية وتوفي في دمشق عام ٧٥١هـ. ترك مصنفات كثيرة منها: اعلام الموقعين عن رب العالمين. وإغاثة اللهفان... انظر ترجمته في: محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي، الرد الوافر. تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٣هـ، ج ١، ص ٦٨.

(119) سورة التوبة: ٧.

(120) محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، بدون، ص ٧١.

### ثالثاً: ضرورة فقه طبيعة الاختلاف بين المسلمين:

عند الحديث عن المخالف المسلم فلا بد من الوقوف على طبيعة الاختلاف بين المسلمين أولاً وكيفية فقهه، والتعامل معه، ليتسنى من خلال ذلك الفهم وضع الضوابط والشروط الخاصة به.

فالاختلاف مطلقاً سنّة من سنن الله في الحياة - كما سبق ذكره - وهو ضرورة كونية اجتماعية لا تستقيم الحياة بدونها. ووقوع الاختلاف بين الناس (سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين) أمر ضروري لا بد منه؛ لتفاوت إرادات الناس وأفهامهم وقوى إدراكهم. ولكن المذموم بغى بعضهم على بعض وعدوانه، وإلا فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحزب، وكل من المختلفين قصده طاعة الله ورسوله؛ لم يضر ذلك الاختلاف، فإنه أمر لا بد منه في النشأة الإنسانية.

يقول ابن القيم رحمه الله في ذلك: "إذا كان الأصل واحداً، والغاية المطلوبة واحدة، والطريق السلوكية واحدة؛ لم يكد يقع اختلاف، وإن وقع كان اختلافاً لا يضر كما تقدم من اختلاف الصحابة، فإن الأصل الذي بنوا عليه واحد، وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والقصد واحد وهو طاعة الله ورسوله ﷺ، والطريق واحد وهو النظر في أدلة القرآن والسنة، وتقديمها على كل قول ورأي وقياس وذوق وسياسة"<sup>(١٢١)</sup>.

يبيد أن الكثير من المسلمين - خاصة في العصر الحاضر - لم يقفوا على مفاهيم هذا

(121) ابن قيم الجوزية، الصواعق المرسلّة في الردّ على الجهمية والمعتلة، تحقيق: علي بن محمد السدخيل الله،

دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م، ج ٢، ص ٥١٩.

المصطلح وما يمكن أن يندرج تحته. وعلى هذا أفاض بعضهم في ذم الاختلاف مطلقاً، واعتبروه مدعاة لتفرق الأمة وتشرذمها إلى فرق وجماعات متناحرة. وهو أمر وقع فيه كثير من الخلط واللبس، مردّه في الغالب عدم الدقة في استعمال المصطلحات ومعرفة دلالاتها.

فقد يطلق البعض مصطلح الاختلاف ويريد به الاختلاف المذموم بالتحديد، ويسوق الأدلة والشواهد على ذمّه والتحذير منه. وقد يطلق البعض مصطلح الاختلاف ويريد به الاختلاف المحمود؛ فيذكر أقوال الأئمة ومآثرهم وأقوالهم في آثاره الإيجابية وإثرائه للفكر الإسلامي...

وهكذا يقع الالتباس منذ البداية نتيجة لغياب الرؤية الواضحة المحددة لمفهوم الاختلاف والمراد به.

ومن خلال تأمل أقوال العلماء في ذلك يمكننا القول بأن الاختلاف بين المسلمين، منه ما هو محمود مباح، ومنه ما هو مذموم منهي عنه. فالمحمود المباح منه ما كان نتيجة للاجتهاد المنضبط بجميع مستوياته، غير نابع عن هوى أو تعصب، لا يسوق إلى الفرقة والتنازع والتناحر والبغضاء المناقضة لأصل الاجتماع والألفة بين المسلمين.

ووجه إباحتها هذا النوع من الاختلاف، نابع من واقعية الإسلام، فالله عزّ وجل قد وهب لعباده عقولاً وقدرات متباينة في الفهم والحفظ والاطلاع، من شأنها أن تؤدّي إلى اختلاف في وجهات نظرهم وفهمهم للأمور ومواقفهم من القضايا المختلفة، وهو أمر طبيعي.

وعلى هذا اتسع الإسلام ليحتوي تلك الاختلافات الناجمة عن تباين العقول

فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنّة النبويّة

والأفهام، وتشعب الخواطر والآراء.. والقدرات العقلية على تفسير وفهم النصوص وغير ذلك، التي لا تهدد وحدة الأمة بحال، طالما أن الآراء متفقة إزاء القواعد الأساسية، وهي جملة الأمور القطعية الثبوت، القطعية الدلالة، وكل معلوم من الدين بالضرورة، مما لا يحتمل إلا رأياً واحداً<sup>(١٢٢)</sup>.

ومن ذلك المسائل الفرعية التي هي محل اجتهاد ونظر واختلاف، طالما أن لهذا الاختلاف ضوابطه وحدوده، وقواعده وآدابه الكفيلة بالحفاظ على وحدة الأمة وفكرها واجتماع كلمتها<sup>(١٢٣)</sup>.

وهذا النوع من الاختلاف هو الذي وقع في سلف الأمة وبين الأئمة المجتهدين. وقد أجمعت جماهير المسلمين على مرّ العصور على قبول تعدد آراء الأئمة المجتهدين، فتعددت مدارس المفسرين والمحدثين والأصوليين والفقهاء، بل تعددت مدارس النحاة والأدباء والمؤرخين وغيرهم. وكل هذا مما يمكن أن نطلق عليه الاختلاف المباح<sup>(١٢٤)</sup>.

بل إن هذا النوع من الاختلاف كان مفخرة من مفاخر التاريخ الإسلامي، وظاهرة إيجابية أثرت الفكر والحضارة، فهو رياضة للأذهان، وتلاقح للأفكار والرؤى، وفتح مجالات التفكير للوصول إلى سائر الافتراضات التي تستطيع العقول المختلفة

---

(122) بتصرف عن أبي المظفر منصور بن محمد السمعاني، قواطع الأدلة في الأصول، تحقيق: محمد حسن

الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج ٢، ص ٣٠٨.

(123) بتصرف عن طه جابر العلواني، مرجع سابق.

(124) عبد الله بن قدامة المقدسي، الكافي في فقه ابن حنبل، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي،

بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٨م، ج ١، ص ١٠١.

الوصول إليها في المسائل المعروضة أمامها. ومما تجدر الإشارة إليه أن من أهم عوامل إيجابية هذا النوع من الاختلاف، التزام الأطراف المختلفة بأدب الاختلاف والحوار فيما بينها، الأمر الذي حال دون تحول تلك الظاهرة الإيجابية إلى سلبيات يثن تحت وطأها الفكر الإسلامي.

وما دام هذا النوع ليس منهيًا عنه ابتداءً - من حيث هو اجتهاد - فإنه لا بد أن يترتب عليه اختلاف في وجهات النظر بين المجتهدين. وإذا كان الاختلاف مترتباً لا محالة على هذا النوع من الاجتهاد، والشأن فيه أنه مشروع، فلا يمكن عقلاً ولا شرعاً أن يكون ما يترتب عليه من تعدد وتنوع في الآراء مذموماً أو منهيًا عنه وممقوتاً. والاجتهاد الذي يترتب عليه مثل هذا الاختلاف المشروع، إنما يقع في الأحكام الشرعية في موضعين اثنين:

الأول: في المسائل التي لم يرد نص بشأنها، بل سكت عنها الشارع وتركها ليتوصل المجتهدون إلى حكمها بواسطة أصول الشرع، وقواعده الكلية، متحررين المصلحة في ذلك.

الثاني: المسائل التي وردت بشأنها أدلة ظنية، سواء أكانت ظنية الثبوت، أو ظنية الدلالة، أو ظنية الثبوت والدلالة معاً، وهذه يتوصل إلى الحكم فيها عن طريق الموازنة بين هذه الأدلة سنداً وامتناً، وعن طريق قواعد تفسير النصوص، والتعارض والترجيح المعروفة وغيرها من القواعد المشابهة في علم أصول الفقه.

يقول الجصاص<sup>(١٢٥)</sup> رحمه الله في هذا النوع من الاختلاف: "لو كان جميع

---

(125) أحمد بن علي أبو بكر الرازي الإمام الكبير الشأن المعروف بالجصاص وهو لقب له، مولده سنة خمس

=

الاختلاف مذموماً لوجب أن لا يجوز ورود الاختلاف في أحكام الشرع من طريق النص والتوقيف، فما جاز مثله في النص جاز في الاجتهاد. قد يختلف المجتهدان في نفقات الزوجات وقيم المختلفات وأروش كثير من الجنائيات فلا يلحق واحدا منهما لوم ولا تعنيف، وهذا حكم مسائل الاجتهاد. ولو كان هذا الضرب من الاختلاف مذموماً لكان للصحابة في ذلك الحظ الأوفر، ولما وجدناهم مختلفين في أحكام الحوادث، وهم مع ذلك متواصلون يسوّغ كل واحد منهم لصاحبه مخالفته، بلا لوم ولا تعنيف فقد حصل منهم الاتفاق على تسوية هذا الضرب من الاختلاف" (١٢٦).

ويقول الدهلوي<sup>(١٢٧)</sup> رحمه الله في ذلك: "إن أكثر صور الاختلاف بين الفقهاء لا سيما في المسائل التي ظهر فيها أقوال الصحابة في الجانبين كتكبيرات التشريق

---

وثلاث مائة سكن بغداد وعنه أخذ فقهاؤها. وله من المصنفات: أحكام القرآن، وشرح مختصر شيخه أبي الحسن الكرخي، وشرح مختصر الطحاوي، وشرح الجامع لمحمد بن الحسن، وشرح الأسماء الحسن، وله كتاب مفيد في أصول الفقه، وله جوابات عن مسائل وردت عليه. قال ابن النجار: توفي يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة سبعين وثلاث مائة. انظر ترجمته في: عبد القادر بن أبي الوفاء، مرجع سابق، ج ١، ص ٨٤-٨٥.

(126) أبو بكر أحمد بن علي الجصاص، أحكام القرآن، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، ج ٢، ص ٣١٤.

(127) الشاه ولي الله المحدث الدهلوي من علماء الهند، كانت وفاته في سنة ١١٧٦ هجرية، وله مؤلفات جليلة متممة بجل تعدادها، منها: فتح الرحمن في ترجمة القرآن، والفوز الكبير في أصول التفسير، والمسوى والمصفي في شروح الموطأ، والقول الجميل والخير الكثير، والانتباه، والدر الثمين، وكتاب حجة الله البالغة. راجع ترجمته في: القنوجي، أجد العلوم، ج ١، ص ٣٤٦.

وتكبيرات العيدين ونكاح المحرم وتشهّد ابن عباس وابن مسعود، والإخفاء بالبسملة وبآمين والإشفاع والإيتار والإقامة ونحو ذلك إنما هو في ترجيح أحد القولين، وكان السلف لا يختلفون في أصل المشروعية، وإنما كان خلافهم في أولى الأمرين. ونظيره اختلاف القراء في وجوه القراءة، وقد علّلوا كثيراً من هذا الباب بأن الصحابة مختلفون، وأنهم جميعاً على الهدى. ولذلك لم يزل العلماء يجوّزون فتاوى المفتين في المسائل الاجتهادية ويسلمون قضاء القضاة ويعملون في بعض الأحيان بخلاف مذهبهم..<sup>128</sup>.

فالاختلاف الحاصل في تأويل بعض الآيات الظنية الدلالة، المنضبط بشروط حددها العلماء في كتبهم: من موافقة اللغة، والسياق، وعدم معارضته للأصول الثابتة في القرآن الكريم والسنة.. أمر متوقع حصوله. ولو شاء الله عز وجل أن ينزل القرآن الكريم مفسراً متفقاً على تأويله، كما اتفق على تنزيله، لفعل سبحانه. فالله سبحانه جعل ذلك كنوع من الاختبار والابتلاء للبشر ليُعرف الحازم من العاجز، والجاهل من العالم، وعلى هذا بنيت الدنيا.

وقد جاءت نصوص وأقوال عدة، تضع مبادئ وأصولاً للاختلاف المحمود، ترتقي به في كثير من الأحيان إلى درجة الوجوب العملي. والتجربة الإسلامية على المستويين المعرفي والواقعي تؤكد أن الاختلاف المحمود المنضبط بآداب حسن النية والقصد، وبغية التوصل إلى الصواب والبعد عن التناحر والتحيز والتعصب، كان

(128) الدهلوي، حجة الله البالغة في أسرار الحديث وحكم التشريع، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ،



دعامة من دعائم الوجود الإسلامي على مرّ العصور. وما الحضارة الإسلامية المشرقة إلا من نتاج ذلك التعدد والتنوع الراقي.

وما ظهر من كتب ومؤلفات في علم الخلاف الهادف إلى تأييد المذاهب بإيراد الحجج والبراهين لأقوالهم، وبيان القواعد والأصول التي اعتمدوا عليها في الاجتهاد والاستنباط، وردّ الشبه التي تثار عليه، وإيقاعها على المذهب المخالف<sup>(١٢٩)</sup>، يندرج تحت هذا النوع من الاختلاف.

وللعلماء مؤلفات كثيرة في هذا العلم ظهرت منذ القرن الثاني الهجري. ومن ذلك: اختلاف الفقهاء لابن جرير الطبري<sup>(١٣٠)</sup>، واختلاف العلماء لأبي جعفر الطحاوي<sup>(١٣١)</sup>، وتأسيس النظر لأبي زيد الدبوسي<sup>(١٣٢)</sup>، والأساليب في الخلافات لإمام الحرمين<sup>(١٣٣)</sup>، ورحمة الأمة في اختلاف الأئمة

(129) محمد الزحيلي، الامام الجويني، دار القلم، دمشق، ١٩٨٦م، ص ١٨٥.

(130) محمد بن جرير الطبري، من كبار المفسرين والمؤرخين ولد بآمل في طبرستان عام ٢٢٤هـ واستوطن بغداد واختار لنفسه مذهباً في الفقه وتوفي في بغداد عام ٣١٠هـ. من تصانيفه: تاريخ الأمم والملوك، وجامع البيان في تأويل القرآن. انظر ترجمته في: طبقات الفقهاء، مرجع سابق، ص ١٠٢.

(131) أحمد بن محمد بن سلامة الحجري الطحاوي. فقيه ومجتهد ومؤرخ ولد سنة ٢٢٩هـ وتوفي في مصر عام ٣٢١هـ. من تصانيفه: أحكام القرآن، ومشكل الآثار، والمختصر في الفقه. انظر ترجمته في: طبقات الفقهاء، المرجع السابق، ص ١٤٨. الذهبي، مرجع سابق، ج ١٥، ص ٢٧.

(132) عبد الله بن عمر بن عيسى كان فقيهاً باحثاً وكان مضرباً للمثل في النظر واستخراج الحجج، من أكابر فقهاء الحنفية. وله مناظرات عدة توفي ببخارى عام ٤٣٠هـ. من تصانيفه: تأسيس النظر، وتقويم الأدلة في تقويم أصول الفقه وتحديد أدلة الشرع. انظر ترجمته في: الذهبي، مرجع سابق، ج ١٧، ص ٥٢١.

(133) عبد الملك بن يوسف بن عبد الله الجويني يلقب بإمام الحرمين. ولد عام ٤١٩هـ في نيسابور ورحل في طلب العلم كثيراً وتوفي سنة ٤٧٨هـ. ترك العديد من المؤلفات منها: البرهان في أصول الفقه، الكافية في

للدمشقي<sup>(١٣٤)</sup> وغير ذلك.

فهذا الضرب من الاختلاف لا يزيل الألفة، ولا يوجب الوحشة، ولا يوجب  
البراءة، ولا يقطع موافقة الإسلام فهو مباح محمود. فالخلاف الذي نهي عنه وحذر منه  
الهلاك هو التعادي، فأما الاختلاف بغير تعاد فقد أقرهم عليه .. فالحذر منه التباغض  
والتعادي والتكاذب المؤدي إلى فساد ذات البين، وضعف الإسلام وظهور أعدائه على  
أهله، والمحسن هو عمل كل أحد بما علم مع عدم المعادة لمخالفه والطعن عليه، وعلى  
ذلك درج السلف الصالح من أهل البيت والصحابة والتابعين<sup>(١٣٥)</sup>.

كما يندرج تحته أيضا، الاختلاف الواقع في النوازل التي عدت فيها النصوص في  
الفروع وغمضت فيها الأدلة، فيرجع في معرفة أحكامها إلى الاجتهاد. ويشبه أن  
يكون إنما غمضت أدلتها وصعب الوصول إلى عين المراد منها، امتحانا من الله سبحانه  
وتعالى لعباده لتفاضل في درجات العلم ومراتب الكرامة. فقد أراد الله عزّ وجلّ أن  
يكون في أحكامه المنصوص عليه والمسكوت عنه، وأن يكون في المنصوص عليه:  
المحكّمات والمتشابهات، والقطعيّات والظنيّات، والصريح والمؤول؛ لتعمل العقول في  
الاجتهاد والاستنباط فيما يقبل الاجتهاد والاستنباط، وتسلم فيما لا يقبل ذلك، إيمانا  
بالغيب وتصديقا بالحق، وبهذا يتحقق الابتلاء الذي بنى الله عليه خلق الإنسان: ﴿إِنَّا

الجدل، الإرشاد إلى قواعد الأدلة في أصول الاعتقاد. انظر ترجمته في: الذهبي، مرجع سابق، ج١٨، ٤٦٨، ١٨.

(134) محمد بن عبد الرحمن بن الحسين، فقيه شافعي من أهل دمشق كان قاضي قضاة المملكة الصفدية. توفي

سنة ٧٨٠هـ. من مؤلفاته: تاريخ صفد، طبقات الشافعية الكبرى. انظر ترجمته في: كشف الظنون، ٨٣٦.

(135) ابن الوزير، إيثار الحق على الخلق، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٣٧٥.

خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ﴿١٣٦﴾ (١٣٧).

وعلى هذا يتأول ما ورد في بعض الأخبار اختلاف أمي رحمة<sup>(١٣٨)</sup> فعلى هذا النوع يحمل هذا اللفظ دون النوع الآخر فيكون لفظ الاختلاف هنا لفظا عاما<sup>(١٣٩)</sup>.

وقد جاء في تأويل معنى الرحمة المذكورة في هذا الضرب من الاختلاف أن الله قد نفع باختلاف أصحاب النبي ﷺ في أعمالهم، لا يعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأى أنه في سعة، ورأى أن خيراً منه قد عمله، وعنه أيضاً: أي ذلك أخذت به لم يكن في نفسك منه شيء، ومثل معناه مروى عن عمر بن عبد العزيز، قال: ما يسرني أن لي باختلافهم حمر النعم. قال القاسم لقد أعجبتني قول عمر بن عبد العزيز: ما أحب أن

(136) سورة الإنسان: ٢.

(137) بتصرف بسيط عن: يوسف القرضاوي، الصحة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، دار الشروق، ٢٠٠١م، ص ٤٢.

(138) ذكره النووي في شرحه لصحيح مسلم حيث قال: "قال الخطابي وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال اختلاف أمي رحمة فاستصوب عمر ما قاله قال وقد اعترض على حديث اختلاف أمي رحمة رجلان أحدهما مغموض عليه في دينه وهو عمرو بن بحر الجاحظ والآخر معروف بالسخف والخلاعة وهو إسحق بن إبراهيم الموصلي فإنه لما وضع كتابه في الأغاني وأمكن في تلك الأباطيل لم يرض بما تزود من إثمها حتى صدر كتابه بدم أصحاب الحديث وزعم أنهم يروون ما لا يدرون وقال هو والجاحظ لو كان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق عذاباً ثم زعم أنه إنما كان اختلاف الأمة رحمة في زمن النبي ﷺ خاصة فإذا اختلفوا سألوهم فيبين لهم والجواب عن هذا الاعتراض الفاسد أنه لا يلزم من كون الشيء رحمة أن يكون ضده عذاباً ولا يلزم هذا ويذكره إلا جاهل أو متجاهل..". أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، شرح النووي على صحيح مسلم، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ، ج ١١، ص ٩٢.

(139) بتصرف يسير عن أبي المظفر منصور بن محمد السمعاني، قواطع الأدلة في الأصول، تحقيق: محمد حسن الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج ٢، ص ٣٠٨.

أصحاب رسول الله لم يختلفوا، لأنه لو كان قولاً واحداً، كان الناس في ضيق. وإلهم أئمة يقتدى بهم فلو أخذ بقول رجل منهم كان في سعة وقال بمثل ذلك جماعة من العلماء<sup>(١٤٠)</sup>.

ويرى العلماء أن الاختلاف المحمود يرجع في الحقيقة إلى وفاق، يقول الشاطبي<sup>(١٤١)</sup> رحمه الله في ذلك: "فإن الاختلاف في بعض المسائل الفقهية راجع إما إلى دوراتها بين طرفين واضحين يتعارضان في أنظار المجتهدين، وإما إلى خفاء بعض الأدلة، أو إلى عدم الاطلاع على الدليل. وهذا الثاني ليس في الحقيقة خلافاً... فهم في الحقيقة متفقون لا مختلفون. ومن هنا يظهر وجه التحاب والتآلف بين المختلفين في مسائل الاجتهاد، لأنهم مجتمعون على طلب قصد الشارع، فلم يصيروا شيعاً، ولا تفرقوا فرقاً"<sup>(١٤٢)</sup>.

وثاء العلماء على هذا النوع من الاختلاف يعود إلى حقيقة اتفاق المختلفين في مراعاتهم قصد الشارع وطلبهم لمراده، واتباعهم الدليل الذي ظهر منهم. بمعنى الاختلاف المنضبط بضوابط وأصول معروفة.

فإذا لم تتحقق فيه عناصر الانضباط والالتزام بالآداب التي أدرجها العلماء في مؤلفاتهم - كما سيأتي ذكره في الدراسة لاحقا- يمكن أن يسوق إلى نوع من

- 
- (140) الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ج٤، ص ١٢٥.
- (141) الإمام الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي الغرناطي، له العديد من المصنفات، من أشهرها: الاعتصام، والموافقات. توفي عام ٥٧٩٠هـ. انظر ترجمته في: أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الشاطبي، الدار العالمية للكتاب الإسلاميين الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص ٩٠.
- (142) المرجع السابق، ج٤، ص ٢٢١.

الاختلاف المذموم بناءً على ما يترتب عليه من نتائج الفرقة والتعصب والتناحر. فكل اختلاف - أيا كان - لا يلتزم أصحابه بالآداب العامة والمعالم الخاصة به، كما كان يلتزم بها سلف هذه الأمة وصحابة النبي عليه الصلاة والسلام، اندرج تحت الاختلاف المنهي عنه لما يترتب عليه من العداوة والتنافر والفرقة المنهي عنها.

من هنا فقد وضع الشاطبي رحمه الله ضابطاً لمعرفة الاختلاف الحمود من المذموم حيث يقول رحمه الله في ذلك: "ووجدنا أصحاب رسول الله ﷺ من بعده قد اختلفوا في أحكام الدين، ولم يفترقوا، ولم يصيروا شيعاً؛ لأنهم لم يفارقوا الدين وإنما اختلفوا فيما أذن لهم من اجتهاد الرأي والاستنباط من الكتاب والسنة، فيما لم يجدوا فيه نصاً، واختلفت في ذلك أقوالهم فصاروا محمودين لأنهم اجتهدوا فيما أمروا به كاختلاف أبي بكر وعمر وزيد في الجد مع الأم، وقول عمر وعلي في أمهات الأولاد، وخلافهم في الفريضة المشتركة، وخلافهم في الطلاق قبل النكاح، وفي البيوع وغير ذلك مما اختلفوا فيه، وكانوا مع هذا أهل مودة وتناصح، أخوة الإسلام فيما بينهم قائمة. فلما حدثت المرذية التي حذر منها رسول الله ﷺ وظهرت العداوات وتحزب أهلها فصاروا شيعاً دلّ على أنه إنما حدث ذلك من المسائل المحدثّة التي ألقاها الشيطان على أفواه أوليائه قال: فكل مسألة حدثت في الإسلام فاختلف الناس فيها ولم يورث ذلك الاختلاف بينهم عداوة ولا بغضاء ولا فرقة علمنا أنها من مسائل الإسلام وكل مسألة طرأت فأوجبت العداوة والتنافر والتناز والقطيعة علمنا أنها ليست من أمر الدين في شيء وأنها التي عنى رسول الله ﷺ بتفسير الآية وهي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾<sup>(١٤٣)</sup>. وقد تقدمت، فيجب على كل ذي دين وعقل أن

(143) سورة الأنعام: ١٥٩.

يجتنبها، فالإسلام يدعو إلى الألفة والتحاب والتراحم والتعاطف، فكل رأي أدى إلى خلاف ذلك فنخرج عن الدين" (١٤٤).

و في شرح هذا النوع من الاختلاف المنهي عنه، جاء في الرسالة: "فإني أجد أهل العلم قديماً وحديثاً مختلفين في بعض أمورهم، فهل يسعهم ذلك؟ قال قلت له الاختلاف من وجهين: أحدهما محرم، ولا أقول ذلك في الآخر. قال: فما الاختلاف المحرم؟ قلت: كل ما أقام الله به الحججة في كتابه أو على لسان نبيه منصوصاً بيناً لم يحل الاختلاف فيه لمن علمه، وما كان من ذلك يحتمل التأويل ويُدرك قياساً، فذهب المتأول أو القائل إلى معنى يحتمله الخبر أو القياس، وإن خالف غيره لم أقل إنه يضيق عليه ضيق الخلاف في المنصوص. قال فهل في هذا حجة تبين فرقك بين الاختلافين؟ قلت: قال الله في ذم التفرق: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ (١٤٥)، وقال جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٤٦)، فذم الاختلاف فيما جاءهم به البيّنات" (١٤٧). والمراد بذلك النوع من الاختلاف الواقع في نصوص قطعية الشبوت قطعية الدلالة. والخلاف المذموم إنما يتصور وجوده في حالتين اثنتين هما:

(144) الشاطبي، مرجع سابق، ج ٤، ١٨٥-١٨٦.

(145) سورة البينة: ٤.

(146) سورة آل عمران: ١٥٩.

(147) أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة، ١٩٣٩م،

ج ١، ص ٥٦٠.

**الأولى:** الخلاف المترتب على مسائل قطعية<sup>(١٤٨)</sup> لا يجوز الاجتهاد فيها، وهذا بلا شك باطل مردود على صاحبه وقد جاءت النصوص تنهى عنه وتحذّر منه.

**الثانية:** الخلاف المؤدي إلى الشقاق والنزاع والتدابير والتناحر والفرقة ولو كان ذلك الاختلاف في الأصل في مسائل يجوز فيها الاجتهاد، لما يترتب عليه من عواقب وخيمة. فهذا النوع من الاجتهاد ليس منهياً عنه ابتداءً من حيث هو اجتهاد، لأن الاجتهاد في الأصل مشروع، وجاءت النصوص الشرعية دالة على جوازه والإذن به، وإنما المنهي عنه ما يترتب عليه من شقاق وفرقة وشتات وتباغض وتدابير. وهو ذات الاختلاف الذي حدّر منه النبي عليه الصلاة والسلام كثيراً وأصحابه وأشار إلى وقوعه في أهل الكتاب. فقد أخبر النبي ﷺ أن هلاك الأمم من قبلنا إنما كان باختلافهم على أنبيائهم.

(148) الدليل القطعي الثبوت: هو القرآن الكريم لثبوته ثبوتاً قطعياً عن طريق التواتر، ومثله الحديث المتواتر الذي يرويه جمع عن جمع يستحيل تواطؤهم على الكذب، والدليل الظني الثبوت: هو السنة التي رويت عن طريق الآحاد. أما الدليل القطعي الدلالة: فهو الذي لا يحتمل إلا معنى واحداً، كقوله تعالى: (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) [سورة النور: ٢]. فقله: (مائة جلدة) قطعي في دلالته على عدد الجلد حيث حدد بمائة، والمائة لا تحتمل تسعين ولا ثمانين ولا غيرها... أما الدليل الظني الدلالة فعكسه فهو يحتمل أكثر من معنى ولكنه راجح في أحد هذه المعاني دون الأخرى، كقوله تعالى: (والمطلقات يترصن بأنفسهن ثلاثة قروء) [سورة البقرة: ٢٨٨]، فالقرء الوارد في هذه الآية يطلقه بعض علماء اللغة على الطهر، وبعضهم على الحيض، وبناء على هذا اختلف علماء الشرع، فمنهم من حمله على هذا ومنهم من حمله على ذلك. فمثل هذا لا يمكن أن تكون دلالته لأحد الطرفين قطعية ما دام أنه يحمل أكثر من معنى. هذا والدلالة الظنية تكون في القرآن كما تكون في السنة. انظر تفاصيل هذا الموضوع في كتب أصول الفقه، فقد بسطت الكلام حول هذا الموضوع وفصلته.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ تَتَنَازَعُ فِي الْقَدَرِ، فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَمَا فُقِيَ فِي وَجْتِنَيْهِ الرُّمَانُ، فَقَالَ: أَبْهَذَا أُمِرْتُمْ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ! إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ، عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَتَنَازَعُوا فِيهِ (١٤٩).

وفي مسند أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: لقد جلستُ أنا وأخي مجلساً ما أحبُّ أن لي به حُمْرُ النعم، أقبلتُ أنا وأخي، وإذا مشيخةٌ من صحابة رسول الله ﷺ جلوسٌ عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرقَ بينهم، فجلسنا حجرة، إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها، حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضباً قد احمرَّ وجهه يرميهم بالتراب، ويقول: مهلاً يا قوم! بهذا أهلكتم الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً، بل يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه (١٥٠).

وغالبا ما يكون هذا النوع من الاختلاف، منبثقا عن هوى النفس، وعلى هذا فهو مذموم بكل أشكاله ومختلف صورته، لأن حظ الهوى فيه غلب الحرص على تحري الحق، والهوى لا يأتي بخير فهو مطية الشيطان إلى الكفر، قال تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (١٥١). والهوى

(149) أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاکر وآخري، دار إحياء التراث

العربي، بيروت، بدون، باب القدر عن رسول الله، حديث رقم ٢٠٥٩.

(150) مسند أحمد، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص، حديث رقم ٦٤١٥.

(151) سورة البقرة: ٨٧.



مدعاة لكل ظلم وبغي وتجاوز من قبل الفرد على غيره، فكيف إن كان هذا الغير مخالفا له في رأي!.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾<sup>(١٥٢)</sup>.

ويمكن ردّ خلاف أهل الملل والنحل ودعاة البدع في دين الله تعالى إلى آفة الهوى، وعدم وجود الرغبة الصادقة في تحري الحق وطلبه. وعلى هذا ردّ غالب العلماء الآثار السلبية الفادحة، التي وقعت في تاريخ الأمة نتيجة لهذا النوع من الاختلاف الناجم عن اتباع هوى النفس والآراء الذاتية دون طلب للحق أو تحرُّ له.

يقول الشاطبي رحمه الله في ذلك: "الخلاف الذي هو في الحقيقة خلاف ناشئ عن الهوى المضل، لا عن تحري قصد الشارع باتباع الأدلة على الجملة والتفصيل، وهو الصادر عن أهل الأهواء، وإذا دخل الهوى أدى إلى اتباع المتشابه حرصا على الغلبة والظهور بإقامة العذر في الخلاف، وأدى إلى الفرقة والتقاطع والعداوة والبغضاء، لاختلاف الأهواء وعدم اتفاقها"<sup>(١٥٣)</sup>.

ومن أنواع الاختلاف المذموم كذلك الخلاف الناجم عن الخوض في مسائل لا ينبني عليها عمل. وهذا النوع قد حدّر منه النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث المذكور آنفا. عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال ثم خرج رسول الله ﷺ على

(152) سورة النساء: ١٣٥.

(153) الشاطبي، ج ٤، ص ٢٢٢.

أصحابه وهم يختصمون في القدر فكأنما يفتقأ في وجهه حب الرمان من الغضب فقال بهذا أمرتم أو لهذا خلقتم؟! تضربون القرآن بعضه ببعض! بهذا هلكت الأمم قبلكم قال فقال عبد الله بن عمرو ما غببت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ ما غببت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه<sup>(١٥٤)</sup>.

فالأمر المتعلقة بمسائل لا يترتب على الاختلاف فيها عمل، لا ينبغي الانشغال بها أو حتى مجرد الخوض فيها. وهذا أمر من القواعد المعتمدة في الاختلاف، فما أكد القرآن والسنة على الاهتمام به والوقوف عنده، كان اهتمام المسلم به أولى وأجدى، وما وقف القرآن والسنة عن الخوض فيه، كان تركه الأولى والأصلح.

وقد وقعت ضروب الاختلاف المذموم وصنوفه في فترات عديدة في تاريخ الأمة الإسلامية (على الرغم من التوجيهات والتحذيرات المتواصلة التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية) بما يستحق أن تتوجه الأنظار لأخذ الدروس والعبر منه.

فقد كان التنازع والاختلاف (المذموم) أشد شيء على رسول الله ﷺ، وكان إذا رأى من الصحابة اختلافا يسيرا في فهم النصوص يظهر في وجهه حتى كأنما فقيء فيه حبّ الرمان ويقول أبهذا أمرتم<sup>(١٥٥)</sup>.

وجميع الآيات والنصوص الواردة في ذلك تنصرف إلى الاختلاف المؤدي إلى

(154) أبو عبد الله محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، ج ١، ص ٣٤. رقم ٨٥.

(155) ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: طه سعد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م، ج ١، ص ٢٥٩.

الفرقة والتناحر. كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ (١٥٦). وقوله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٥٧) وقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (١٥٨) ونحوه.

فقد أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنما هلك من كان قبلكم بالمرء والخصومات في دين الله (١٥٩)، والأهواء المفرقة وما كان منكم من التفرق والاختلاف. فالاختلاف والأهواء يؤديان إلى التناحر وذهاب قوة المسلمين المشار إليه (١٦٠) في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (١٦١).

ويقول الجصاص في تفسيرها: "أمر الله تعالى في هذه الآية بطاعته وطاعة رسوله ونهى بها عن الاختلاف والتنازع، وأخبر أن الاختلاف والتنازع يؤدي إلى الفشل وهو ضعف القلب من فرع يلحقه، وأمر في آية أخرى بطاعة ولاة الأمر، لنفي الاختلاف

(156) سورة النساء: ١٤٠.

(157) سورة الأنعام: ١٥٣.

(158) سورة الشورى: ١٣.

(159) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج ٥، ص ٣٣٠.

(160) المرجع السابق، ج ٧، ص ٢٢١.

(161) سورة الأنعام: ٦٥.

والتنازع المؤديين إلى الفشل في قوله: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول ..﴾ فتضمنت هذه الآيات كلها النهي عن الاختلاف والتنازع وأخبر، أن ذلك يؤدي إلى الفشل وإلى ذهاب الدولة بقوله وتذهب ربحكم" (١٦٢).

وعلى هذا كانت رعاية وحدة الأمة وتماسكها من أعظم الأصول التي ينبغي مراعاتها بين المسلمين ولا يصح تعريضها لتهديدٍ بسبب اختلافٍ في رأي أو نحوه.

ويقول ابن تيمية رحمه الله في ذمّ الفرقة: "الفساد الذي وقع في هذه الأمة، بل وفي غيرها، هو التفرق والاختلاف، فإنه وقع بين أمرائها وعلمائها من ملوكها ومشايخها وغيرهم من ذلك ما الله به عليم، وإن كان بعض ذلك مغفوراً لصاحبه لاجتهاده الذي يُعْفَر فيه خطؤه، أو لحسناته الماحية، أو توبته، أو لغير ذلك، لكن يعلم أن رعايته من أعظم أصول الإسلام" (١٦٣).

يَبْدُ أن هذه المعاني التي كَرَّست في الرعيّل الأول من جيل الصحابة والتابعين معاني الحرص على الأخوة والألفة والمودة والبعد عن التنافر والفرقة، لم تستمر في الأجيال اللاحقة لها، التي تفتشت فيها أدواء مختلفة جاءت من جراء انتشار وباء الاختلاف المذموم. وهو نوع من الابتلاء والامتحان الذي تعرضت له الأمة عبر التاريخ.

جاء في طبقات الحنابلة توصيفٌ لوقوع بعض المآسي من جراء الاختلاف في

(162) الحصص، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٥١. تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج ٤، ص ٦١.

(163) ابن تيمية، كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية، مرجع سابق، ج ٢٢، ص ٣٥٨.

العصور اللاحقة: "انقلب الزمان وتغير الناس جداً، وفشت البدع وكثر الدعاة إلى غير سبيل الحق والجماعة، ووقعت المحنة في كل شيء لم يتكلم به رسول الله ﷺ ولا أحد من الصحابة. ودعوا إلى الفرقة وقد نهي الله عز وجل عن الفرقة وكفر بعضهم بعضاً. وكلُّ دعا إلى رأيه وإلى تكفير من خالفه، فضل الجهال والرعا ع ومن لا علم له وأطمعوا الناس في شيء من أمر الدنيا وخوفوهم عقاب الدنيا فاتبعهم الخلق على خوف في دنياهم ورغبة في دنياهم فصارت السنة وأهل السنة مكتومين، وظهرت البدعة وفشت وكفروا من حيث لا يعملون من وجوه شتى، ووضعوا القياس وحملوا قدرة الرب وآياته وأحكامه وأمره ونهيه على عقولهم وآرائهم فما وافق عقولهم قبلوه وما خالف عقولهم ردوه، فصار الإسلام غريباً والسنة غريبة وأهل السنة غرباء في جوف ديارهم" (١٦٤).

وقد جاء في هذا النص معظم الآثار الوخيمة المترتبة على الاختلاف غير المنضبط بشروطه وآدابه وضوابطه، من تشبث أصحاب كل طرف بما هم عليه، واعتقادهم امتلاك الحق دون غيرهم، وعدم الاكتفاء بذلك بل الوقوع في داء الفرقة والنزاع وصولاً إلى فتنة التكفير للمسلمين. وهذه ظواهر، تبرز في الأمة وتشتد كلما برزت دواعيها واستفحلت أسبابها.

ويشكّل الاختلاف المذموم بأنواعه وضروبه المتعددة، خطراً عظيماً على وحدة الأمة واجتماع كلمتها، فهو ينخر في كيانها ويهدد وجودها، ويقدمها لقمة سائغة

(164) أبو الحسين محمد بن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ج ٢، ص ٢٩.

لأعدائها. وقلما خلا منه أو من بعض أنواعه كثير من المسلمين، إلا أن خطورته تكمن في صيرورته ظاهرة وتيارا له من أسباب القوة ما تمكن له الانتشار والسريان في جسد الأمة.

يقول الدكتور طه جابر العلواني في توصيف ظاهرة الاختلاف في العصر الراهن: "إن من أخطر ما أصيبت به هذه الأمة في الآونة الأخيرة مرض «الاختلاف والمخالفة»... الاختلاف في كل شيء، وعلى كل شيء، حتى شمل العقائد والأفكار والتصورات والآراء إلى جانب الأذواق والتصرفات والسلوك والأخلاق. وتعدى الاختلاف كل ذلك حتى بلغ أساليب الفقه، وفروض العبادات، وكان كل ما لدى هذه الأمة من أوامر ونواه يثتها على الاختلاف أو يدفعها إليه والأمر عكس ذلك تماماً، فإن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ما حرصا على شيء بعد التوحيد حرصهما على تأكيد وحدة الأمة، ونبذ الاختلاف بين أبنائها، ومعالجة كل ما من شأنه أن يعكر صفو العلاقة بين المسلمين، أو يחדش أخوة المؤمنين. ولعل مبادئ الإسلام ما نددت بشيء بعد الإشراف بالله تنديدها باختلاف الأمة، وما حضت على أمر بعد الإيمان بالله حضها على الوحدة والائتلاف بين المسلمين" (١٦٥).

والاختلاف بنوعيه جزء من الاختبار الذي جعله الله سبحانه غايةً لخلق الإنسان على الأرض. قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ﴾ (١٦٦).

(165) طه جابر العلواني، مرجع سابق، ص ٢٥.

(166) سورة الملك: ١.

فإنه عز وجل أودع اختلافاتٍ عدَّةً في طبائع الناس: من اختلاف في القدرات  
الذهنية، والمواهب، والطبائع، والمدارك، ثم منحهم بعد ذلك القدرة على اختيار  
الأصلح والقيام بعمل الأحسن والأفضل. الأمر الذي نتج عنه الاختلاف في الملل  
والنحل ومناهج النظر والاستدلال والمعارف والعلوم. ولا ينبغي أن تنصرف حقيقة  
الابتلاء والاختبار في الاختلاف في خضم وقوع الخلاف، ليتسنى للأطراف المختلفة  
التدبر في العواقب وتذكر ما يؤول إليه.

#### رابعاً: ضرورة فقه الأحاديث المتعلقة بالخلاف:

من أهم الأسس التي ينبغي غرسها وإحيائها في النفوس، قبل الشروع بالحوار مع  
المخالفين من المسلمين، فهمُّ الأحاديث النبوية، والآثار المتعلقة بالاختلاف والتفرق،  
وقراءتها مجتمعة لا متفرقة مبتورة عن سياقها. فإساءة الفهم أو بتر هذه الأحاديث من  
سياقها أو قراءة أحدها دون النظر إلى بقية الأحاديث الواردة في الباب، من أهم  
أسباب استعمال النصوص في غير مواضعها، بل قد يصبح النص (بسبب قلة الفهم أو  
انعدامه) من أهم أسباب وقوع مزيد من الخلاف والشقاق بين المسلمين.

ومن ذلك الأحاديث الواردة في تفرق الأمة، وجعل بأسها بينها، وتسليط بعضها  
على بعض. وهي أحاديث في جملتها صحيحة مستفيضة رويت عن عدد من الصحابة  
رضوان الله عليهم. إلا أن تلك الأحاديث لا ينبغي النظر إليها مجتزأةً دون قراءة بقية  
الأحاديث الواردة حول الموضوع ذاته؛ ليتسنى للقارئ فهم الصورة كاملة غير مبتورة.  
فالأحاديث الواردة في السنة عن هلاك الأمة بعضها ببعض، لا بد أن تُفهم في ضوء  
الأحاديث الواردة في السنة عن اجتماع الأمة، وأهمية وحدة الكلمة والصف. كما  
ينبغي التنبيه إلى ضرورة جمع مختلف الروايات الصحيحة الواردة للحديث؛ ليظهر من

خلال الجمع، طبيعة السياق الوارد فيه الحديث. وهو أمر يُسهّل عملية التوصل إلى الفهم الدقيق كثيراً.

ومن هذه الأحاديث ما جاء في صحيح مسلم في باب عنوانه: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض: عن عامر بن سعد عن أبيه أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مرَّ بمسجد بني معاوية دخل فرَكَع فيه ركعتين، وصلينا معه، ودعا ربه طويلاً ثم انصرف إلينا، فقال ﷺ: (سألتُ ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين، ومنعني واحدة: سألتُ ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة، فأعطانيها، وسألتُه أن لا يهلك أمتي بالغرق، فأعطانيها، وسألتُه أن لا يجعل بأسهم بينهم، فمنعني).

وفي رواية مسند أحمد: "عن عبد الله بن حباب عن أبيه حباب بن الأرت مولى بني زهرة، وكان قد شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ، أنه قال: راقبتُ رسول الله ﷺ في ليلة صلاحها رسول الله ﷺ كلها، حتى كان مع الفجر سلم رسول الله ﷺ من صلاته جاءه حباب، فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت نحوها؟ فقال رسول الله ﷺ: أجل إنها صلاة رغب ورهب، سألتُ ربَّ تبارك وتعالى ثلاث خصال، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألتُ ربي تبارك وتعالى أن لا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا، فأعطانيها، وسألتُ ربي عز وجل أن لا يظهر علينا عدواً غيرنا، فأعطانيها، وسألتُ ربي تبارك وتعالى أن لا يلبسنا شيعاً، فمنعنيها" (١٦٧).

وفي صحيح مسلم في ذات الباب رواية كذلك عن ثوبان قال: قال رسول الله

(167) مسند أحمد، أول مسند البصريين، حديث رقم ٢٠١٤٥.



ﷺ: إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَعَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بَسَنَةَ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحُ بِيضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ، وَإِنِّي أُعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بَسَنَةَ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بِيضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بَاقَطَارِهَا، أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا<sup>(١٦٨)</sup>.

فهذه الأحاديث وغيرها لا ينبغي فهمها وتأويلها على أنها تحمل حكماً عاماً، أو قدراً محتوماً على الأمة، كما فهمه البعض. ولو كان الحديث بهذا الشكل لنشأ تعارض بينه وبين غيره من نصوص القرآن الكريم والسنة الصحيحة، الواردة حول جمع الكلمة ووحدتها الصف، وهذا لا يكون، مما يؤيد أن الحديث وارد في باب التحذير من أمرٍ آخر بوقوعه النبي عليه الصلاة والسلام عندما تتخلف الأمة عن القيام بواجباتها في الاجتماع والاتلاف، وليس تقريراً لحكم عام لا يتبدل ولا يتخلف مهما حدث. فالأمر متروك للأمة بعد هذا التحذير الشديد، خاصة وأن الحديث الوارد في مسند أحمد يتبين من سياقه ذلك حين يقول النبي صلى الله عليه وسلم إنها صلاة رَغَبٍ وَرَهَبٍ.

فلا ينبغي أن يُفهم الحديث على أن تفرق الأمة أمر مصيري واقع في كل حال، وفي كل زمان ولو كان الأمر كذلك لنشأ تعارض واضح مع عشرات النصوص

(168) صحيح مسلم، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض. حديث رقم ٥١٤٤.

القرآنية والأحاديث الداعية إلى الاعتصام بجبل الله وجمع الكلمة، الناهية بشدة عن التفرق والاختلاف. فالحديث إخبار بواقع يحدث عندما تتحقق أسبابه ودواعيه، التي فهي عنها النبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث أخرى، وبهذا الفهم الشمولي للنصوص يمكن أن يزول الإشكال واللبس الواقع عند البعض<sup>(١٦٩)</sup>.

ومن الأحاديث المهمة التي أسيء فهمها كثيراً في باب الاختلاف حديث الفرقة الناجية. فقد بات هذا الحديث سيفاً مشرعاً يستلّه أصحاب الفرق والمخالفين في وجه بعضهم البعض كلما لاحت فكرة، أو علت كلمة لا توافق ما هم عليه من الرأي<sup>(١٧٠)</sup>.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ)<sup>(١٧١)</sup>. وهذا الحديث أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم.

وقد ذكر الحاكم النيسابوري<sup>(١٧٢)</sup> في المستدرک علی الصحیحین: "أن هذا

(169) بتصرف يسير عن القرضاوي، الصحوة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٣٣-٣٤.

(170) في تفاصيل هذا الحديث انظر: أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، وبيان الفرقة الناجية، تحقيق: محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ١٩٨٠م.

(171) سنن ابن ماجه، باب الفتن، افتراق الأمم، حديث ٣٩٨٣.

(172) الحاكم النيسابوري المعروف بابن البيع صاحب المستدرک وغيره من الكتب المشهورة، ولد في ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وطلب العلم في صغره، وأول سماعه سنة ثلاثين، ورحل في طلب الحديث، وسمع الكثير على شيوخ يزيدون على ألفين. بلغت تصانيفه قريباً من خمسمائة جزء، وقيل ألف جزء، وقيل ألف وخمسمائة جزء. انظر ترجمته في: أبو بكر بن أحمد بن محمد، طبقات الشافعية، تحقيق: الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٧ هـ، ج ٢، ص ١٩٣-١٩٥.

الحديث روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وعمرو بن عوف المزني بإسنادين تفرد بأحدهما عبدالرحمن بن زياد الأفريقي والآخر كثير بن عبد الله المزني ولا تقوم بهما الحجة<sup>(١٧٣)</sup>.

وقد ساق الحاكم رواية الحديث على النحو التالي: عن عبد الله بن عمرو بن عوف بن زيد عن أبيه عن جده قال: كنا قعودا حول رسول الله ﷺ في مسجده فقال: لتسلكن سنن من قبلكم، حذو النعل بالنعل، ولتأخذن مثل أخذهم، إن شبرا فشير، وإن ذراعا فذراع، وإن باعا فباع، حتى لو دخلوا حجر ضب دخلتم فيه، ألا إن بني إسرائيل افترت على موسى على إحدى وسبعين فرقة، كلها ضالة إلا فرقة واحدة: الإسلام وجماعتهم، وإنها افترت على عيسى بن مريم على إحدى وسبعين فرقة، كلها ضالة إلا فرقة واحدة: الإسلام وجماعتهم، ثم أنهم يكونون على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة إلا فرقة واحدة بالإسلام وجماعتهم<sup>(١٧٤)</sup>.

### فعند جمع روايات حديث الفرقة الناجية تتضح بعض الأمور المهمة منها:

- أن الحديث جاء في بعض رواياته في سياق التحذير من اتباع خطى اليهود والنصارى في التفرق والاختلاف والتشتت؛ فالغاية التي جاء الحديث ليؤكد كدها: أهمية الابتعاد عن الفرقة، ونبذ الاختلاف الواقع في الأمم السابقة في أصول العقائد<sup>(١٧٥)</sup>.

(173) محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، تحقیق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م، ج ١، ص ٢١٨.

(174) الحاكم، المرجع السابق، ج ١، ص ٢١٩.

(175) جاء في أجد العلوم عن القحطي في كتابه الرد على النصارى، ذكر عدد هائل من الفرق التي ظهرت

إلا أن هذا الحديث بات يستشهد به أصحاب كل فرقة ضد الفرق الأخرى لتبيان أنها هي الفرقة الناجية، وما عداها في النار. وعليه فإن الغاية التي سيق لأجلها الحديث باتت على الضد من الحاصل اليوم؛ فلا يعقل أن يكون الحديث سيق لإقرار التفرقة بين المسلمين وقد جاء للتحذير منها.

- أن ثمة علماء تكلموا في الحديث وفي الزيادة الواردة في بعض رواياته ومنهم محمد بن إبراهيم الوزير<sup>(١٧٦)</sup> حيث يقول: "وإياك والاعتزاز بـ"كلها هالكة إلا واحدة" فإنها زيادة فاسدة غير صحيحة القاعدة، ولا يؤمن أن تكون من دسيس الملاحدة"<sup>(١٧٧)</sup>.

بين النصارى في الفترة الواقعة ما بين عيسى عليه السلام والنبي محمد ﷺ، منهم: الملكية، النسبورية، يعقوبية، الصامية، الكثنانية، البهانية، الأليانية، المارونية، السالية، الأربوسية، المنانية، الديصانية، المرقيونية، الأجرعانية، المقداموسية، الماقادونية، اليماسية، الغولية، النولية، الإرباغوسية، العطاحرية، الهيلانية، الباكولية، البولفانية، المخرانية، السوروانية، الساورمية، العلانشية، الأوطاخية، البوالنطرية، البقالوسية، المرسمية، الملورية، الباقورية، الآدمية، النفسطونية، والعزونية، النفسانية، الحسينية، الديقطانية... انظر: القنوجي، مرجع سابق، ج ١، ٤٧٩.

(176) محمد بن إبراهيم الوزير بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسيني القاسمي الهادوي الإمام العلامة والمحدث الأصولي النحوي المتكلم الفقيه. كان فريد العصر ونادرة الدهر خاتمة النقاد وحامل لواء الإسناد وبقية أهل الاجتهاد بلا خلاف وعناد رأساً في المعقول والمنقول إماماً في الفروع والأصول. كان مولده في شهر رجب سنة ٧٧٥. وله مصنفات عديدة ومجموعات مفيدة منها: كتاب القواصم في الذب في سنة أبي القاسم، أربعة أجزاء، وغيره. توفي رحمه الله في الطاعون الذي وقع في اليمن كلاهما في سنة ٨٤٠هـ، انظر ترجمته في: صديق بن حسن القنوجي، مرجع سابق، ج ٣، ١٨٩-١٩١.

(177) محمد بن إبراهيم ابن الوزير، العواصم والقواصم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ج ١، ص ١٨٦. ج ٣، ص ١٧٠-

كما ذكر الشوكاني<sup>(١٧٨)</sup> رحمه الله أن: "حديث افتراق الأمم إلى بضع وسبعين مرويًا من طرق عديدة .. أما زيادة كونها في النار إلا واحدة فقد ضعفها جماعة من المحدثين بل قال ابن حزم إنها موضوعة"<sup>(١٧٩)</sup>.

والحديث - على افتراض صحة الزيادة فيه- لا ينبغي أن يُفهم بمعزل عن بقية النصوص الواردة في الموضوع. كما لا ينبغي أن يكون أداة مطواع لمن يروم تكفير المسلمين وتفريق كلمتهم وتمزيق شملهم من خلال ترويح أفهام معينة لهذا الحديث. يقول ابن تيمية رحمه الله في ذلك: "ليس كل من خالف في شيء من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكًا، فإن المنازع قد يكون مجتهدًا مخطئًا يغفر الله خطأه، وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم به عليه الحجة، وقد يكون له من الحسنات ما يحو الله به سيئاته .. وإذا كانت ألفاظ الوعيد المتناولة له، لا يجب أن يدخل فيها المتأول والتائب وذو الحسنات الماحية والمغفور له وغير ذلك، فهذا أولى، بل موجب هذا الكلام أن من اعتقد ذلك نجح في هذا الاعتقاد ومن اعتقد ضده فقد يكون ناجيًا وقد لا يكون ناجيًا كما يقال مَنْ صَمَّتْ نَجَا"<sup>(١٨٠)</sup>.

- 
١٧٢. وانظر ما ذكره الشيخ القرضاوي حول ذلك في كتابه: الصحوة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٣٦.
- (178) محمد بن علي الشوكاني ولد بصنعاء وتوفي سنة خمس وخمسين ومائتين وألف الهجرية. له كتب ومؤلفات عدة منها: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول يعز نظيره وترصيفه وحسن ترتيبه وتصنيفه، وله السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، كان تأليفه في آخر مدته، ولم يؤلف بعده شيئًا. انظر ترجمته في: القنوجي، ج ٣، ص ٢٠٣.
- (179) محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير، دار الفكر، بيروت، بدون، ج ٢، ص ٥٩.
- (180) ابن تيمية، دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، تحقيق: محمد السيد الجليلند، مؤسسة علوم القرآن،

وقد أوضح ابن تيمية<sup>(١٨١)</sup> رحمه الله أنه لا يُحكم على طائفة معينة بأنها من الفرق الضالة الاثنتين والسبعين التي ذكرها رسول الله ﷺ في الحديث وأنه لا سبيل إلى الجزم بأنها واحدة منها، لأن الجزم بأن هذه الفرقة الموصوفة هي إحدى الاثنتين والسبعين لا بد له من دليل، فإن الله حرّم القول بلا علم عموماً، وحرّم القول عليه بلا علم خصوصاً.

ويقول في ذلك: "وأما تعيين هذه الفرق فقد صنف الناس فيهم مصنفات، وذكرهم في كتب المقالات، لكن الجزم بأن هذه الفرقة الموصوفة هي إحدى الثنتين والسبعين لا بد له من دليل، فإن الله حرّم القول بلا علم عموماً، وحرّم القول عليه بلا

دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ، ج ٣، ص ١٧٩. محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي، العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكاتب العربي، بيروت، ج ١، ٢٤٧.

(181) شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن المفتي شهاب الدين عبد الحلیم ابن تيمية الحراني الحنبلي. مولده بجران سنة إحدى وستين وستمائة، هاجر والده به وبإخوته إلى الشام من جور التتر. برع في النحو وأقبل على التفسير إقبالا كلياً حتى سبق فيه وهو ابن بضع عشرة سنة، فانبهر الفضلاء من فرط ذكائه وسيلان ذهنه. وأفتى وله أقل من تسع عشرة سنة وشرع في الجمع والتأليف. ولقد نصر السنة المحضنة والطريقة السلفية واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يُسبق إليها. قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه، وبدعوه، وناظروه، وكابروه، وهو ثابت لا يدهن ولا يحايي. له مؤلفات عدة منها: منهاج السنة، والاستقامة وأمراض القلوب، والعقيدة الواسطية... وغيرها كثير جداً توفي بحلب عام ٧٤٩هـ. ترجم له كثيرون مثل: كتاب الرد الوافر على من زعم أن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر، للشيخ الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن شمس الدين أبي بكر بن ناصر الدين الشافعي الدمشقي وعليه تقرير للحافظ ابن حجر العسقلاني صاحب فتح الباري. انظر ترجمته في: الذهبي، مرجع سابق، ج ٢٢، ص ٢٩٠. ترجم له القنوجي ترجمة مطولة، ج ٣، ص ١٣ وما بعدها.

علم خصوصاً، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ  
وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ  
مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا  
خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى  
اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، وأيضاً فكثير من  
الناس يخبر عن هذه الفرق بحكم الظن والهوى فيجعل طائفته والمنسبة إلى متبوعه الموالية  
له هم أهل السنة والجماعة، ويجعل من حالفها أهل البدع، وهذا ضلال مبين.. " (١٨٢).

ويندرج تحت فقه الاختلاف، النظر إلى مقاصد هذا الاختلاف وأهدافه، والنتائج  
المتوقعة منه، ومراميه، وهو ما يطلق عليه العلماء مآلات الأفعال.

وهي قاعدة عظيمة ينبغي التنبيه إليها في الاختلاف. وقد راعتها النصوص الواردة  
في القرآن الكريم والسنة النبوية أيما مراعاة. فقد جاء في الحديث عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ  
قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْجِعْرَانَةِ مُنْصَرَفُهُ مِنْ حُنَيْنٍ وَفِي ثَوْبِ بِلَالٍ فِضَّةٌ  
وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْبِضُ مِنْهَا يُعْطِي النَّاسَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اعْدِلْ قَالَ: وَيَلْكَ وَمَنْ  
يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ لَقَدْ خَبِتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ  
الْخَطَّابِ ﷺ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَقْتُلْ هَذَا الْمُنَافِقَ، فَقَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ  
النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي، إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ،  
يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ" (١٨٣). وحديث عائشة رضي الله عنها

(182) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٤٦.

(183) رواه مسلم، باب الزكاة، ذكر الخوراج وصفاتهم.

قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَا عَائِشَةُ لَوْلَا قَوْمُكَ حَدِيثُ عَهْدِهِمْ بِكُفْرٍ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ، وَبَابٌ يَخْرُجُونَ» (١٨٤).

فالعامل يكون في الأصل مشروعاً، لكن ينهى عنه لما يؤول إليه من المفسدة، أو ممنوعاً، لكن، يترك النهي عنه لما في ذلك من المصلحة، وكذلك الأدلة الدالة على سد الذرائع كلها فإن غالبها تدرع بفعل جائز إلى جائز (١٨٥).

ويترتب على هذا الضابط ألا يذكر للمبتدئ من العلم ما هو حظ المنتهى. وقد فرض العلماء مسائل مما لا يجوز الفتيا بها وإن كانت صحيحة في نظر الفقه، كما ذكر عز الدين بن عبد السلام (١٨٦) في مسألة الدور في الطلاق، لما يؤدي إليه من رفع حكم الطلاق بإطلاق وهو مفسدة. ومن ذلك سؤال العوام عن علل مسائل الفقه، وحكم التشريعات، وإن كان لها علل صحيحة وحكم مستقيمة، ولذلك أنكرت عائشة على من قالت لِمَ تقضي الحائض الصوم ولا تقضي الصلاة وقالت لها أحرورية أنت؟. وقد ضرب عمر بن الخطاب صبيغاً وشرّد به لما كان كثير السؤال عن أشياء من علوم القرآن لا يتعلق بها عمل، وربما أوقع خيالاً وفتنة، وإن كان صحيحاً. مما يدل على أنه ليس كل علم يبيث وينشر، وإن كان حقاً، وقد أخبر مالك عن نفسه أن عنده

(184) رواه البخاري، باب العلم، من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصرفهم بعض الناس عنه.

(185) الشاطبي، ج ٤، ص ١٩٧-١٩٨.

(186) الشيخ عز الدين عبد العزيز عبد السلام الدمشقي السلمي كان شيخاً للإسلام عالماً ورعاً زاهداً، قرأ الفقه على ابن عساكر، والأصول على الشيخ الأمدي، وولي خطابة دمشق. مات في عاشر جمادى الأولى سنة ستين وستمائة. انظر ترجمته في: أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، طبقات الفقهاء، تحقيق: خليل الميس، دار القلم، بيروت، بدون تاريخ، ج ١، ص ٢٦٧.



أحاديث وعلماء ما تكلم فيها، ولا حدث بها، وكان يكره الكلام فيما ليس تحته عمل، وأخبر عن تقدمه أنهم كانوا يكرهون ذلك.

والضابط في ذلك كله كما نبّه الشاطبي أن يقوم المجتهد بعرض المسألة على الشريعة: فإن صحت في ميزانها، فعليه الانتقال إلى النظر إلى مآلها، وما يترتب عليها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله (بمعنى الواقع المعاش)، فإن لم يؤدّ ذكرها إلى مفسدة، فلإنسان التحدث فيها وفق تلك الضوابط. وإن لم يكن لها هذا المساغ فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية<sup>(١٨٧)</sup>.

وتأسيساً على هذا ينبغي تجنب الخوض في المسائل التي لا يبنى عليها عمل. يقول الشاطبي رحمه الله في ذلك: "كل مسألة لا يبنى عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي، وأعني ومعناه عمل القلب وعمل الجوارح من حيث هو مطلوب شرعاً، والدليل على ذلك استقراء الشريعة، فإننا رأينا الشارع يعرض عما لا يفيد عملاً مكلفاً به"<sup>(١٨٨)</sup>.

وكثير من الأمور التي يقع الخلاف فيها بين المسلمين، تكون من هذا الباب.

ومن فقه الاختلاف: عدم اتباع المشابهات التي نبّه عليها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ

(187) الشاطبي، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٩٠-١٩١.

(188) الموافقات، ج ١، ص ٤٦.

وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨٩﴾.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسولُ الله ﷺ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ أُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ فقال: يَا عَائِشَةُ إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيهِ فَهُمْ الَّذِينَ عَنَاهُمُ اللَّهُ، فَاحْذَرُوهُمْ، فهم الذين عناهم الله فاحذروهم (١٩٠).

والمراد من يأخذ المتشابهات التي تحتمل أكثر من فهم، وتحتمل أكثر من تفسير، فيتمسك بها ويترك النصوص المحكمة القاطعة، وهذه من أهم أسباب الشذوذ عن الجماعة والخروج على الجماعة، أن يتبع الإنسان المتشابهات ويترك المحكمات والقاطعات.

يتضح مما سبق مدى الحاجة إلى فقه الاختلاف الذي بات يعد في العصر الراهن من الضروريات. حيث أن غالب ما يقع بين المسلمين من فرقة ونزاع، يعود في جذوره إلى الخلل العميق الواقع في فهم هذا النوع من الفقه وتطبيقه.

فعلى الرغم من كثرة المصنفات التي تطرقت إلى الاختلاف ومسائله، فإن القليل القليل منها الذي قدّم تأصيلاً له، وبلور تصوراً شاملاً للموقف منه، إذ اكتفت معظم المصنفات بذكر أسباب الاختلاف، وسرد مسائله، وبعض آدابه، دون تنظير فلسفي وتأصيل فقهي له (١٩١).

(189) سورة آل عمران: ٧.

(190) سنن ابن ماجه، المقدمة، اجتناب البدع والجدل، حديث ٤٦.

(191) أحمد التويجري، فقه الاختلاف والمستقبل الإسلامي، ص ٣.

## الفصل الثاني

### أساس التعايش السلمي

من أهم الأسس التي ينبني عليها الحوار مع المخالف مطلقاً: ضرورة التعايش السلمي بين أصحاب الديانات المختلفة بوجه عام، وبين المسلمين بوجه خاص. فقد أوجد الإسلام وضعاً من التعايش السلمي المبني على الوفاق، والوثام، والتسامح في التعامل مع المخالف في ظل المجتمع الواحد.

#### أولاً: تأكيد روح التعايش السلمي بين البشر:

واعتبر الإسلام البشرية أسرة واحدة، تشترك في العبودية لله، والبنوة لآدم، وهذا ما أعلنه رسول الإسلام أمام الجموع الحاشدة في حجة الوداع: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى...) (١٩٢).

ثم إن الإسلام قد حدد العلاقة مع غير المسلمين في آيتين محكمتين من كتاب الله، تعتبران بمثابة الدستور في ذلك، يقول تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تُوَلُّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٩٣).

(192) مسند أحمد، رقم ٢٢٩٧٨، طبعة دار إحياء التراث العربي.

(193) سورة المتحنة: ٨-٩.

وشهادة التاريخ الإسلامي بهذا التسامح والتعايش أكبر من أن يحاط بها في هذا السياق، فالإسلام هو أول دين على الإطلاق اشتمل في منظومته على موقف واضح صريح من المخالف يقوم على الاعتراف به وبوجوده، وإمكانية التعامل معه وفق ضوابط وحدود معينة، كما سيأتي ذكره. الأمر الذي حدا بمفكري الغرب أنفسهم إلى الإشادة بهذا النهج الفذّ مما لمسوا من سماحة مبادئ الإسلام وقيمِهِ في المساواة والعدالة وعدم غمط الآخرين.

يقول "أليكسي جورافسكي" (١٩٤) في ذلك: "قابلتْ- أي المسيحية الشرقية- الدين الجديد الإسلام دون أي مقاومة، بل وبالترحاب في كثير من المناطق، ومردّد ذلك الموقف إلى عدة عوامل:

أولاً: تسامح الإسلام إزاء القضايا المتعلقة بإقامة طقوس العبادة المسيحية، بشرط التعاون السياسي.

ثانياً: بسبب أن المسلمين الفاتحين حموا المسيحيين من تعديت واعتداءات ملاحقات أمبراطورية بيزنطة غير المتسامحة مطلقاً في ما يخص التيارات المونوفيزية والنسطورية.. " (١٩٥).

---

(194) أليكسي فاسيلفيتش جورافسكي متخصص في تاريخ العلاقات الحضارية بين الشعوب والقارات والثقافات، يعمل في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية. أصدر عدة دراسات في قضايا العلاقات الحضارية بين الأديان والشعوب، ولا سيما بين ثقافتَي الغرب والشرق. انظر ترجمته في خاتمة كتابه الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم، ترجمة: خلف الجراد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر ١٩٩٦م.

(195) أليكسي جورافسكي، المرجع السابق، ص ١٧٧-١٧٨.

فالمسيحيون واليهود، وغيرهم ممن لاقوا قَبْلَ الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها، سمح لهم جميعاً دون أي عائق أن يمارسوا شعائر دينهم، وهذا منتهى التسامح. وفي ذلك كتب بطريك بيت المقدس في القرن التاسع لأخيه بطريك القسطنطينية عن المسلمين أنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة، وهم لا يستخدمون معنا أي عنف<sup>(١٩٦)</sup>.

وروح التسامح في الإسلام مبدأ أصيل، ينبثق من مبادئه التي تلغي التعسف والتسلط على المخالفين، وتمحو آثار الإحنة على طبقة، أو جنس، وتكرّس إشاعة الود والتراحم بين بني البشر لتنقية جوّ المجتمع من الشحناء والتناحر العنصري البغيض.

والتسامح في الإسلام يعني أن يكون لكل فرد في الأمة حق في أن يعتقد ما يراه حقاً، وأن تكون له الحرية في ممارسة شعائر دينه الذي اختاره كما يشاء، وأن يكون أهل الأديان المختلفة أمام قوانين الدولة سواء<sup>(١٩٧)</sup>.

وروح التسامح أساس يظهر في حسن المعاشرة، ولطف المعاملة، ورعاية الجوار، وسعة المشاعر الإنسانية من البرّ والرحمة والإحسان، وهي أمور لا تستقيم الحياة الإنسانية بدونها، خاصة في المجتمع الواحد والأمة الواحدة. وقد مدت تلك الأسس جذورها عمقا في التاريخ الإسلامي وخاصة في العهد النبوي والخلافة الراشدة.

---

(196) بتصرف يسير عن: "زيغريد هونكه"، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون، كمال دسوقي، دار صادر، بيروت، الطبعة العاشرة، ٢٠٠٢م، ص ٣٦٤.

(197) علي حسن الخربوطلي، الإسلام وأهل الذمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، الكتاب التاسع والأربعون، ١٩٦٩م، ص ٩٥.

وحددت تعاليم الإسلام مبادئ لهذا التعايش وخطوطاً عريضة تتمثل في:

أولاً: تقرير استقلال الإنسان في عقيدته وشخصيته ومعيشته، مع توجيه الاهتمام إلى جوهر الإنسان وذاته من روح وعقل وفضيلة.

ثانياً: حق المساواة في الإنسانية حيث كانت المجتمعات البشرية قبل الإسلام تعيش على الفوارق الطبقية، والعصبية للشرف، والعرق، والمفاضلة بين الغني والفقير. فاهتم الإسلام بالقضاء على النظام الطبقي والاستعلاء على المنافسات الشعبوية.

فإنسانية الإنسان وآدميته أمر مقرر في الشريعة الإسلامية... والإنسان أعلى المخلوقات مرتبة، كرّمه الله الخالق لآدميته، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾<sup>(١٩٨)</sup>. فالنفس الإنسانية مقدره لذاتها، معظمة لآدميتها، بصرف النظر عن انتمائها الديني أو العرقي أو الجنسي أو اللوني.

ثالثاً: حرية الفكر والعقيدة، بحيث تحول تلك الحرية دون تسلط فرد أو جماعة، فأطلق الإسلام للفكر العنان، ليبحت ويتدبر، ثم ألقى المسؤولية على عاتقه في اختيار معتقده، وليس لأحد أن يحمّله على ترك معتقده<sup>(١٩٩)</sup>. ومن ذلك ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَيَّ الْيَمَنَ: (إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا

(198) سورة الإسراء: ٧٠.

(199) السيد أحمد المخزنجي، العدل والتسامح الإسلامي، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، السنة السادسة، العدد ٦٧، شوال ١٤٠٧هـ / يونيو ١٩٨٧م، ص ٢٤-٢٥.

أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ، فَتَرُدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَأَتَقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ" (٢٠٠).

وكان أكثرهم على دين اليهودية، ثم إنهم دخلوا الإسلام طواعية من غير إكراه. ومثلهم كثير، منهم من أسلم من يهود المدينة، وهم كثيرون غير عبد الله بن سلام، ذكرتهم كتب السير والمغازي، وتحملوا معاداة الأهل والأقارب مع ضعف شوكة المسلمين آنذاك (٢٠١).

ولم تشهد السيرة النبوية حادثة واحدة وقع فيها إكراه أحد على ترك دينه، أو معتقده، وحمله على اعتناق الإسلام. يقول ابن القيم رحمه الله في ذلك: "لما بعث الله رسوله ﷺ استجاب له ولخلفائه بعده أكثر الأديان طوعا واختيارا. ولم يُكره أحدا قط على الدين وإنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله، وأما من سالمه وهادنه، فلم يقاتله، ولم يكرهه على الدخول في دينه امتثالاً لأمر ربه سبحانه حيث يقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ ذوهذا نفي في معنى النهي، أي: لا تكرهوا أحدا على الدين. نزلت هذه الآية في رجال من الصحابة كان لهم أولاد قد تمودوا وتنصروا قبل

(200) رواه البخاري، المغازي، رقم ٤٠٠٠.

(201) من هؤلاء على سبيل المثال: زيد بن سحنة، وأسد بن سعية القرظي، وثعلبة بن سعية، وأسد بن عبيد.. انظر في ذلك: ابن القيم، هداية الخياري، مرجع سابق، ص ٧٣.

الإسلام، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء، وأرادوا إكراه الأولاد على الدين، فنهاهم الله سبحانه عن ذلك، حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام، والصحيح أن الآية على عمومها: في حق كل كافر، وهذا ظاهر<sup>(٢٠٢)</sup>.

وقد جاءت هذه القصة في كتب الحديث، عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَتْ الْمَرْأَةُ تَكُونُ مَقْلَاتًا (أي: لا يعيش لها ولد) فَتَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا إِنْ عَاشَ لَهَا وَوَلَدٌ أَنْ تُهُودَهُ فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ كَانَ فِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ فَقَالُوا: لَا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْآيَةَ<sup>(٢٠٣)</sup>.

ففي هذه الواقعة تتجلى القاعدة والأساس الأصيل في مبادئ الإسلام، القائم على عدم إكراه أحد على ترك دينه، حتى وإن كان في الأصل يمت بصلة بنوة لمسلم.

رابعاً: الاعتقاد بأن اختلاف البشر في عقائدهم، واقع بمشيئة الله تعالى، المرتبطة بحكمته. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾<sup>(٢٠٤)</sup>.

خامساً: أن الله عز وجل يتولى حسابهم على اختيارهم يوم القيامة، ويفصل بينهم في هذا الاختلاف. كما قال تعالى لرسوله: ﴿فَلذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا

(202) ابن قيم الجوزية، هداية الحيارى، مرجع سابق، ص ٧٢.

(203) رواه أبو داود، سنن أبي داود، الجهاد، حديث رقم ٢٣٠٧.

(204) سورة هود: ١١٨.



وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ  
الْمَصِيرُ ﴿٢٠٥﴾.

سادساً: اعتقاد المسلم بكرامة الإنسان، من حيث هو إنسان. عَنْ ابْنِ أَبِي لَيْلَى أَنَّ  
قَيْسَ بْنَ سَعْدٍ وَسَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ كَانَا بِالْقَادِسِيَّةِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا جَنَازَةٌ، فَقَامَا، فَقِيلَ  
لَهُمَا: إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَقَالَا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ فَقَامَ،  
فَقِيلَ: إِنَّهُ يَهُودِيٌّ فَقَالَ: (أَلَيْسَتْ نَفْسًا) (٢٠٦).

سابعاً: إيمان المسلم بأن عدل الله لجميع عباد الله: مسلمين وغير مسلمين، وهو أمر  
رباني، لا ينبغي للمسلم إسقاطه أو إغفاله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا  
كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا  
هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٠٧).

وعلى هذا كان الوفاء بالعهود والاتفاقيات والمعاهدات المبرمة بين المسلمين  
ومخالفهم، أمراً ربانياً، ينبغي تنفيذه مهما كانت سجايا المخالف، ومهما عُرف عنه  
من عدم الوفاء والإنصاف. وجاءت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية في سياق  
النعي على الناقضين عهودهم مع الناس.

ففي الحديث المتفق على صحته: "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ

(205) سورة الشورى: ١٥.

(206) رواه البخاري، باب الجنائز، من قام لجنزة يهودي، رقم ١٢٢٩. ورواه مسلم، باب الجنائز، القيام

للجنزة، رقم ١٥٩٦. وسنن النسائي، الجنائز، رقم ١٨٩٥.

(207) سورة المائدة: ٨.

ﷺ: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ، حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبًا، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) (٢٠٨).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ، وَلَمْ يُوفِهِ أَجْرَهُ) (٢٠٩).

ولم تتغير تلك المواقف والمبادئ الأصلية إزاء المخالف مطلقا، فهي تشكل منظومة قِيَمِيَّة لا يمكن تغييرها إلا ما كان من موقف المخالف ذاته، بإظهار العداء ونقض العهود والمواثيق.

وقد حرص النبي ﷺ على تحقيق تلك المبادئ، فكان من أوائل أعماله عليه الصلاة والسلام حين قدم المدينة، كتابة صحيفة المدينة -على ما أشارت إليه الدراسة سابقا-

وكان اليهود فيها ثلاث طوائف حول المدينة: بني قينقاع وبني النضير، وبني قريظة. ولم يتغير موقفه منهم مطلقا إلا عندما بادروه بالخصومة والغدر ونقض العهد الذي بينهم وبينه. فحاربتهم بنو قينقاع بعد ذلك بعد بدر، وأظهروا البغي والحسد، فسار إليهم وحاصرهم خمس عشرة ليلة وهم أول مَنْ حارب من اليهود. وتحصنوا في حصونهم فحاصرهم أشد الحصار وأخرجهم من المدينة.

(208) رواه مسلم، باب الإيمان، رقم ٨٨.

(209) رواه البخاري، باب الإحارة، رقم ٢١٠٩. رواه ابن ماجه، سنن ابن ماجه، الأحكام، رقم ٢٤٣٣.

وكذا الأمر بالنسبة ليهود بني النضير، فقد نقضوا العهد، وأرادوا قتله عليه الصلاة والسلام لأنه أتاهم مع بعض أصحابه في ديارهم، يستعينهم في دية العامرين، فنزل الوحي بذلك وأطلع على ما هموا به من سوء، ونَحَى اللهُ نبيه ﷺ من كيدهم. ونزلت الآيات فيهم: ﴿فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢١٠).

وعلى الرغم من خيانتهم الواضحة وخروجهم السافر على قيم الوفاء واحترام العلاقات الإنسانية، إلا أن الآية القرآنية حضت النبي عليه الصلاة والسلام بالبقاء أتمودجا للفضائل الإنسانية، المتمثلة في العفو والصفح. يقول الطبري في تفسيرها: "وهذا أمر من الله عز ذكره نبيه محمدا ﷺ بالعفو عن هؤلاء اليهود الذين هموا أن يسطوا أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل، واصفح عن جرمهم بترك التعرض لمكروهم، فالله يحب من أحسن إليه...".

وعليه فقد وضع النص القرآني والسلوك النبوي من خلال هذه الواقعة تشريعا في التعامل مع المخالفين حتى وإن بدرت منهم أقسى الإساءات؛ ليؤكد أصالة التسامح والإحسان في المعاملة في التشريع الإسلامي.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ يَهُودِيَّةً أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ فَأَكَلَ مِنْهَا، فَجِيءَ بِهَا فِقِيلٌ: أَلَا نَقْتُلُهَا؟ قَالَ: لَا. فَمَا زِلْتُ أُعْرِفُهَا فِي لَهَوَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (٢١١).

(210) سورة المائدة، الآية ١٣.

(211) رواه البخاري، قبول الهدية من المشركين، حديث رقم ٢٤٢٤. وانظر حول ذلك: أبو محمد عبد الله

=

وقد أرشد الله سبحانه نبيه ﷺ، والمؤمنين به، إلى ما يجب أن يكون من أخلاقهم في إقامة العهد والعدل المطلق الذي يتساوى أمامه الناس جميعاً، فجعل المحافظة على العهد واجبة الرعاية، ما دام المعاهدون مهما كان أمرهم، محافظين عليه. فإن أظهروا نقضه وجب على أهل الإيمان أن يعالونهم، بنذ عهدهم إليهم، وأنهم لم يعودوا سلماً لهم، بل هم حرب عليهم، فليرتادوا لأنفسهم، وليستعدوا حتى يتساووا معهم في العلم بفك عروة العهد، وهذا أقصى ما يمكن تصوره في مراتب العدل<sup>(٢١٢)</sup>.

وعلى هذا أنذرهم النبي عليه الصلاة والسلام أن يخرجوا من المدينة، ولكنهم أبوا ذلك، فحاصروهم حتى استسلموا، على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح. وأما قريظة فقد نقضوا العهد في غزوة الخندق واشتركوا مع المشركين ضد المسلمين، فنازل حصونهم وحصرهم خمسا وعشرين ليلة حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ ورضوا به، فحكم فيهم أن يُقتل الرجال، وتُسبى الذرية، وتقسم الأموال<sup>(٢١٣)</sup>.

وقد دونت الأحاديث والروايات في السنة النبوية حوادث الغدر والخصومة التي بادر بها اليهود بمختلف قبائلهم، فكان من الطبيعي أن يواجه ذلك الغدر بما يتلاءم

---

بن محمد الأصهباني، أخلاق النبي ﷺ وآدابه، تحقيق: صالح الونيان، دار المسلم، الرياض، ١٩٩٨م، ج ١، ص ٢٥٦.

(212) حول هذه النقطة انظر: محمد الصادق عرجون، الموسوعة في سماحة الإسلام، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ / ١٤٠٤م، ج ١، ص ٣٦٥.

(213) زاد المعاد، ج ٣، ص ١٢٤ وما بعدها.

معه. ولم يكن ذلك مطلقاً، نتيجة لضيق المسلمين بوجود مخالفين لهم في المدينة؛ فقد تعاهد اليهود مع المشركين، رغم وجود العهد الذي يوجب عليهم ألا ينصروا أحداً على المسلمين.

فَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ كَتَبُوا إِلَى ابْنِ أَبِيٍّ وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ مَعَهُ الْأَوْثَانَ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِالْمَدِينَةِ، قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ: إِنَّكُمْ آوَيْتُمْ صَاحِبَنَا، وَإِنَّا نُقَسِّمُ بِاللَّهِ لَتُقَاتِلَنَّهُ، أَوْ لَتُخْرِجَنَّهُ، أَوْ لَنَسِيرَنَّ إِلَيْكُمْ بِأَجْمَعِنَا، حَتَّى نَقْتُلَ مُقَاتِلَتَكُمْ وَنَسْتَبِيحَ نِسَاءَكُمْ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِيٍّ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ عِبْدَةِ الْأَوْثَانَ، اجْتَمَعُوا لِقِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ لَفِيهِمْ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ وَعِيدُ قُرَيْشٍ مِنْكُمْ الْمَبَالِغَ، مَا كَانَتْ تَكِيدُكُمْ بِأَكْثَرِ مِمَّا تُرِيدُونَ أَنْ تَكِيدُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ، تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا أَبْنَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ! فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، تَفَرَّقُوا فَبَلَغَ ذَلِكَ كُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَكَتَبَتْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ إِلَى الْيَهُودِ: إِنَّكُمْ أَهْلُ الْحَلَقَةِ وَالْحُصُونِ، وَإِنَّكُمْ لَتُقَاتِلَنَّ صَاحِبَنَا، أَوْ لَتَفْعَلَنَّ كَذَا وَكَذَا، وَلَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَدَمِ نِسَائِكُمْ شَيْءٌ، وَهِيَ الْخَلَاخِيلُ، فَلَمَّا بَلَغَ كِتَابَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، اجْمَعَتْ بَنُو النَّضِيرِ بِالْعَدْرِ، فَأَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اخْرُجْ إِلَيْنَا فِي ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ، وَلِيُخْرِجَ مِنَّا ثَلَاثُونَ حَبْرًا، حَتَّى نَلْتَقِيَ بِمَكَانِ الْمُنْصَفِ، فَيَسْمَعُوا مِنْكَ، فَإِنْ صَدَّقُوكَ وَآمَنُوا بِكَ آمَنَّا بِكَ، فَقَصَّ خَبْرَهُمْ، فَلَمَّا كَانَ الْعَدُ، غَدَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْكَتَائِبِ، فَحَصَرَهُمْ، فَقَالَ: لَهُمْ إِنَّكُمْ وَاللَّهِ لَا تَأْمُنُونَ عِنْدِي إِلَّا بِعَهْدِ تُعَاهِدُونِي، عَلَيْهِ فَأَبَوْا أَنْ يُعْطَوْهُ عَهْدًا، فَقَاتَلَهُمْ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ، ثُمَّ غَدَا الْعَدُ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ

بِالْكِتَابِ وَتَرَكَ بَنِي النَّضِيرِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى أَنْ يُعَاهِدُوهُ، فَعَاهِدُوهُ، فَانصَرَفَ عَنْهُمْ،  
وَعَدَا عَلَى بَنِي النَّضِيرِ بِالْكِتَابِ فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى الْجَلَاءِ، فَحَلَّتْ بُنُو  
النَّضِيرِ، وَاحْتَمَلُوا مَا أَقَلَّتْ الْإِبِلُ مِنْ أَمْتَعَتِهِمْ، وَأَبْوَابَ بُيُوتِهِمْ وَخَشَبَهَا<sup>(٢١٤)</sup>.

كما جاء في الحديث عن بني قريظة والنضير، ما ذكره ابن عمرَ أَنَّ يَهُودَ النَّضِيرِ  
وَقُرَيْظَةَ حَارَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَجَلَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَنِي النَّضِيرِ، وَأَقَرَّ قُرَيْظَةَ، وَمَنْ  
عَلَيْهِمْ، حَتَّى حَارَبَتْ قُرَيْظَةَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَتَلَ رِجَالَهُمْ وَقَسَمَ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ  
وَأَمْوَالَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، إِلَّا بَعْضَهُمْ لَحِقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَمَّنَهُمْ وَأَسْلَمُوا، وَأَجَلَى  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَهُودَ الْمَدِينَةِ كُلَّهُمْ: بَنِي قَيْنِقَاعَ، وَهُمْ قَوْمُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ،  
وَيَهُودَ بَنِي حَارِثَةَ، وَكُلَّ يَهُودِيٍّ كَانَ بِالْمَدِينَةِ<sup>(٢١٥)</sup>.

وقد أنارت معاملة المسلمين لمخالفيتهم، وحفاظهم على عهودهم ومواثيقهم  
صفحات التاريخ الإسلامي برمته. فها هو واحد من أصحاب رسول الله ﷺ بعد  
مرور أعوام على وفاة النبي عليه الصلاة والسلام يتصدى لمعاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه  
حين أراد أن يسير في أرض المسلمين بجيوش الإسلام في مدة العهد الذي كان بينه  
وبين الروم، حتى إذا انقضت المدة كان قريبا من عدوهم، فيتمكن منهم دون أن  
يكون قد نقض لهم عهدا، أو دخل لهم أرضا؛ فراه أحد الصحابة: ابن عبسة رضي الله عنه،

(214) رواه أبو داود، الخراج والإمارة والفيء، رقم ٢٦١٠.

(215) رواه البخاري، المغازي، حديث بني النضير، رقم ٣٧٢٤. ورواه مسلم، الجهاد والسير، رقم ٣٣١٢.

رواه أبو داود في السنن، باب الخراج والإمارة والفيء، رقم ٢٦١١. مسند أحمد، مسند المكثرين من

الصحابة، رقم ٦٠٧٩.

فأنكر عليه لما أدرك من الهدى النبوي من شدة الحفاظ على العهود، وعدم المساس بها، واعتبر ذلك التصرف تحايلاً على العهد المبروم مع الروم، وهو أمر حذر منه النبي ﷺ في الحديث. عن سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ رَجُلٍ مِنْ حَمِيرٍ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَبَيْنَ الرُّومِ عَهْدٌ وَكَانَ يَسِيرُ نَحْوَ بِلَادِهِمْ، حَتَّى إِذَا انْقَضَى الْعَهْدُ غَزَاهُمْ، فَجَاءَ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ، أَوْ بَرْدُونٍ، وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ! اللَّهُ أَكْبَرُ! وَفَاءٌ لَا غَدَرَ؛ فَنظَرُوا فَإِذَا عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَشُدُّ عُقْدَةَ وَلَا يَحُلُّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمْدُهَا، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سِوَاءٍ؛ فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ<sup>(216)</sup>.

وحرص النبي عليه الصلاة والسلام الشديد على الوفاء بالعهود والمواثيق، نابع من سمو قيم الوحي، المؤكدة لمبدأ التعايش السلمي، وحسن الجوار مع المخالفين في المجتمع الإسلامي، والتسامح معهم.

وبلغ مبدأ التعايش السلمي مبلغاً عظيماً إلى حدّ ترك حرية الاختيار للمخالفين في اعتقاد ما يريدون بعد تبليغ الدعوة لهم، وتأکید مبدأ عدم الإكراه على الاعتقاد، أو الدخول في الإسلام قسراً. فالإسلام، منذ لحظة ظهوره، لم تكن وسيلته إلى الدعوة القهر والإكراه، وحمل الناس بالعنف، بكل أنواعه، على اعتناقه، لأنه لم يضق ذرعاً باختلاف الناس في المعتقد.

وكان التسامح والتعايش شعاراً واقعياً، يعيشه المسلمون وغيرهم في رحاب الأمة

(216) رواه أبو داود، سنن أبي داود، باب الجهاد، رقم 2378.

الواحدة والمجتمع الواحد، امتثالاً لنصوص الوحي وأوامره.

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَذَكَرْ إِثْمًا أَنْتَ مُذَكَّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾<sup>(٢١٧)</sup>: معناه أنه تعالى ما بنى أمر الإيمان على الإجبار والقسر، وإنما بناه على التمكّن والاختيار، لأن الله تعالى لما بيّن دلائل التوحيد بيانا شافيا قاطعا للعذر وقال بعد ذلك أنه لم يبق - بعد إيضاح هذه الدلائل للكافر - عذر في الإقامة على الكفر، إلا أن يقسر على الإيمان ويجبر عليه، وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا، التي هي دار الابتلاء. إذ في القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان<sup>(٢١٨)</sup>.

ويقول ابن تيمية في ذلك: "لا تُكره أحداً على الدين، والقتال لمن حاربنا فإن أسلم عصم ماله ودمه، وإذا لم يكن من أهل القتال لا نقتله، ولا يقدر أحد قط أن ينقل أن رسول الله ﷺ أكره أحداً على الإسلام، لا ممتنعاً ولا مقدوراً عليه، ولا فائدة في إسلام مثل هذا، لكن من أسلم قبل منه ظاهر الإسلام"<sup>(٢١٩)</sup>.

كل ذلك يثبت أن حرية العقيدة كانت من أبرز ما أوجبه القرآن والسنة. بل إن الفتوحات الإسلامية ذاتها، كانت تهدف إلى تحطيم سلطات حكومات متعصبة، ووقف دون حريات شعوبها في اعتناق الدين الذي تريد، فكانت تلك الحكومات تُجبر شعوبها على اعتناق دين الملك.

(217) سورة الغاشية: ٢١-٢٢.

(218) محمد فتح الله الزياي، انتشار الإسلام، دار قتيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ٣٥.

(219) ابن تيمية، مجموعة الرسائل، رسالة القتال، ص ١٢٣.



يَبْدُ أن هذا التسامح والتعايش الذي أسسته النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، وسار عليه المسلمون على مدى التاريخ، شابه بعض السلوكيات الشاذة من قبل بعضهم في سياق تاريخي، وظروف اجتماعية، وسياسية معينة. فلا تُفهم تلك الشوائب الفكرية على أنها فكر، أصيل منبثق من تعاليم الإسلام أو قِيمِهِ.

فقد كان واقع المسلمين، على مدى قرون من الزمن، قائماً على تلك الأسس التي أرست دعائمها نصوص القرآن والسنة. إلا أن تلك الشوائب كانت من قبيل أخطاء وممارسات فردية، لا تمثل قطعياً حكم القرآن أو السنة.

وقد نشأت بعض تلك السلوكيات نتيجة ميول ودوافع شخصية، سرعان ما كان ينبّه عليها علماء الأمة كلما أطلّت برأسها. ومن ذلك ما حدث من الوالي العباسي صالح بن علي عندما أجلى قوماً من أهل الذمة من جبل لبنان لذنوب ارتكبه بعض أفرادهم، فاعترض الأوزاعي<sup>(٢٢٠)</sup>، رحمه الله، بشدة، وطالب بعودتهم إلى ديارهم، وكتب إليه يقول:

"..وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن مماثلًا لمن خرج على خروجه، ممن قتلت ورددت بعضهم ما قد علمت، فكيف تؤخذ عامةً بذنوب خاصة؟! حتى يُخرجوا من ديارهم وأموالهم، وحكم الله تعالى فيهم: ﴿أَلَا تَرَوْا زُرَّةً وَزُرَّةً أُخْرَى﴾، فإنهم ليسوا بعبيد، فتكون من تحويلهم من بلد إلى بلد في سعة، ولكنهم

(220) أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو وكان أصله من سبي السند، نزل في الأوزاع فغلب عليه ذلك، وكان فقيه أهل الشام، وكانت صنعته الكتابة، ولد سنة ٨٨هـ، له كتب في السنن والفقه والمسائل. انظر ترجمته في: الذهبي، مرجع سابق، ج٧، ص١٠٧.

أحرار أهل ذمة" (٢٢١). وهكذا فإن أحق الوصايا بأن تحفظ وصية رسول الله ﷺ حيث قال: "أَلَا مَنْ ظَلَمَ مَعَاهِدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بغيرِ طيبِ نفسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (٢٢٢).

وثمة ظروف تاريخية سياسية أخرى، ولدت ردود فعل مختلفة لدى البعض من المسلمين. الأمر الذي نجم عنه وقوع إساءات من قبل بعض المسلمين اتجاه أهل الذمة في المجتمع. فقد شهد التاريخ بعض الحوادث التي وقع فيها ظلم وتعدُّ من قبل بعض الذميين على المسلمين.

ومن تلك الوقائع التاريخية ما حدث في عهد أبي جعفر المنصور. فإنه لما حجَّ اجتمع جماعة من المسلمين إلى شبيب بن شيبة، وسألوه مخاطبة المنصور: أن يرفع عنهم المظالم، ولا يمكن النصارى من ظلمهم، وعسفهم في ضياعهم، ويمنعهم من انتهاك حرماهم. فقال مخاطبا المنصور: يا أمير المؤمنين سلّطت الذمة على المسلمين، ظلموهم، وعسفوهم، وأخذوا ضياعهم وغصبوهم أموالهم، وجاروا عليهم، واتخذوك سلما لشهواتهم، وإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً يوم القيامة، فأمر المنصور بعزلهم (٢٢٣).

وهذه الواقعة وغيرها مما حدث أثناء حكم بعض الخلفاء والأمراء، كانت بسبب

---

(221) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: محمد رضوان محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ، ص ٢٢٢، وراجع كذلك: أمين محمد القضاة، معاملة غير المسلمين في الإسلام، بحوث المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، الأردن، ص ٥٨٥.

(222) سنن أبي داود، باب الخراج والإمارة والفيء، حديث رقم ٢٦٥٤.

(223) ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف أحمد البكري، شاكر العاروري، دار رمادي للنشر، الدمام، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج ١، ص ٤٦١.

إساءة تعامل أهل الذمة أنفسهم، وما وقع منهم من ظلمٍ وتعدُّ على المسلمين في ديارهم. الأمر الذي أدى إلى نقمة الناس وغضبهم.

وقد عبّر العالم الألماني المنصف "آدم متز" عن تلك الحالة موضِّحاً استبداد بعض النصارى بقوله: "لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام" (٢٢٤).

ويُرجع المؤرخ اللبناني "جورج قرم" ظهور تلك التوترات في العالم الإسلامي آنذاك إلى عوامل ثلاثة هي:

أولاً: مزاج الخلفاء الشخصي فأخطر اضطهادين تعرض لهما الذميون، وقعا في عهد المتوكل العباسي (٢٠٦-٥٢٤٧هـ) الذي كان يميل بطبعه إلى العنف والقسوة والتعصب مع مجموع الرعية، وفي عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٧٥-٥٤١١هـ)، الذي كان مغاليا في الشدة معهم.

ثانياً: الظلم الذي كان يمارسه بعض الذميين المعتلين لمناصب إدارية عالية، فلا يعسر إدراك صلتها المباشرة بالاضطهادات التي وقعت في عدد من الأمصار الإسلامية.

ثالثاً: وهذا العامل يرتبط بفترات التدخل الأجنبي في البلدان الإسلامية، وقيام الحكام الأجانب بإغراء الأقليات الدينية غير المسلمة بالتعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة. فنهايات الحملات الصليبية قد أعقبتها، في أماكن عدة، أعمال ثأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية التي تعاونت مع الغازي. ولم يحجم الحكام الأجانب من الإنجليز والفرنسيين عن استخدام الأقليات غير المسلمة في مصر وسوريا، الأمر

(224) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، بيروت، ١٩٦٧م، ج ١، ص ١٠٥.

الذي أثار قلاقل خطيرة بين النصارى والمسلمين<sup>(٢٢٥)</sup>.

إن فهم تلك الظرفية التاريخية، والأوضاع الاجتماعية، واستحضارها قبل إصدار حكم تعسفي ضد سماحة الإسلام وقيمه إزاء المخالف، يسهم اليوم في إدراكنا لموقف بعض فقهاءنا رحمهم الله المتوجس إزاء التعامل مع الذميين عموماً. فقد عاصر هؤلاء الفقهاء تلك الحوادث وعانوا الظلم الواقع من تكبير بعض الذميين وإساءتهم للمسلمين، والمجتهد ابن بيئته وعصره.

ومن أبرز العلماء الذين عانوا تلك الأحداث، ابن القيم رحمه الله، الذي يقول واصفاً حالة تكبير واستعلاء الذميين في عصره: "وأما اليوم فقد وفقنا إلى زمان يُصدِّرون (يعني أهل الذمة) في المجالس، ويُقام لهم، وتُقبَّل أيديهم، ويتحكمون في أرزاق الجند والأموال السلطانية.."<sup>(٢٢٦)</sup>. وقد عبَّ الأستاذ صباحي الصالح محقق كتابه: "شرح الشروط العمرية" وكتاب "أحكام أهل الذمة"، للإمام ابن قيم الجوزية، رحمه الله، بقولٍ يُستقرأ من خلاله الحالة التاريخية والاجتماعية والسياسية السائدة آنذاك. تلك الحالة التي دفعت بابن القيم رحمه الله، وهو العالم الجليل المنصف، إلى التمسك ببعض السلوكيات التي لم تخل من الشدة نوعاً ما، إزاء أهل الذمة في عصره<sup>(٢٢٧)</sup>. وما ذاك إلا اجتهاداً منه رحمه الله في مراعاة مصلحة البلاد والعباد وتغيير

(225) "جورج فرم"، تعدد الأديان ونظام الحكم، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٢١١-٢٢٤.

(226) المرجع السابق، ج ٣، ص ١٣٢٣.

(227) من ذلك ما ذكره على سبيل المثال، معتمداً على الشروط العمرية، بأن أهل الذمة ممنوعون من ركوب السروج، وتكون أرجلهم إلى جانب واحد، وتكون نعالهم مخالفة لنعال المسلمين.... انظر كتاب

الأحوال والأزمنة والأمكنة، واحتياطاً للإسلام والمسلمين، ونظراً في المصلحة العامة لهم. يقول الأستاذ صبحي الصالح حول ذلك:

"ابن القيم كان يعيش في عصر كثرت فيه ضروب التحدي من أهل الذمة للمسلمين، وكان من العسير أن ينسى أهل دمشق، ولو امتد الزمان، ما فعله النصارى يوم غزا المغول مدينتهم سنة ٦٥٨هـ، فقد أراقوا الخمر على ملابس المسلمين، وعلى مساجدهم، وأرغموا أصحاب الحوانيت على الوقوف لهم، ولصلبانهم، وراحوا يهتفون: اليوم انتصر دين المسيح"<sup>(٢٢٨)</sup>. فظهر شيء من الغلو في عرض بعض المسائل المذكورة في كتبه- رحمه الله- مشبعة بروح العصر الذي عاش فيه المصنف، متأثرة بالتشدد الديني الذي كان يسوده. إلا أنها لا تغض من قيمة مؤلفاته في الموضوع بحال"<sup>(٢٢٩)</sup>.

---

شرح الشروط العمرية، مجرداً من كتاب أحكام أهل الذمة، تحقيق وتعليق: صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١م، ص ٩٠، ١٠١.

(228) هامش كتاب أحكام أهل الذمة، تحقيق: صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١م، ج ٢، ص ٧٧١.

(229) بتصرف يسير، شرح الشروط العمرية، مجرداً من كتاب أحكام أهل الذمة، المرجع السابق، المقدمة. ويرى الأستاذ صبحي الصالح أن شهرة تلك الشروط المنسوبة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تغني عن إسنادها بحال وهو ما اعتمده الإمام ابن القيم رحمه الله حيث يقول: "شهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها". راجع المقدمة. صفحة ز. وهو في كل ما ذهب إليه رحمه الله كان مجتهداً مراعيًا للحالة السائدة في عصره، فلا ينبغي أن تعزل تلك الأحكام الاجتهادية وتؤخذ على علاقتها دون النظر إلى طبيعة الظرفية التاريخية المقارنة لها، كما لا ينبغي أن تقرأ دون الإمام والوقوف أولاً وآخراً على نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية.

وواقع الأمر أن الأئمة والعلماء رحمهم الله كانوا في فتاويهم ومواقفهم مع السنة،  
لم يخالفوها في شيء، وإنما اختلفت أنظارهم في الاحتياط للإسلام والمسلمين، والنظر  
لمصلحة الأمة، وفقاً لما أداهم إليه اجتهادهم في فهم النصوص والحوادث، وكلٌّ مثاب  
مأجور بإذن الله. وتأثر العلماء والمجتهدين رحمهم الله بالأحوال السائدة في عصورهم  
والظرفية التاريخية والاجتماعية، أمر لا مندوحة عنه، إلا أنه محض اجتهاد بشري،  
محكوم عليه بالنسبية لا الإطلاق. أما نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية فهي المطلقة  
الحاكمة على جميع الاجتهادات<sup>(٢٣٠)</sup>.

ولم تكن تلك الفترات المحدودة في عمر التاريخ تياراً عاماً في التاريخ الإسلامي،  
فها هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يسعى في إطلاق سراح أسرى المسلمين من  
التتار، ويصرّ كذلك على إطلاق سراح المأسورين من أهل الذمة، قائلاً لمسؤول التتر:  
"بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا، فإننا نفكّهم، ولا ندعُ  
أسيراً، لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة"<sup>(٢٣١)</sup>.

وتأسيساً على هذا كله، لم تنطبع فتاوى العلماء وأحكامهم في أي حال من  
الأحوال بالعدوانية، أو الملاحقة، فروح التواصل ومبدأ الانفتاح بقي قائماً بسبب  
المكون العقدي الذي غالب كل الظروف<sup>(٢٣٢)</sup>.

(230) في تفاصيل تلك النقطة انظر: رقية طه العلواني، أثر العرف في فهم النصوص، دار الفكر، دمشق،  
٢٠٠٣م. ص ١٠. والكتاب برمته يبين مدى تأثير الأعراف على الأحكام الفقهية.

(231) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج ٢٨، ص ٦١٨.

(232) أحمدية النيفر، المعيار والهوية والحوار قراءة في التحجيرة التاريخية للغرب الإسلامي، مجلة آفاق الثقافة

=

وتبقى أحكام الإسلام وقيمه ومبادئه تُؤخذ من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية بقطع النظر عن طبيعة الظرفية التاريخية التي تمرّ بها المجتمعات المختلفة التي تظهر وتبرز فيها بعض التأويلات والآراء الفقهية، التي تمثل في نهاية الأمر جهداً بشرياً، يحاول التوصل إلى فهم النص، وإمكانية الصواب والخطأ فيه واردة مشروعاً.

كما أن سلف الأمة من الصحابة ومن تبعهم بإحسان هم أهدي هذه الأمة سبيلاً، وأصحها أفهاماً، وأقومها طريقاً، وأفقهها لروح الإسلام، وأحرصها على اتباعه. فلا يُعدل إلى أقوال غيرهم أو من بعدهم، فهم بشهادة رسول الله ﷺ خير القرون. كل ذلك ينبغي أن يتناول في كليته على أساس أن الإسلام رسالة جامعة، لها مقاصدها البعيدة السامية، ولها اعتباراتها للأوضاع البشرية التاريخية.

والتاريخ الإسلامي لا يخرج عن اجتهادات بشرية في تنزيل القيم على الواقع، وفي تحويلها إلى سلوك واقعي، فلا تعتبر تلك الفترات التاريخية، أو غيرها، أنها الدين، أو أنها تمثيل مطلق لقيمه ومبادئه. فالتاريخ وعاء الحياة الإسلامية العملية، واستجابتها وتفاعلها مع تلك القيم الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية.

وتبقى قراءتنا للتاريخ اليوم مدلفاً لأخذ العبرة والدرس والتعلم من السلبيات والإصابات، لمعرفة ما يمكن تجنبه، وما ينبغي الوقوف عنده، فقد تقترب من الصواب، وحيناً تخالفه وهكذا. فالظروف التي دفعت ببعض المسلمين إلى تغير معاملتهم لأهل الكتاب في ظل مُتغيّرات معينة، وأحداث تاريخية محددة، لا ينبغي أن تبقى حاكمة

والتراث، العدد الرابع عشر، دبي، الإمارات العربية المتحدة، سبتمبر ١٩٩٦م، ص ٦٥.

## على تاريخ أمة يمتد عمرها إلى قرون.

وفي عصرنا الحاضر، يضاف إلى هذا كله، انتشار بعض المقولات التي اعتبرها البعض على أنها وحي، ينبغي الاستدلال به والوقوف عنده، وليس الأمر كذلك. فقد شاع لدى البعض الاستدلال بقول: "بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده".

والحديث - كما يرى العلماء - لا يصح سنداً ومتناً، بل ويخالف صريح القرآن، الذي لم يذكر في آية واحدة أن الرسول ﷺ بعث بالسيف. بل أكد في آيات عديدة أنه بعث بالهدى ودين الحق والرحمة للعالمين وللمؤمنين. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢٣٣)، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ (٢٣٤)، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢٣٥) ونحو ذلك كثير في القرآن.

فالإسلام، كما تقدم، لا يُشهر السيف إلا في وجه من صدّ عن سبيله، وقاومه بالقوة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٢٣٦).

وعلى هذا تراكمت عوامل عدة في الإساءة إلى صورة التسامح الإسلامي الناصعة، الأمر الذي ظهر في كتابات بعض المؤلفين الغربيين ممن وصموا الإسلام بأنه

(233) سورة الأنبياء: ١٠٧.

(234) سورة النحل: ٨٩.

(235) سورة التوبة، ١٢٨.

(236) سورة البقرة: ١٩٠.



دين التعصب وعدم التعايش والتسامح، وهو قول مردود على ألسنة المنصفين من كتاب الغرب وعلمائهم. يقول المؤرخ "سميث" في كتابه: "الإسلام في التاريخ الحديث":

"من الآراء غير الصحيحة التي نصادفها بين حين وآخر: الرأي الذي مؤداه أن الإسلام دين التعصب، وعدم التسامح، وهما سمتان متلازمتان أبدا له. واعتراضنا على مثل هذه الدعوى أن التعصب يمكن أن يبرز في مرحلة تاريخية معينة وفي أي دين، بل ليس في الأديان فقط وإنما في النظريات والعقائد والحركات السياسية والاجتماعية المختلفة. وفي الوضع الذي ناقشه (حالة الإسلام) فإن متابعة النواحي التاريخية والاجتماعية والعقائدية (القرآن والسنة) للإسلام، لا تبيح لأي باحث ومراقب موضوعي الحديث عن التعصب الإسلامي. قد نجد بعض المسببات والدوافع النفسية والحالات الاجتماعية الطارئة بين الحين والآخر، أو في بلد ما، ولكن ذلك لا يعطي الحق في التعميم إطلاقاً"<sup>(٢٣٧)</sup>.

كما ظهر ذلك الفهم الضيق في ممارسات بعض المسلمين في العصر الراهن، الذين ينظرون إلى بعض الآراء الفقهية على أنها تمثل الدين كله؛ فيسقطون النظر إلى عشرات النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، ويقرأون ذلك كله من خلال رأي فقهي لواحد من العلماء رحمهم الله أو اجتهاد شخصي محكوم بأمر متعدد، فيقعون في فخ القراءة العيين التي حذر منها القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾<sup>(٢٣٨)</sup>.

(237) W. C. Smith. Islam in Modern History, (London, 1963), p.98.

(238) سورة الحجر، ٩١.

وعلى الباحث المسلم اليوم، وفي كل عصر، قراءة التاريخ بنظرة عميقة وفهم ثاقب، للخروج من ذلك بالعر، وتجنب مواطن الزلل والخطأ فيه. فلا يلجأ إلى تغليب معاني بعض النصوص على نصوص أخرى، لأنها لا تتناسب مع ما يروم الوصول إليه من أحكام مسبقة جاهزة، فهو مدلف ومزلق خطير، كما لا ينبغي الاستشهاد ببعض الآيات ونزعها من سياقها وقراءتها مجتزأة، ليبرر سلوك العنف والقوة إزاء من لا يريد.

وتبقى نصوص القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة الواردة في السنة النبوية هي الحاكمة على الآراء البشرية النسبية المحكومة بظرفية الزمان والمكان واختلاف العادات والأعراف والأحوال.

وقد ثبت أن النبي عليه الصلاة والسلام جعل التسامح والتعايش سلوكاً وفعلاً في حياته. وهذا هو النهج الذي ينبغي الرجوع إليه، وفقهه كلما جنحت السبل، أو زاغت الأفكار والتصورات.

فقد كان عليه الصلاة والسلام يزور مرضى غير المسلمين، ويكرمهم، ويحسن إليهم، ويأخذ منهم ويعطيهم. وروى ابن حجر العسقلاني عن سعيد بن المسيب<sup>(٢٣٩)</sup> أن النبي ﷺ تصدق على أهل بيت من اليهود فهي تجري عليهم<sup>(٢٤٠)</sup>.

(239) أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن القرشي المدني أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. توفي عام ٥٩٤هـ. انظر ترجمته: أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، مرجع سابق، ص ٢٥.

(240) ابن حجر العسقلاني، الدراية في تحريج أحاديث الهداية، تحقيق: السيد عبد الله هاشم، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ج ١، ص ٢٦٦. وقال عنه: مراسيل يشد بعضها بعضاً. وانظره كذلك في: محمد بن عبد الواحد السيواسي، شرح فتح القدير، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، بدون، ج ٢، ص ٢٦٧.

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قَالَ كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَمَرَضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمَ. فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ، وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَطْعَ أَبَا الْقَاسِمِ صلى الله عليه وسلم، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ (٢٤١).

وعلى هذا استدل بهذا الحديث بعض الفقهاء فقالوا: عيادة الكافر فعل حسن (٢٤٢)، وذهبوا إلى جواز ذلك (٢٤٣).

وَعَبَدَ اللَّهُ بَنَ عَمْرٍو: ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ فِي أَهْلِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: أَهْدَيْتُمْ لِحَارِنَا الْيَهُودِيَّ؟ أَهْدَيْتُمْ لِحَارِنَا الْيَهُودِيَّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْحَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُنِي) (٢٤٤).

فهذا النوع من التعامل يحمل في طياته أسمى معاني التعايش والتسامح، الذي تؤكده حسن المعاشرة، واللطف في المعاملة، ورعاية الجوار، وسعة المشاعر الإنسانية،

(241) رواه البخاري. الجنائز، حديث رقم ١٢٦٨. محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧م، ج ١، ص ٤٤٥.

(242) ابن حزم، المحلى، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ج ٥، ص ١٧٣.

(243) انظر أحمد بن محمد الطحاوي، حاشية الطحاوي على مراقي الفلاح، مكتبة البابي الحلبي، الطبعة الثالثة،

مصر، ١٣١٨هـ، ج ١، ص ٣٦٧. محمد الخطيب الشربيني، معني المحتاج، دار الفكر، بيروت، بدون، ج ١،

ص ٣٣٠. أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي، المبدع، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٠هـ،

ج ١٣، ص ٤١٩. وانظر: عبد الله بن قدامة المقدسي، الكافي في فقه ابن حنبل، تحقيق: زهير الشاويش،

المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج ١، ص ٢٧٣.

(244) سنن الترمذي. وقال عنه حديث حسن غريب. البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ١٨٦٦.

والبر، والرحمة والإحسان التي حظي بها أهل الذمة في كنف الرعاية النبوية السامقة<sup>(٢٤٥)</sup>.

وعلى هذا فالتسامح والتعايش مع المخالف لا يكون عبر شعارات نظيرية، بل ينبغي أن يتحول إلى سلوكيات تطبيقية في الحياة الواقعية، كما كان عليه الحال في عهد النبي عليه الصلاة والسلام. فمن خلال تلك المجالات المنفتحة، والسلوكيات الراقية المهذبة، ينمو الحوار السلوكي والقولي ليخرج المخالف، والشخص ذاته من القوقعة الاجتماعية التي يجيهاها مع الآخرين. وهذا الأسلوب تعبير حضاري راسخ عن إمكانية الإنسان في مدّ جسوره مع الآخرين، وتعاونه معهم في إطار يُظهر انفتاحية المسلم، ووعيه، وسعة أفقه، وبعده نظره. فكلما زاد تعاونه مع الغير، ارتفع حسه الإنساني وتعاضمت طاقاته الذاتية وتسامت قيمه الأخلاقية، وأصبح أكثر قدرة على العطاء البناء.

وقد قدّم النبي عليه الصلاة والسلام من خلال مواقف - يضيق المقام بذكر جميعها أو سرد معظمها- تطبيقاً لهذا النهج، ونموذجاً سلوكياً لتحفيز الروح الجماعية بين المسلمين ومن خالفهم في المجتمع الواحد في التعاون على الخير والبر، والتي تعد من أهم مقومات التعايش السلمي بين الناس، على اختلاف نماذجهم وعقائدهم، ومن أنجح وسائله كذلك.

فالتعاون مع كل من يريد تحقيق أمر هو خيرٌ بمقياس الدين، بغض النظر عن كونه

---

(245) للمزيد راجع: يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، مكتبة وهبة، مصر، ١٩٧٧م،

ص ٤٧ وما بعدها.

مسلماً أو غير مسلم، برأ أو فاجراً، منافقاً أو صادقاً، حاكماً أو محكوماً. وقد عبر عن هذا المبدأ الإمام ابن القيم بما لا مزيد عليه، قال رحمه الله في بيانه للفوائد الفقهية المستفادة من صلح الحديبية، في كتابه زاد المعاد: "ومنها أن المشركين وأهل البدع والفجور والبغاة والظلمة إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمةً من حرم الله تعالى أجيبوا إليه، وأعطوه، وإن منعوا غيره، فيعانون على ما فيه تعظيم حرمان الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم، ويمنعون مما سوى ذلك، فكل من التمس على محبوبٍ لله تعالى، مرضٍ له، أجيب إلى ذلك كائناً من كان، ما لم يترتب على ذلك المحبوب مبعوض الله أعظم منه، وهذا من أدق المواضع وأصعبها، وأشقها على النفوس، ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق" (٢٤٦).

ومن ذلك ما ذكرته كتب التاريخ أيضاً من حلف الفضول الذي شارك فيه النبي عليه الصلاة والسلام. فقد تحالفت قريش على أن لا يدعوا بمكة كلها ولا في الأحابيش مظلوما يدعوهم إلى نصرته إلا أنجدوه حتى يردوا إليه مظلمته، أو يبلغوا في ذلك عذرا، وعلى أن لا يتركوا لأحد عند أحد فضلاً إلا أخذوه وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢٤٧).

وقد أشار إلى ذلك بعد قدومه المدينة بسنوات، فعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: شهدت حلف المطيبين من عمومي، وأنا غلام، فما أحب أن لي

(246) ابن القيم، زاد المعاد، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٠٣.

(247) محمد بن إسحاق الفاكهي، أخبار مكة في قدم الدهر وحديثه، تحقيق: عبد الملك دهيش، دار خضر، بيروت، ط. ٢، ١٤١٤هـ، ج ٥، ص ١٩٢.

حمر النعم وأبي أنكته. وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ: (أَوْفُوا بِحَلْفِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُهُ يَعْنِي الْإِسْلَامَ إِلَّا شِدَّةً، وَلَا تُحَدِّثُوا حَلْفًا فِي الْإِسْلَامِ) (٢٤٨).

فالمعاملات والعهود التي يراد بها تحقيق العدل الاجتماعي بين الناس، وتستهدف الخير والمعروف والإنصاف، قِيمٌ ينبغي التعاون فيها. وعلى هذا أكدها النبي ﷺ في المجتمع وحض عليها.

والنبي عليه الصلاة والسلام بذلك النهج، استأصل جذور كل التوجهات التعصبية ليقضي المجتمع والدولة الإسلامية من مخاطر التعصب الناجم في كثير من الأحيان عن الحواجز النفسية بين الناس. تلك الحواجز المانعة من التعايش المقوّضة للتعارف الإنساني.

يقول "آدم متز" واصفا حالة التعايش السلمي بين المسلمين ومخالفهم في العقيدة: "كان وجود النصراني بين المسلمين سببا لظهور مبادئ التسامح التي ينادي بها المصلحون المحدثون، وكان الحاجة إلى المعيشة المشتركة، وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق، مما أوجد من أول الأمر نوعا من التسامح الذي لم يكن معروفا في أوروبا في العصور الوسطى ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان، أي: دراسة الملل والنحل على اختلافها، والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم..." (٢٤٩).

ويقول في موضع آخر: "إن تسامح المسلمين مع اليهود والنصارى، وهو التسامح

(248) رواه الإمام أحمد، مسند أحمد، والسير عن رسول الله، ما جاء في الحلف، رقم ١٥١١.

(249) "آدم متز"، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجريين نقله إلى العربية: محمد عبد الهادي أبو ريّدة،

كلية الآداب، جامعة القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٥٧م، ج ١، ص ٥٧.

الذي لم يسمع بمثله في العصور الوسطى ، كان سببا في نشأة علم لم يكن قط من مظاهر العصور الوسطى في الغرب، وهو علم مقارنة الأديان أو مقارنة الملل. وإن أكبر فرق بين الامبراطورية الإسلامية وأوروبا، التي كانت كلها على المسيحية في العصور الوسطى، وجود عدد كبير من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين.. يتمتعون بنوع من التسامح لم يكن معروفا في أوروبا في العصور الوسطى. ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان، أي دراسة الملل والنحل على اختلافها والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم" (٢٥٠).

وتبقى شهادة التاريخ أكبر من أن يحاط بها في كلمات. فالإسلام هو أول دين على الإطلاق يشتمل في منظومته على موقف واضح صريح من الآخر المختلف، ويكفي أنه لم يثبت، وعلى مرّ التاريخ الإسلامي حدوث حملات إبادة جماعية بسبب الدين أو المعتقد (٢٥١).

يقول "السير توماس أرنولد" صاحب مؤلف "الدعوة إلى الإسلام": "إنه من الحق أن نقول: أن غير المسلمين قد نعموا بوجه الإجمال في ظل الحكم الإسلامي بدرجة من التسامح لا نجد معادلاً لها في أوروبا قبل الأزمنة الحديثة.. وإن دوام الطوائف المسيحية في وسط إسلامي يدل على أن الاضطهادات التي قاست منها بين الحين والآخر على يد المتزمتين والمتعصبين كانت من صنع الظروف المحلية، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ

(250) المرجع السابق، ج ١، ص ٢٨٨.

(251) عبد الواحد العلمي، حرية الاعتقاد في الإسلام.. دلالات وإشكالات، ورؤى، السنة الثالثة، العدد

١٤، شتاء ٢٠٠٢م، ص ٢٠.

التعصب وعدم التسامح" (٢٥٢).

وتقول المستشرقة الألمانية "زيغريد هونكه": "لعل من أهم عوامل انتصارات العرب هو ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم، حتى إن الملك الفارسي "كيروس" نفسه قال: إن هؤلاء المنتصرين لا يأتون مخربين. فيما يدعيه بعضهم من اتهامهم بالتعصب والوحشية، إن هو إلا مجرد أسطورة من نسج الخيال، تكذبها آلاف من الأدلة القاطعة على تسامحهم وإنسانيتهم في معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة. والتاريخ لا يقدم لنا في صفحاته الطوال إلا عددا ضئيلا من الشعوب التي عاملت خصومها والمخالفين لها في العقيدة بمثل ما فعل العرب، وكان لمسلكتهم هذا أطيب الأثر، مما أتاح للحضارة العربية أن تتغلغل بين تلك الشعوب بنجاح لم تحظ به الحضارة الإغريقية ببريقها الزائف، ولا الحضارة الرومانية بعنفها في فرض إرادتها بالقوة" (٢٥٣).

ويأتي علماء النفس الاجتماعيين في العصر الحديث مؤكدين الحقيقة التي سبق السلوك النبوي إليها منذ قرون، أهمية الاتصال المباشر Direct Contact بين الجماعات المختلفة لمواجهة التوجهات التعصبية والوقاية منها والتعايش السلمي بين الأفراد.

كما أكدوا أن الاتصال المباشر والفعال بين الجماعات يسهم في تخفيف حدة القوالب النمطية، والاعتقادات الخطأ، وأن التقارب Proximity والتفاعل يزيدان من المودة والتآلف، كما يحدثان في ظروف الحياة الطبيعية.

ومن التطبيقات الحديثة لذلك: لقاءات الطلبة مختلفي الجنسيات والأديان في بعض

(252) "توماس أرنولد"، الدعوة إلى الإسلام، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٧٢٩-٧٣٠.

(253) "زيغريد هونكه"، مرجع سابق، ص ٣٥٨.



الدول، لقاءات أعضاء المؤسسات المختلفة من تعليمية وترفيهية وإعلامية، وصحة الذين ينتمون إلى ديانات وملل مختلفة في دورات ومؤتمرات، ونحو ذلك، في إطار عملهم وميادهم الخاص.

وهناك الكثير من البحوث والدراسات التي أوضحت أن الاتصال المباشر بين الجماعات يقلل من مقدار التنافر والإقصاء للآخر، وتجنبه وصياغة قوالب نمطية للتعامل معه. كما تبين أن المناطق التي يوجد بها مساكن عامة مشتركة يعيش فيها جماعات مختلفة عرقياً أو دينياً، تقل لدى قاطنيها مشاعر الخصومة والكراهية، مقارنة بالمناطق الأخرى المنفصلة<sup>(٢٥٤)</sup>.

ويرى الباحثون أن التواجد في مكان أو حيز جغرافي واحد غير كاف لإيجاد روح التعايش السلمي بين الجماعات المختلفة. بل لابد من إيجاد جوّ تفاعل اجتماعي وثيق مثل التداخل في أماكن العمل، لتحقيق تفاعل وثيق بين أفراد المهنة الواحدة من مختلف الديانات والملل، وهو أمر صاغته السيرة النبوية في تعاملها مع المخالفين في المجتمع الواحد بشكل خاص.

إضافة إلى إيجاد عمل مشترك يتم من خلاله تعاون مشترك في إنجاز عمل محدد. ومن ذلك المشاركة في القضايا العامة التي تم مختلف الجماعات، كالمحافظة على البيئة والاهتمام بها، وسبل التخلص من المشاكل المتعلقة بالتدخين والمخدرات... الخ ذلك من موضوعات تشترك في الاهتمام بها أمم العالم بأسرها. ومن ثم إيجاد مداخل لإنشاء

---

(254) Yinger, J. M&Simpson, G. E( 1973). Techniques for reducing prejudice; Changing the prejudiced person in: P. Waston (Ed), Psychology and Race, Chicago Aldine Publishing Company, pp. 96-145.

حوارات بين أرباب تلك المهن والاهتمامات، خاصة وأن الجامع بينهم واحد.

## ثانياً: تحقيق الاجتماع والألفة، والاعتصام بحبل الله بين المسلمين:

يضاف إلى أساس التعايش السلمي والتسامح بين الناس عموماً، خصوصيةً ينبغي الوقوف عندها في ثنايا الحديث عن الحوار مع المخالفين المسلمين، ألا وهي التأكيد على مبدأ الاجتماع.

والاجتماع لغة: من جمع الشيء أي أَلَفَ متفرقه، وأصل المعنى: الضم. قال ابن فارس: الجيم والميم والعين، أصلٌ واحد يدل على تضام الشيء، يقال جمعت الشيء جمعاً، وتجمع القوم: اجتمعوا من هنا وهنا، واجتمع القوم: انضموا وهو ضد تفرقوا. وأجمع القوم اتفقوا، وأجمع الرأي، والأمر: عزم عليه<sup>(٢٥٥)</sup>.

ولا يختلف معنى الاجتماع في الشرع عن معناه في اللغة، وهو أن يلتقي المسلمون وينضم بعضهم إلى بعض ولا يتفرقوا. أما الأمر الذي يجتمعون حوله فهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ<sup>(٢٥٦)</sup>.

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾<sup>(٢٥٧)</sup>: "إن الله

(255) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج ٩، ص ٤٧.

(256) لجنة من المختصين بإشراف: صالح بن حميد، عبد الرحمن بن ملوح، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م، ج ٢، ص ٤٢.

(257) سورة آل عمران: ١٠٣.

تعالى يأمر بالألفة وينهى عن الفرقة لأن الفرقة هلكة والجماعة نجاة. وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في الآية الكريمة: أن حبلى الله هو الجماعة. ولا تفرقوا: يعنى في دينكم كما افرقت اليهود والنصارى في أديانهم.

ويجوز أن يكون معناه: ولا تفرقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة، وكونوا في دين الله إخواناً؛ فيكون ذلك منعا لهم عن التقاطع والتدابير. ودلّ عليه ما بعده وهو قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (٢٥٨).

ويرى القرطبي رحمه الله أن هذه الآية أوضحت السبب الأساس في اجتماع الكلمة ووحدة الصف، ألا وهو التمسك التام بالقرآن والسنة والرجوع إليهما عند حدوث أي اختلاف، فهما صمام الأمان الذي به تدفع الفرقة والتقاطع (٢٥٩).

والألفة بين القلوب المؤمنة هي أول ثمرة من ثمار الإيمان، قال تعالى ممتناً على رسوله وعلى المؤمنين: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦٠). فالألفة الحاصلة بين القلوب كفيلة بإذكاء المحبة وغرس الثقة بين المسلمين والتجاوز عن الهفوات والعثرات.

وقد ركزت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على هذه الأخوة الإيمانية

(258) محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، مكتبة الشعب، الطبعة الثانية،

٥١٣٧٢هـ، ج٤، ص ١٥٩.

(259) بتصرف عن: القرطبي، مرجع سابق، ج٤، ص ١٦٤.

(260) سورة الأنفال: ٦٣.

واعتبرتها الأساس القوي المتين الذي تقوم عليه الرابطة بين المسلمين.

من هنا كان عقد الإخاء بين المسلمين من أوائل الأعمال التي قام بها النبي عليه الصلاة والسلام حال وصوله المدينة. فكانت قاعدة الأخوة والمحبة بين المؤمنين من أهم سبل إقامة الدولة الإسلامية وتثبيتها. وقد ظهرت تلك الأخوة العميقة وأثمرت في زمن لم تعرف فيه البشرية طعم التعايش السلمي، خاصة أنها جاءت بعد فترات حروب طاحنة قضت على معاني الألفة والمحبة بين الناس.

وعلى هذا كانت تلك الأخوة محط إعجاب العديد من المفكرين الغربيين، يقول الكاتب الروسي (تولستوي) في ذلك: "مما لا ريب فيه أن النبي محمداً كان من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جلييلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح إلى السكينة والسلامة وتؤثر عيشة الزهد، ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طريق الرقي والمدنية، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة.. ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام".

بل إن القرآن الكريم جعل تلك الأخوة ممتدة لتصل بالإنسان إلى الدعاء لأخوته المؤمنين الذين لم يرههم ولم يلتق معهم في حياته. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢٦١).

بل إن النصوص القرآنية بلغت مبلغاً عظيماً حين قررت أن تلك الأخوة لا تزول

(261) سورة الحشر: الآية ١٠.

حتى إن وقع من المؤمن جريمة القتل، يقول الله تعالى في ذكر العفو عن القاتل من قبل أولياء المقتول: ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أُخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾<sup>(٢٦٢)</sup>. قال في تفسير الجلالين: "وفي ذكر أخيه تعطفُ داعٍ إلى العفو، وإيدانُ بأن القتل لا يقطع أخوة الإيمان، وكما أن المؤمنين قد يتصرفون تصرفات تتنافى مع ما تقتضيه أخوة الإيمان من تعاون، فإن أصحاب القلوب المتنافرة قد يتعاونون على فعل الشر، فاجتماعهم ليس اجتماع قلوب، وإنما هو اجتماع أجساد". ﴿لَا يَقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾<sup>(٢٦٣)</sup>.

يقول ابن تيمية رحمه الله في بيان أهمية أصل الاجتماع: "هذا الأصل العظيم وهو الاعتصام بحبل الله جميعاً وأن لا يتفرق، هو من أعظم أصول الإسلام ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم ومما عظمت به وصية النبي ﷺ في مواطن عامة وخاصة"<sup>(٢٦٤)</sup>.

وقد أدرك الصحابة أهمية هذا الأصل وضرورته في تقوية عرى إيمان الفرد والجماعة، فتمسكوا بتلك الوحدة. فكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية ولكن الألفة والعصمة وأخوة الدين لا تختلف في قلوبهم<sup>(٢٦٥)</sup>. بل قد تصدر من بعضهم عبارات تنم عن

(262) سورة البقرة: ١٧٤.

(263) سورة الحشر: ١٤.

(264) ابن تيمية، كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية، ج ٢٢، ص ٣٦٠.

(265) ابن تيمية، ج ٢٤، ص ١٧٢.

تخطئة أحدهم للآخر إلا أن ذلك لا يعني بحال مفارقة ذلك الأصل العظيم.

فقد روي عن أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها أنها خالفت ابن عباس وغيره من الصحابة في رؤية النبي ﷺ ربه، وقالت: "مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ"<sup>(٢٦٦)</sup>، وجمهور الأمة على قول ابن عباس مع أنهم لا يبدعون المانعين الذين وافقوا أم المؤمنين رضی الله عنها.

كما كثر الاختلاف بينهم في مسائل تتعلق بالأحكام كثيرا، فلم تغير شيئا من صدق اخوتهم ومحبتهم، امثالا منهم لأمر الله ورسوله ﷺ كما جاء عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: إِيَّاكُمْ وَسُوءَ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ"<sup>(٢٦٧)</sup>. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: (وَسُوءَ ذَاتِ الْبَيْنِ) إِنَّمَا يَعْنِي الْعَدَاوَةَ وَالْبُغْضَاءَ، وَقَوْلُهُ: (الْحَالِقَةُ) يَقُولُ: إِنَّهَا تَحْلِقُ الدِّينَ"<sup>(٢٦٨)</sup>.

فوحدة المسلمين هي الأصل الأصيل، والركن المتين الذي إن تحقق، فإن الخلاف مهما عظم شأنه، وعلت درجته، وتعاضمت مكانته، يبقى أمرا طارئاً يمكن معالجته ضمن ذلك الأصل العظيم.

فالإسلام جاء ليقيم جماعة، وينشئ أمة يرتبط أفرادها برباط الاخوة والتحاب؛ فكانت دعوته لتوحيد الكلمة تلازم الدعوة إلى توحيد الله عز وجل. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾<sup>(٢٦٩)</sup>. بل الله سبحانه وتعالى سمى الإيمان

(266) مسلم، ١٧٧، الإيمان.

(267) رواه الترمذي وقال عنه حديث صحيح غريب. سنن الترمذي، صفة القيامة، رقم ٢٤٣٢.

(268) ابن تيمية، كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية، مرجع سابق، ج ٢٤، ص ١٧٣--١٧٤.

(269) سورة المؤمنون: ٥٢.

وَحَدَّةٌ وَسُمِّيَ التَّفْرِقَةَ كُفْرًا فَقَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٢٧٠).

فإن الله سبحانه هنا يحذر المؤمنين قائلًا لهم: إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد وحدتكم متفرقين، ولذا جاء بعد ذلك الاستفهام الإنكاري، فيكون المعنى: وكيف تتفرقون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله (٢٧١).

ويؤيد هذا التأويل ويؤكد سبب نزول هاتين الآيتين والآيات التي قبلها وبعدها. فقد نزلت في شأن الأوس والخزرج عندما كادوا يقتتلون بسبب فتنة ومكر من عدو الله اليهودي شاس بن قيس، عندما ذكّرهم بيوم بُعث، إلا أن الله عصمهم من هذا الشر قبل وقوعه بإدراك الرسول ﷺ لهم ووعظه إياهم وإصلاحه ذات بينهم (٢٧٢).

ويؤكد هذا المعنى أن النبي ﷺ أيضاً سُمِّيَ التَّفْرِقَةَ كُفْرًا. فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَا تَرْتَدُّوا بَعْدِي كُفْرًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ) (٢٧٣).

ومثله قوله ﷺ: (إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بَسِيفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ) (٢٧٤).

(270) سورة آل عمران: ١٠٠ - ١٠١.

(271) انظر الصحوة الإسلامية للقرضاوي ص ٢٢.

(272) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٩٠.

(273) رواه البخاري في الفتن، باب قول النبي ﷺ: ((لا ترجعوا بعدي كفارًا)) ٣٢/١٣، حديث رقم

٧٠٧٨، ومسلم في الفتن في باب: ((إذا تواجه المسلمان بسيفيهما)) ١١/١٨.

(274) رواه البخاري في الإيمان باب: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) ١١/١١، حديث رقم ٣١، ومسلم

في الفتن باب: (إذا تواجه المسلمان بسيفيهما) ٣٣٩/١٠.

كما اعتبر القرآن التفرق والشقاق سلوكاً لمنهج الضالين والمنحرفين من الأمم التي سبقتنا، فقال محذراً لنا منه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٢٧٥)</sup>. وقال سبحانه: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾<sup>(٢٧٦)</sup>. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾<sup>(٢٧٧)</sup>.

وجاءت السنة في أكثر من حديث تؤكد معاني الأخوة والمحبة بين المسلمين وأهميتها ومن ذلك:

ما رواه النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْحَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضُوٌّ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمَى<sup>(٢٧٨)</sup>. وقوله ﷺ: (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ..)<sup>(٢٧٩)</sup>. وَعَنْ عَمْرٍو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، يَسْعَى بِدِمَتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، يَرُدُّ مُشَدِّدُهُمْ عَلَى مُضْعَفِهِمْ،

(275) سورة آل عمران: ١٠٥.

(276) سورة الروم: ٣٢، ٣١.

(277) سورة النساء: ١١٥.

(278) رواه مسلم في البر والصلة باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم، ١٠/١٧.

(279) رواه البخاري في الأدب باب: تعاون المسلمين بعضهم بعضاً، ١٠/٥٥١ حديث رقم ٦٠٢٦ ومسلم

في البر والصلة باب: تراحم المسلمين...، ١٠/١٧.



وَمُتَسَرِّبِهِمْ عَلَى قَاعِهِمْ، الْمُؤْمِنُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَهُمْ يَدُ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، وَيَسْعَى  
بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ) (٢٨٠).

بل إن النبي ﷺ اعتبر الخروج على كلمة المسلمين وتمزيق عرى الأخوة بينهم من  
أغلظ الأمور الناقضة للإسلام والإيمان. فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (مَنْ  
خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةَ جَاهِلِيَّةٍ، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةِ  
عَمِيَّةٍ، يَعْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً، فُقِتِلَ، فَقِتْلَةُ جَاهِلِيَّةٍ،  
وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِذِي  
عَهْدٍ عَهْدُهُ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ) (٢٨١). وفي رواية أخرى عن أبي ذر قال: قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا، خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ، إِنْ مِنْ خَرَجَ  
مِنَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ) (٢٨٢).

فأية محاولة للخروج عن الجماعة وتفريق الشمل، تعد من المخاطر والأعمال  
المحبطة لإيمان الشخص. عن ابن عمر قال خطبنا عمر بالجابية فقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ  
إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيْنَا، فَقَالَ أَوْصِيكُمْ بِأَصْحَابِي، ثُمَّ الَّذِينَ  
يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَفْشُوا الْكُذْبَ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ،  
وَيَشْهَدُ الشَّاهِدُ وَلَا يُسْتَشْهَدُ، أَلَا لَا يَخْلُونَ رَجُلًا بِامْرَأَةٍ، إِلَّا كَانَ تَالِثَهُمَا  
الشَّيْطَانُ.. عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنْ  
الْإِنْتِنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزِمِ الْجَمَاعَةَ، مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ

(280) رواه أبو داود في الدييات باب: إيقاد المسلم بالكافر، ١٧٩/٤، حديث رقم ٢٦٨٣.

(281) رواه مسلم في الإمارة باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ١٣٩/١٢.

(282) رواه أحمد في المسند ٢٠٢/٤.

فَذَلِكُمْ الْمُؤْمِنُ (٢٨٣).

الوحدة الواجبة على الأمة المسلمة الأصيلة في فكرها ومبادئها، لا تعارض التنوع الذي يقتضيه اختلاف البيئات والأعراف والموايرث الثقافية المتعددة، الموجودة بين أفراد الأمة المسلمة. فهو تنوع في إطار الوحدة الجامعة، وهو أشبه بتنوع المواهب والميول والأفكار والتخصصات داخل الأسرة الواحدة. فلا يعني التوحد، أن يكون الناس على رأي واحد، فهو أمر مخالف للطبيعة البشرية، كما لا يعني أن يختلفوا لمجرد الاختلاف، أو أن يؤدي اختلافهم في المسائل للشقاق والنزاع والعداوة المنهي عنها بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المتضافرة. كقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢٨٤)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٨٥).

والقاعدة التي ذهب إليها العلماء: أن الأصل في علاقة المسلمين مع بعضهم البعض: الألفة والمودة والمحبة والاجتماع لا التفرق، وعلى هذا ذهب الإمام ابن تيمية أنه من السائغ أن يترك الإنسان الأفضل؛ لتأليف القلوب، واجتماع الكلمة، خوفاً من التنفير عما يصلح، كما ترك النبي عليه الصلاة والسلام بناء البيت على قواعد إبراهيم لكون قريش كانوا حديثي عهد بالجاهلية وخشي تنفيرهم بذلك ورأى أن مصلحة

(283) رواه الترمذي في الفتن باب: ما جاء في لزوم الجماعة، ٤/٤٠٤ و ٤٠٥ حديث رقم ٢١٦٥ والنسائي في عشرة النساء.

(284) سورة الأنفال: ٤٦.

(285) سورة الأنعام: ١٥٩.

## الاجتماع والإتلاف مقدمة على مصلحة البناء على قواعد إبراهيم<sup>(٢٨٦)</sup>.

واتضح ذلك النهج النبوي في سلوكه عليه الصلاة والسلام فكان يربي أصحابه على وحدة الصف وترك الأمور التي يمكن أن تؤدي إلى وقوع الفرقة والنزاع. فعن ابن مسعود قال سمعت رجلاً قرأ آيةً قد سمعت من النبي ﷺ خلافها فأخذته فجئت به إلى النبي ﷺ قال: فعرفت في وجه النبي ﷺ الكراهية قال كلا كما محسن لا تختلفوا أكبر علمي. قال مسعر: قد ذكر فيه لا تختلفوا. إن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكهم<sup>(٢٨٧)</sup>.

عن عبد الله بن عمرو قال: هجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً، قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية؛ فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعرف في وجهه الغضب، فقال: إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب<sup>(٢٨٨)</sup>.

وقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم هذا النهج فساروا عليه في اجتهادهم ونظرهم للأمور والمسائل التي يمكن حدوث الاختلاف فيها. فأوا تجنب الخلاف فيها هو الأولى؛ خشية وقوع الفرقة والتنافر بين المسلمين.

ومن ذلك ما ورد عن أبي قلابة أن رجلين رأيا الهلال، وهما في سفر، فتعجلا حتى قدما المدينة ضحى فأخبرا عمر بن الخطاب بذلك فقال عمر لأحدهما أصائم أنت؟ قال: نعم قال: لم؟ قال: لأني كرهت أن يكون الناس صياما وأنا مفطر فكرهت

(286) ابن تيمية، كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه، مرجع سابق، ج ٢٢: ٤٣٦-٤٣٧.

(287) مسند أحمد، مسند عبد الله بن مسعود، حديث رقم ٤١٣٤.

(288) صحيح مسلم، باب العلم، حديث رقم: ٤٨١٨.

الخلاف عليهم فقال للآخر فأنت؟ قال: أصبحت مفطرا قال: لم؟ قال لأني رأيت الهلال فكرهت أن أصوم فقال للذي أفطر: لولا هذا يعني الذي صام لرددنا شهادتك ولأوجعنا رأسك، ثم أمر الناس فأفطروا وخرج (٢٨٩).

وفي الصحيح عن عبد الرحمن بن يزيد قال: صَلَّى بِنَا عُثْمَانَ بِمَنَى أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ فَقِيلَ ذَلِكَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَاسْتَرْجَعَ ثُمَّ قَالَ صَلَّىتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَنَى رَكَعَتَيْنِ وَصَلَّيْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ بِمَنَى رَكَعَتَيْنِ وَصَلَّيْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بِمَنَى رَكَعَتَيْنِ فَلَيْتَ حَظِّي مِنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتِ رَكَعَتَانِ مُتَقَبَّلَتَانِ (٢٩٠). ثم إن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه صلى أربعاً؛ ف قيل له: عبت على عثمان ثم صليت أربعاً! فقال: الخلاف شر (٢٩١).

وقال عمر رضي الله عنه: "لا تختلفوا فإنكم إن اختلفتم كان من بعدكم أشد اختلافاً. ولما سمع أبي ابن كعب وابن مسعود يختلفان في صلاة الرجل في الثوب الواحد أو الثوبين صعد المنبر وقال: رجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم اختلفا، فعن أي فتياكم يصدر المسلمون؟! لا أسمع اثنين اختلفا بعد مقامي هذا إلا صنعت وصنعت" (٢٩٢).

(289) أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، مصنف عبد الرزاق، لتحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، ج ٤، ص ١٦٥. رقم ٧٣٣٨.

(290) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧م، ج ١، ص ٣٦٨. رقم ١٠٣٤. صحيح مسلم، باب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم ١١٢٢.

(291) أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ج ٣، ص ١٤٣. رقم ٥٢١٩.

(292) محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم، إعلام الموقعين، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٦٠.

## الفصل الثالث

### أساس اتباع الحق والعدل

#### أولاً: الإنصاف مع المخالف مطلقاً:

الإنصاف هو العدل في المعاملة بأن لا يأخذ من صاحبه من المنافع إلا ما يعطيه، ولا ينيله من المضار إلا كما ينيله<sup>(٢٩٣)</sup>. وكذلك الإنصاف في الخدمة وهو أن يعطي صاحبه ما عليه بإزاء ما يأخذ من النفع<sup>(٢٩٤)</sup>.

وللإنصاف أنواع عديدة منها أن ينصف المرء الناس فيقوم بإنصاف الغير من نفسه، أو ممن يحب، حتى لو كان هذا الغير مخالفاً له في الرأي أو في الدين أو في المذهب أو غير ذلك، مما يقتضي التحامل أو يكون مظنة الجور.

يقول ابن القيم في ذلك: "أن تؤدي حقوقهم، وألا تطالبهم بما ليس لك، وألا تحملهم فوق وسعهم، وأن تعاملهم بما تحب أن يعاملوك به، وأن تعفيهم مما تحب أن يعفوك منه، وأن تحكم لهم أو عليهم بما تحكم لنفسك أو عليها"<sup>(٢٩٥)</sup>.

وقد كان من دلائل سماحة الإسلام وعظمة مبادئه أن أقر مبدأ إنصاف العدو

---

(293) محمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر

المعاصر، بيروت، ١٤١٠هـ، ٦٤.

(294) الراغب الأصفهاني، المفردات، مرجع سابق، ص ٧٥٤.

(295) حاشية ابن قيم الجوزية، الفوائد، ط. ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م، ص ٤٩.

وتبرئة ساحته مع مخالفته في الدين. على ما روي في سبب نزول الآية: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾<sup>(٢٩٦)</sup>. التي نزلت في أن طعمة بن أبيرق سرق درعا في جراب فيه دقيق لقتادة بن النعمان، وخبأها عند يهودي، فحلف طعمة ما لي بها من علم، فأتبعوا أثر الدقيق إلى دار اليهودي، فقال اليهودي: دفعها إلي طعمة، فلما هم رسول الله ﷺ بالقضاء في المسألة نزلت الآيات الكريمة تبرئ ساحة اليهودي وتنصفه<sup>(٢٩٧)</sup>.

فقد قرر القرآن هذا المبدأ، وعززته السنة الفعلية للنبي عليه الصلاة والسلام فما كان لينصر مسلما على يهودي لمجرد أنه مسلم. فالاختلاف في الدين، بل والعداوة، لا تمنع المسلم من إقامة العدل والإنصاف وتحقيقه، وهذا أدب رفيع لا ينبغي أن تخلو ساحة الحوار منه مطلقا.

وجاء نص القرآن الكريم صراحة أمراً للمسلمين بالبر والقسط والعدل مع المسلمين من غير المسلمين، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾<sup>(٢٩٨)</sup>. يقول الطبري في تفسير هذه الآية: "أولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن

(296) سورة النساء: ١٠٥.

(297) رواه الترمذي في حديث طويل، وقال عنه: حديث غريب لا نعلم أحدا أسنده غير محمد بن سلمة الحراني. باب تفسير القرآن عن رسول الله، رقم ٢٩٦٢.

(298) سورة المتحنة: ٨.

تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم إن الله عز وجل عمّ بقوله: ﴿الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخص به بعضاً دون بعض. ولا معنى لقول من قال ذلك منسوخ؛ لأن بر المؤمن لأهل الحرب ممن بينهم وبينه قرابة نسب أو ممن لا قرابة بينهم وبينه ولا نسب غير محرم ولا منهي عنه، إذا لم يكن في ذلك دلالة له أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام أو تقوية لهم بكراع أو سلاح..<sup>(٢٩٩)</sup>.

أما النهي فموجه لأولئك الذين يؤمنون بعدم إمكانية التعايش، وضرورة إقصاء من يخالفهم حتى تتحقق لهم الهيمنة والسيادة، وهم في الآية كفار قريش. فقد أرادوا القضاء على الدعوة الجديدة في مكة، وحالوا دون إيصالها لغيرهم، وقاموا بإخراج المؤمنين بها من ديارهم وأموالهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾<sup>(٣٠٠)</sup>.

وإن تضافر النصوص القرآنية على ذكر السمات الإيجابية التي يتسم بها بعض المخالفين من يهود ونصارى، أكبر دليل على إنصاف الإسلام وعدالته. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾<sup>(٣٠١)</sup>. وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ

(299) الطبري، تفسير الطبري، ج ٢٨، ص ٦٦.

(300) سورة المتحنة: ٩.

(301) سورة الأعراف: ١٥٩.

وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴿٣٠٢﴾.

وقد يدفع الهوى الإنسان لظلم مخالفه قولاً أو فعلاً، بل والتشهير بهم ليصرف الغير عنهم. إلا أن نصوص الوحي قرآنا وسنة اجتثت ذلك التوجه واعتبرته ظلما لا يبرره مسوغ. والناظر في النصوص القرآنية التي عرضت آراء الكفار وأقوالهم وافتراءهم على الله عز وجل وعلى نبيه صلى الله عليه وسلم وغيره من أنبياء الله، يلحظ خلوها المطلق من التعرض لشخص الكفار بالهمز أو اللمز أو التعريض المباشر لهم، بينما يتوجه الحوار القرآني إلى الأفكار ومناقشة الأقوال دون الخوض في الأشخاص. وهو أدب رفيع تجلت آثاره في السنة النبوية قولاً وفعلاً.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٠٣﴾.

والعدل والإنصاف منهجٌ دقيق يُمثل جميع صور القسط والعدل مع القريب والبعيد، المخالف والموافق، دون تمييز بين مسلم أو غير مسلم، بل ينهى عن جميع صور الجور والظلم مع كلِّ أحد. فمبدأ الظلم محرم بكل حال، فلا يجز لأحد أن يظلم أحداً، ولو كان كافراً ﴿٣٠٤﴾.

(302) سورة النساء: ١٣٥.

(303) سورة المائدة: ٨.

(304) ابن تيمية، الاستقامة، تحقيق: محمد رشاد سالم، مطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض،

١٤٠٣هـ، ٢٢، ص ٢٤٧ - ٢٤٧.



فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ: أَفَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،  
فَأَقْرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا كَانُوا، وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، فَبَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ،  
فَخَرَصَهَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ أَنْتُمْ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ قَتَلْتُمْ  
أَنْبِيَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ، وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ عَلَى أَنْ أَحِيفَ  
عَلَيْكُمْ قَدْ خَرَصْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ وَسَقٍ مِنْ تَمْرٍ، فَإِنْ شِئْتُمْ فَلَكُمْ وَإِنْ أَيْئْتُمْ فَلِي،  
فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، قَدْ أَخَذْنَا فَأَخْرَجُوا عَنَّا" (٣٠٥).

والتشهير بالمخالف والنيل من شخصه والتعرض له والتجريح به من قبيل الظلم  
فهو منهي عنه. وهو أمر يعود في جذوره إلى النفس الإنسانية التي ترى في النيل ممن  
يخالفها إرضاءً للذات وانتصاراً لها.

ونصوص الوحي تقوم على الدعوة إلى الفضائل بالحسنى، والبعد عن أفعال  
الآخرين، وعلى هذا ورد النهي عن جملة من الأمور التي يمكن أن تسوق إلى الوقوع  
في الآخرين.

ومرد النيل من المخالفين اتباع الهوى الإنساني. فالهوى من النوازع الخفية التي  
تتسلل إلى قلب المرء تدريجياً حتى تسيطر عليه من حيث لا يشعر، وهو باب عريض  
من أبواب الضلال فلا يولد في أحكام المرء إلا الجور والظلم. ولهذا أوصى الله عز وجل نبيه  
داود -عليه السلام- بالحذر من الهوى، فقال: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ  
فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (٣٠٦).

(305) مسند أحمد، مسند جابر بن عبد الله، رقم ١٤٤٢٥.

(306) سورة ص: ٢١.

ومما يدخل في دائرة العدل والإنصاف مع المخالف عدم التعرض لشخصه أو النيل منه بالتجريح ونحوه، ونشر ثقافة تتبنى النهج القرآني والأدب النبوي في الحديث عن الآخرين؛ حيث يكون التوجه فيه لمناقشة القول مهما عظم، والابتعاد عن التوجه صوب الشخص. وقد ساق القرآن الكريم العديد من الأمثلة في ذكر أقوال المشركين والكفار وافتراءاتهم على الله عز وجل دون الوقوف عند شخوصهم مطلقاً، وفي ذلك تأكيد لهذا النهج وحضّ عليه. وعلى هذا جاء القرآن الكريم عارضاً لأقوال المشركين والمنكرين لوجود الله وقدرته سبحانه دون إشارة ولو عابرة إلى شخص أحد منهم أو مجرد الوقوف عند تفاصيلها. قال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً﴾ وفي هذا تأكيد كذلك لمناقضة هذا النهج لمبدأ العدل والإنصاف...

وكان النبي عليه الصلاة والسلام إن ساءه أمر، قال: ما بال أقوام يفعلون كذا... أما ما يحدث من توجيه النقد لشخص المخالف والنيل منه، وإسقاط أوصاف معينة عليه ونشرها عنه دون التثبت والتروي والورع فيما يقول الإنسان عن غيره، فهو أمر مناقض لأصول الإسلام وقواعده. قال تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ويخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم﴾.

لقد كان النهج النبوي واضحاً فلم يحاب فكرة على حساب أخرى، ولم يضيق على اتجاه ليوسع لاتجاه آخر، ولم يغمط حق أحد من مخالفه لمراعاة الذات، ولم يناصر دعوته على غيرها لمجرد العصبية أو بدافع هوى، بل فتح آفاق الحوار مع المخالفين بأسلوب كان العدل رائده والإنصاف ديدنه.

## ثانياً: حرمة عرض المسلم:

اعتبر النبي ﷺ من الصفات الأساسية للمسلم عدم إيدائه المسلمين باليد أو اللسان. عن ابن جريج أنه سمع أبا الزبير يقول سمعت جابراً يقول: سمعت النبي ﷺ يقول المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده" (٣٠٧).

وقد تضافرت نصوص الوحي تأكيداً لهذا الأدب، بل الأمر الإلهي. وعلى هذا جاء النهي عن كل ما يمكن أن يؤدي إلى الخط من قدر المسلم مهما بلغت درجة المخالفة له.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ أَتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ذَكَرْتُ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ" (٣٠٨).

وفي الأحاديث تحريم للاعتداء على المسلم في دمه وماله وعرضه. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَخُونُهُ وَلَا يَكْذِبُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: عَرْضُهُ، وَمَالُهُ، وَدَمُهُ، التَّقْوَى هَا هُنَا، بِحَسَبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْتَقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ" (٣٠٩).

وهذا يتضمن تجنب التشهير بالمخالف المسلم خاصة، ويكتفى بتبيان الأوصاف والأفكار، عوضاً عن التركيز على الأشخاص، والطعن بهم، ومحاولة التشهير بهم. عَنْ

(307) رواه مسلم، باب الإيمان، رقم ٥٨.

(308) رواه مسلم، البر والصلة والآداب، رقم ٤٦٩٠.

(309) رواه الترمذي، البر والصلة عن رسول الله، رقم ١٨٥٠.

ابن عمر قال صعد رسول الله ﷺ المنبر فنأدى بصوت رفيع فقال: يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله. قال: ونظر ابن عمر يوماً إلى البيت أو إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك" (٣١٠).

فهذه الرابطة المتينة من الأخوة والمحبة بين المسلمين، التي كرستها نصوص الوحي بصورة مباشرة وغير مباشرة، تؤكد أهمية هذا الأساس الذي لا ينبغي تفويته بحال كما لا ينبغي تعريضه للتصدع أو الخلل وإن وقع بينهم قتال أو نزاع.

فقد قال القرآن الكريم في المقتلين من المسلمين مع بعضهم: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين. إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم). فلم ينزع عنهم لباس الإيمان وربقة الأخوة وعراها، وإن وقع منهم قتال، وحصل بينهم نزاع، وفي هذا تأكيد لمعاني الأخوة، وأهمية الحفاظ عليها مطلقاً.

وبجملة هذه النصوص وغيرها اجتث الإسلام دافع الهوى والنزعة إلى النيل من الآخرين باعتبار مناقضته لصريح إيمان المسلم، ولما يترتب عليه من إيقاع الأذى وإن كان لفظاً، والضرر بأسره مرفوع في الشريعة. وبقيت الفكرة تدور حول التوجه نحو الأفكار والسلوكيات غير الصحيحة والتنبيه عليها دون الإشارة إلى فاعلها وهو أدب

(310) رواه الترمذي وقال عنه غريب، البر والصلة عن رسول الله ﷺ، رقم ١٩٥٥.

جم يتلاءم مع الشريعة الإسلامية وأحكامها.

بل إن النهج النبوي جعل الحفاظ على عرض المسلم وعدم إهانته، والدفاع عنه

في حال غيابه، من أعظم القربات، وحذر من خلاف ذلك. فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبِي طَلْحَةَ بْنِ سَهْلٍ الْأَنْصَارِيِّ يَقُولَانِ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا مِنْ أَمْرٍ يَخْذُلُ أَمْرًا مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عَرْضِهِ إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنْ أَمْرٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عَرْضِهِ، وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ<sup>(٣١١)</sup>.

وقد فقه صحابة النبي عليه الصلاة والسلام هذه المعاني الجليلة، فظهرت في تعاملهم مع عامة الناس. ومن ذلك ما روي عَنْ عَمْرٍو بْنِ أَبِي قُرَّةٍ قَالَ كَانَ حُدَيْفَةُ بِالْمَدَائِنِ فَكَانَ يَذْكُرُ أَشْيَاءَ قَالَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فِي الْعُضْبِ، فَيَنْطَلِقُ نَاسٌ مِمَّنْ سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ حُدَيْفَةَ، فَيَأْتُونَ سَلْمَانَ فَيَذْكُرُونَ لَهُ قَوْلَ حُدَيْفَةَ، فَيَقُولُ سَلْمَانُ: حُدَيْفَةُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى حُدَيْفَةَ، فَيَقُولُونَ لَهُ: قَدْ ذَكَرْنَا قَوْلَكَ لِسَلْمَانَ فَمَا صَدَقَكَ وَلَا كَذَبَكَ، فَأَتَى حُدَيْفَةَ سَلْمَانَ وَهُوَ فِي مَبَقَلَةٍ، فَقَالَ: يَا سَلْمَانُ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُصَدِّقَنِي بِمَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟! فَقَالَ سَلْمَانُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَعْضِبُ، فَيَقُولُ فِي الْعُضْبِ لِنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَيَرْضَى فَيَقُولُ فِي الرِّضَا لِنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، أَمَا تَنْتَهِي حَتَّى تُورَثَ رِجَالًا حُبَّ رِجَالٍ وَرِجَالًا بُغْضَ رِجَالٍ، وَحَتَّى تُوقَعَ اخْتِلَافًا وَفُرْقَةً، وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ، فَقَالَ: أَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي سَبَبْتُهُ سَبَّةً، أَوْ لَعْنْتُهُ لَعْنَةً فِي غَضَبِي، فَإِنَّمَا أَنَا مِنْ وَكَلَدِ آدَمَ أَغْضِبُ كَمَا يَغْضِبُونَ، وَإِنَّمَا بَعْثَنِي

(311) سنن أبي داود، باب الادب، حديث رقم ٤٢٤٠.

رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، فَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ صَلَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَاللَّهُ لَتَنْتَهِنَّ أَوْ لَا كُنْتُمْ إِلَى عُمَرَ<sup>(٣١٢)</sup>.

وهو موقف ينم عن فهم عميق لنصوص الوحي وتوجيهات النبي عليه الصلاة والسلام في الأدب والتعامل مع الناس والحفاظ على الألفة والمودة بين المسلمين. كما يشير إلى ضرورة النظر في مآل الفعل والقول الصادر عن الإنسان، فلا يكتفى بالنظر في صحة القول والتأكد منه، بل يستحضر مآل وعاقبة إشاعة ذلك القول وما يترتب عليه.

وقد يقع البعض في الخوض في مخالفاتهم، والنيل منهم، تحت رداء ضرورة تعريف الناس بالمبتدعين واجتنابهم، والبدع مأمور باجتنابها واجتناب أهلها والتحذير منها، وقد نبه النبي عليه الصلاة والسلام على البدع بالتفصيل، وأشار إلى خواص عامة فيهم وخاصة ولم يصرح بالتعيين غالباً، لقطع العذر ولا ذكر فيهم علامة قاطعة لا تلتبس<sup>(٣١٣)</sup>. يقول الشاطبي في هذا السياق: "والغالب في هذه الفرق (أي الفرق الإسلامية) أن يشار إلى أوصافهم ليحذر منها، ويبقى الأمر في تعيينهم مُرجأً كما فهمنا من الشريعة، ولعل عدم تعيينهم هو الأولى الذي ينبغي أن يلتزم ليكون سترًا على الأمة، كما سترت عليهم، قبائحهم فلم يفضحوا في الدنيا بها في الحكم الغالب العام، وأمرنا بالستر على المذنبين ما لم يبد لنا صفحة الخلاف، ليس كما ذكر عن بني إسرائيل أنهم كانوا إذا أذنب أحدهم ذنبا أصبح وعلى بابه معصيته مكتوبة، وفي ذلك افتضاح المذنب، إلى ما أشبه ذلك، فكثير من هذه الأشياء خصت بها هذه الأمة. وقد قالت طائفة: إن من الحكمة في تأخير هذه الأمة عن سائر الأمم أن تكون ذنوبهم

(312) سنن أبي داود، السنة، رقم ٤٠٤٠.

(313) الشاطبي، الموافقات، ج ٤، ١٨٣-١٨٤.

مستورة عن غيرهم، فلا يطلع عليها، كما اطلعوا هم على ذنوب غيرهم ممن سلف. وللستر حكمة أيضاً، وهى أنها لو أظهرت مع أن أصحابها من الأمة لكان في ذلك داع إلى الفرقة والوحشة، وعدم الألفة التى أمر الله بها ورسوله، حيث قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ وقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٣١٤)</sup> وقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾<sup>(٣١٥)</sup> وفي الحديث: لا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً. وأمر عليه الصلاة والسلام بإصلاح ذات البين، وأخبر أن فساد ذات البين هي الحالقة وأنها تخلق الدين. والشريعة طافحة بهذا المعنى<sup>(٣١٦)</sup>.

فالخطأ في الاجتهاد لا يستدعي التفسيق ولا التكفير، مهما كان ذلك الخطأ. وقد وردت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ببيان ذلك. قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾<sup>(٣١٧)</sup>.

ويبقى الدافع وراء النيل من الآخرين والتشهير بهم، داء أساسه الميل مع الهوى والسير وفق تبعاته. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وصاحب الهوى يعميه الهوى ويؤممه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه،

(314) سورة الأنفال: ٨.

(315) سورة الروم: ٣٢.

(316) الشاطبي، الموافقات، ج ٤، ص ١٨١.

(317) سورة الأحزاب: ٥.

ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه، ويكون -مع ذلك- معه شبهة دين أن الذي يرضى له ويغضب له أنه السنة، وأنه الحق وهو الدين، فإذا قدر أن الذي معه هو الحق المحض دين الإسلام، ولم يكن قصده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا؛ بل قصد الحمية لنفسه وطائفته أو الرياء، ليعظم هو ويثني عليه، أو فعل ذلك شجاعة وطبعاً، أو لغرض من الدنيا، معه حق وباطل، وسنة وبدعة، ومع خصمه حق وباطل، وسنة وبدعة" (٣١٨).

ويرى علماء النفس أن الهوى ميل طبيعي لإرضاء النزعات الشخصية مما يجعل المرء يتعجل الوصول إلى نتيجة قد ترضيه وترجحه ولو أنها زائفة أو مؤقتة. الأمر الذي يدفع به إلى البحث عن كل ما يتماشى مع ميوله الشخصية، فيبرزها في الإطار الذي يرضيه، ويفسرهما بالأسلوب الذي يدعم ما يراه، بغض النظر عن كل ما يمكن أن يناقض ذلك<sup>(٣١٩)</sup>. بل إن الهوى الذاتي قد يدفع بالإنسان إلى التعسف في التفسير، وانتزاع المعنى من السياق، ثم دمجها في تصور مناقض للأصل المأخوذ منه. يقول ابن تيمية في هذا السياق: "يجمع الآثار ويتأولها في كثير من المواضع بتأويلات يبين فسادها لتوافق القول الذي ينصره" (٣٢٠).

---

(318) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ١٤٠٦هـ، ج ٥، ص ٢٥٦.  
(319) Straughn, R. Wringley, J. eds, Values & Evaluation in Education, London, Harper& Row Pub. 1980.p. 85.

(320) ابن تيمية، كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية، مرجع سابق، ج ٢٤، ص ١٥٤.



### ثالثاً: مقتضيات العدل مع المخالف:

جاءت معالجة القرآن الكريم والسنة النبوية من خلال حض النفوس على اتباع العدل وتدريبها على الإنصاف حتى يصبح سجية للنفس الإنسانية، مما يسهل خلاصها من نوازع الهوى وبواعثه السائقة إلى الظلم والتجاوز.

بل إن نصوص الوحي ذهبت إلى أبعد من ذلك حين أكدت مقتضيات العدل مع المخالفين، ومن أبرزها: أهمية ذكر محامد المخالف ومحاسنه، وعدم غمطه حقه في ذلك، فذكر القرآن الكريم محاسن بعض اليهود والنصارى.

ومن ذلك موقف النبي عليه الصلاة والسلام حين أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة وذكره لمحاسن النجاشي وعدله وصدقه، حين قال لهم: "إن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه"<sup>(٣٢١)</sup>. والنجاشي كان نصرانياً آنذاك، وخرج المسلمون إلى الحبشة المسيحية دون أن يخطر ببال أحدهم أن يتساءل عن مشروعية اللجوء إلى نصراني والاحتفاء به. ولم يجد الرسول ﷺ في ذلك شيئاً من الحساسية التي قد يظنها البعض من أصحاب النظرة القاصرة عائقاً تحول دون التعامل مع النجاشي، بدعوى أنه غير مسلم؛ فكيف نلجأ إليه ونطلب الحماية منه.

وقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم تلك المعاني وتشربوا بها، فلم يغمطوا مخالفهم حقهم من الثناء لمجرد العصبية أو المخالفة في المعتقد. ومن ذلك ما قاله

(321) أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، الاكتفاء بما تضمنه من معازي رسول الله والثلثة

الخلفاء، تحقيق: محمد كمال الدين، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٧م، ج ١، ص ٢٤٠.

المُسْتَوْرِدُ الْقَرَشِيُّ وَكَانَ عِنْدَ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، فَقَالَ الْمُسْتَوْرِدُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ. فَقَالَ لَهُ عَمْرٍو: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ. قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَنْ قُلْتَ ذَلِكَ إِنْ فِيهِمْ لِحِصَالًا أَرْبَعًا: إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ، وَخَيْرُهُمْ لِمَسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ: وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ" (٣٢٢).

ومن مقتضيات العدل والإنصاف مع المخالفين قبول الحق منهم ومن غيرهم. فالحق ضالة المؤمن، يقبله من كل من قاله، كائناً من كان. وقد ضرب النبي عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى في قبول الحق من مخالفه. ومن ذلك ما جاء عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ قُتَيْبَةَ امْرَأَةٍ مِنْ جُهَيْنَةَ، أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ، وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةَ؛ فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَيَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ" (٣٢٣).

وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ يَهُودِيَّةً دَخَلَتْ عَلَيْهَا، فَذَكَرَتْ عَذَابَ الْقَبْرِ، فَقَالَتْ لَهَا: أَعَاذَكَ اللَّهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ؛ فَسَأَلَتْ عَائِشَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَذَابِ الْقَبْرِ فَقَالَ: نَعَمْ عَذَابُ الْقَبْرِ. قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدُ صَلَّى صَلَاةً إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ" (٣٢٤).

(322) رواه مسلم، الفتن وأشرط الساعة، رقم ٥١٥٨.

(323) أخرجه النسائي، سنن النسائي، الأيمان والنذور، رقم ٣٧١٣. أخرجه: أحمد ٤٣/٤٥، رقم

٢٧٠٩٣، والحاكم ٤/٢٩٧، وصححه ووافقه الذهبي.

(324) صحيح البخاري. ١٢٨٣. الجنائز. ما جاء في عذاب القبر.

ففي الحديثين تأكيد لقبول الحق، بغض النظر عن قال به، فالحق يعرف بذاته، لا يعرف بمن قاله. فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يقف مطلقاً عند الشخص الصادر عنه الكلام، بل ذهب إلى ذات الكلام، فإذا ما ثبت صدقه، قبل به بل وسار عليه. وفي هذا يقول ابن تيمية: "والله قد أمرنا ألا نقول عليه إلا الحق، وألا نقول عليه إلا بعلم، وأمرنا بالعدل والقسط، فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني -فضلاً عن الرافضي- قولاً فيه حقٌ أن نتركه أو نرده كله، بل لا نرد إلا ما فيه الباطل دون ما فيه من الحق" (٣٢٥).

بل إن النهج النبوي ذهب إلى أبعد من ذلك في مسألة قبول الحق من قائله، دون النظر فيمن قال به كما في قصة أبي هريرة رضي الله عنه مع الشيطان. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال وَكَلَّنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٌ فَجَعَلَ يَحْتُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَصَّ الْحَدِيثَ، فَقَالَ: إِذَا أُوتِيَ إِلَيَّ فَرَأَيْتَكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ لَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: صَدَقَ وَهُوَ كَذُوبٌ، ذَلِكَ شَيْطَانٌ" (٣٢٦).

فالنبي عليه الصلاة والسلام بين لأبي هريرة أن ما قاله الشيطان له في فضل آية الكرسي حق، وصدق، على الرغم من كذب الشيطان وزوره. فصدور الكلام من الشيطان لا يمنع من قبوله منه، إن كان حقاً وصدقاً. فالحديث أصل في مبدأ قبول الحق من المخالفين، والعمل به، مهما كانت درجة مخالفتهم، مع عدم غمط الآخرين حقهم في الإشارة إلى صدقهم فيه.

(325) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٤٢.

(326) رواه البخاري، فضائل القرآن، رقم ٤٦٢٤.

ومن فقه هذا الحديث وفوائده - كما قال ابن حجر رحمه الله -: إن الحكمة قد يتلقاها الفاجر فلا ينتفع بها، وتؤخذُ عنه فينتفع بها، وإن الكافر قد يصدق ببعض ما يصدق به المؤمن، ولا يكون بذلك مؤمناً، وبأن الكذاب قد يصدق<sup>(٣٢٧)</sup>.

يقول ابن القيم في سياق وقوع البعض في ردّ الحق الصادر من مخالفيهم: "الاختلاف المذموم كثيراً ما يكون مع كل فرقة من أهله بعض الحق، فلا يقر له خصمه به، بل يجحده إياه بغياً ومنافسة، فيحملة ذلك على تسليط التأويل الباطل على النصوص التي مع خصمه، وهذا شأن جميع المختلفين، بخلاف أهل الحق، فإنهم يعلمون الحق من كل من جاء به، فيأخذون حق جميع الطوائف، ويردون باطلهم، فهؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾<sup>(٣٢٨)</sup> فمن هداه الله سبحانه إلى الأخذ بالحق حيث كان، ومع من كان، ولو كان مع من يبغضه ويعاديه، وردّ الباطل مع من كان، ولو كان مع من يحبه ويواليه، فهو ممن هدى لما اختلف فيه من الحق، فهذا أعلم الناس، وأهداهم سبيلاً، وأقومهم قِيلاً، وأهل هذا المسلك إذا اختلفوا فاختلافهم اختلاف رحمة"<sup>(٣٢٩)</sup>

ويقول رحمه الله في موضع آخر: "والله تعالى يحب الإنصاف، بل هو أفضل حلية تحلّى بها الرجل، خصوصاً من نصّب نفسه حكماً بين الأقوال والمذاهب، وقد قال الله

(327) العسقلاني، فتح الباري، مرجع سابق، ج٤، ص ٦١٦.

(328) سورة البقرة: ٢١٣.

(329) ابن قيم الجوزية، الصواعق المرسلّة، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، ط. ٣، دار العاصمة، الرياض،

ج٢، ص ٥١١-٥١٢.

-تعالى- لرسوله أن يقول: ﴿وَأْمُرْتُ لِأَعْدَلِ بَيْنَكُمْ﴾<sup>(٣٣٠)</sup>. فورثة الرسول ﷺ منصبهم العدل بين الطوائف، وألا يميل أحدهم مع قريبه وذوي مذهبه وطائفته ومتبوعه؛ بل يكون الحق مطلوبه يسير بسيره، وينزل ب نزوله، يدين العدل والإنصاف، ويحكم الحجة، وما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فهو العلم الذي قد شمر إليه، ومطلوبه الذي يحوم بطلبه عليه، ولا يثني عنانه عنه عدل عاذل، ولا تأخذه فيه لومة لائم، ولا يعيده عنه قول قائل<sup>(٣٣١)</sup>.

فلا ينبغي أن يتخلى المسلم في حوارهِ عن هذا المبدأ الأصيل، كما لا ينبغي له طمس نواحي القوة والإيجابية في كلام محاوريه، وعليه التجرد من هوى النفس في إنصاف الذات وظلم الغير. وعلى هذا فأهل كل مقالة أو أصحاب كل اتجاه يصفون ما يقولونه ويذهبون إليه بأحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ، كما يصفون مقالة مخالفيهم بأقبح ما يقدرون عليه من الألفاظ. فالمقولة قد تطرح بشكليين كلاهما يحمل وجهاً من الصحة، إلا أن كل واحد منهما يعبر عن أمر يناقض الآخر.

يقول ابن القيم في سياق الحديث عن أفضل الطرق للتوصل إلى الحق: " فإذا أردت الاطلاع على كنه المعنى هل هو حق أو باطل، فجردّه من لباس العبارة، وجرد قلبك عن النفرة والميل، ثم أعط النظر حقه، ناظراً بعين الإنصاف، ولا تكن ممن ينظر في مقالة أصحابه ومن يحسن ظنه نظراً تاماً بكل قلبه، ثم ينظر في مقالة خصومه ومن يسيء ظنه به كمنظر الشزر والملاحظة، فالناظر بعين العداوة يرى الحاسن مساوئ، والناظر بعين

(330) سورة الشورى: ١٥.

(331) ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين، مرجع سابق، ج ٣، ص ٩٤.

الحجة عكسه، وما سلم من هذا إلا من أراد الله كرامته، وارتضاه لقبول الحق<sup>(٣٣٢)</sup>.  
وعليه ينبغي للمحاور أن يتحرى الدقة والإنصاف، ويسير مع الحق أينما حلت  
ركائبه، سواء أكان له أم عليه.

وقبول الحق الذي جاء به المخالف، لا يعني موافقته في كل شيء، ولا الرضا عنه  
فيما يخطئ فيه، وهذا ميزان دقيق ينبغي التنبيه إلى خطورة وقوع الخلل فيه. وعلى هذا  
جاءت مقولة الإمام الشافعي في غاية التعبير عن ذلك: "ما ناظرت أحداً إلا قلت: اللهم  
أجر الحق على قلبه ولسانه، فإن كان الحق معي اتبعني، وإن كان الحق معك اتبعته"<sup>(٣٣٣)</sup>.

فالحقيقة المطلقة من علم الله سبحانه، أما الحقائق التي يتوصل إليها البشر فهي  
نسبية، فلا ينبغي القطع إلا بما نصت عليه الأدلة القطعية الثبوت والدلالة. وكل ما عدا  
ذلك فهو مبني على البحث والاجتهاد وترجيح الدليل.

ومن الأدب المترتبة على هذا الأساس الأصيل في الحوار مع المخالف، التثبت قبل  
إصدار الحكم على كلام المخالف، مع حمل الكلام على ظاهره، وعدم التعرض للنوايا  
والبواطن. والإسلام دين يقوم على البناء على ظواهر الآخرين، لا التتبع لما يخفون أو  
البحث في خفايا نفوسهم ونياتهم.

فعن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فصبحنا الحرقات من  
جهينة فأدركت رجلاً، فقال: لا إله إلا الله، فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك،  
فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: (أقال لا إله إلا الله وقتلته؟! قال: قلت: يا

(332) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ج ١، ص ١٤١.

(333) صحيح ابن حبان، مرجع سابق، ج ٥، ص ٤٩٨.

رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السَّلَاحِ، قَالَ: أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا!، فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا عَلَيَّ، حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي أُسَلِّمْتُ يَوْمَئِذٍ، قَالَ: فَقَالَ سَعْدٌ: وَأَنَا وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ مُسْلِمًا حَتَّى يَقْتُلَهُ ذُو الْبُطَيْنِ - يَعْنِي أُسَامَةَ -، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ قَاتَلْنَا حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ، وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ" (٣٣٤).

ويندرج تحت هذا الضابط إحسان الظن بالمسلمين المخالفين على وجه الخصوص والتماس الأعدار لهم. وهو الأمر الذي حمل سلف الأمة إلى الاعتذار لأهل الصلاح والفضل عما وقعوا فيه من بدع، عن اجتهاد منهم. يقول ابن تيمية في سياق الاعتذار لبعض أهل الفضل، ممن شهدوا سماع الصوفية ورقصهم متأولين: "والذين شهدوا هذا اللغو متأولين من أهل الصدق والإخلاص والصلاح، غمرت حسناتهم ما كان لهم فيه وفي غيره من السيئات، أو الخطأ في مواقع الاجتهاد، وهذا سبيل صالحى هذه الأمة في خطئهم وزلاتهم" (٣٣٥).

ويدخل تحت هذا أن يرجع المحاور إلى ما يقوله الطرف الآخر مباشرة، دون معرفة أقواله وآرائه من طرق أخرى تخالفه، فيجب أن تكون قراءته لأي مذهب أو فكر أو اتجاه من مصادره الأصلية التي قال بها أصحاب هذا المبدأ أو ذلك، وليس مما يقوله الآخرون عنهم.

ويقتضى ذلك عدم الاعتماد على المنقولات، ولا يكفي ذي ذلك تحري الصدق من الناقل بل لا بد من وجود سلامة الفهم والبصيرة. يقول ابن تيمية: "كثير من الناقلين ليس قصده الكذب، لكن المعرفة بحقيقة أقوال الناس من غير نقل ألفاظهم،

(334) رواه مسلم، الإيمان، تحريم قتل الكافر، رقم ١٤٠.

(335) ابن تيمية، الاستقامة، مرجع سابق، ج ١، ٢٩٧.

وسائر ما به يعرف مرادهم قد يتعسر على بعض الناس، ويتعذر على بعضهم<sup>(٣٣٦)</sup>.  
وقد يتوهم البعض أن الإنصاف مع المخالف، وحسن التعامل معه بالعدل،  
والاعتراف به، إنما هو نوع من الموالاة المنهي عنها في القرآن الكريم. فقد قال تعالى:  
﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ  
فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾<sup>(٣٣٧)</sup>.  
والقرآن الكريم يزخر بالنصوص الناهية عن موالاة غير المسلمين، إلا أن هذا الأمر  
محاط بضوابط تحول دون تحوله إلى عداوة دينية أو فتنة طائفية. فلا يدخل في مفهوم  
الموالاة المنهي عنها: المشاركة في الوطن، أو الجوار في أرض، أو المشاركة في عمل،  
ونحوه. وإنما المراد بالموالاة التي نُهت عنها النصوص القرآنية، توليهم بوصفهم جماعة  
تعادي المسلمين وتحادّ الله ورسوله. من هنا جاءت الآيات "من دون المؤمنين" فالمنهي  
عنه في هذا السياق هو تحيز المؤمن إلى أعداء الدين. يقول الطبري في تفسير هذه  
الآية: "لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهراً وأنصاراً توالوهم دينهم، وتظاهروهم على  
المسلمين من دون المؤمنين، وتدلّوهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله  
في شيء... يعني فقد برئ الله وبرئ منه بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر"<sup>(٣٣٨)</sup>.  
وكذا المودة المنهي عنها إنما هي مودة المحادين المعادين لله ورسوله وللمؤمنين،  
وليس مجرد المخالفين لهم في الدين، أو المعتقد، ولو كانوا مسلمين.  
وهكذا فإن الأمر لا يبدو كما يصوره البعض: رفع راية العدوان في وجه غير  
المسلمين مطلقاً، لجرد أنهم مخالفون في الدين.

(336) منهاج السنة النبوية ٦/٣٠٣.

(337) سورة آل عمران: ٢٨.

(338) الطبري، ج ٦، ٣١٣.



# الباب الثاني

## أهداف الحوار

المبحث الأول: إظهار الحقائق المدعمة بالأدلة والبراهين.

المبحث الثاني: التفاهم والتعاون للخروج من مرحلة الأزمة.

المبحث الثالث: الترقى بالذات.

المبحث الرابع: التلاقح الحضاري.

المبحث الخامس: تصحيح المفاهيم.

المبحث السادس: حلّ النزاعات والخلافات.



## الباب الثاني

### أهداف الحوار

الحوار الناجح، هو ذلك الذي يروم السير وفق منهجية محددة المعالم والأطر، واضحة الأهداف والأسس. ونجاح الحوار مرهون بتحقيقه أهدافاً مشتركة وثماراً ملموسة لجميع الأطراف المتحاوره. فلا يؤدي الحوار آثاراً إيجابية إذا ما ضاقت الأهداف لصالح طرف واحد من أطراف الحوار دون الآخرين. وليس ثمة تعارض في تحقيق الحوار أهداف جميع من شارك فيه من خلال مجانبه الفردية والأنانية واحتكار المصالح. وعليه فإن أهداف الحوار الأساسية لا تكمن فيما يروم المسلمون تحقيقه فحسب، بل فيما يسعون لتقديمه للآخرين. فكل طرف ينظر من زاوية أهدافه واحتياجاته، وهو أمر مشروع، إذا ما توافق مع أهداف بقية المتحاورين.

وعليه فإن الهدف من الحوار وإشاعة ثقافته، لا يكمن في إلغاء قناعات الأطراف الأخرى المتحاوره، والتوصل بها إلى قناعة فكرية واحدة من خلال الحوار، بل يكمن الهدف الأساس في التوصل بجميع الأطراف المتحاوره إلى الحقائق المعضدة بالأدلة والبراهين المنطقية، المقبولة لدى جميع الأطراف المنصفة.

ولابد، قبل الشروع في أي حوار، من استحضار النتائج، والتأمل في عواقبها، والنظر في مآلاتها، وإجراء الموازنة بين ذلك كله، ومن ثم الإقدام عليه. ومن الضروري أن ينطلق الحوار من موقع القوة والثقة بالنفس، والقناعة المقرونة بالحكمة والعقل، مع وضوح في الأهداف والأساليب والنتائج المتوخاة منه. ومن أبرز أهداف الحوار ما سيأتي في الأسطر الآتية.

## المبحث الأول: إظهار الحقائق المدعمة بالأدلة والبراهين

يروم الحوار الناجح إظهار الحقائق، دون حمل الآخرين عليها بالقسر الفكري، أو ممارسة الفرض والإكراه على مائدة الحوار؛ فقد كرست نصوص القرآن والسنة نفسي شرعية الإكراه في الدين مطلقاً: فكراً أو اعتقاداً، فالناس ليسوا موضع إكراه.

وليس الحوار في القرآن والسنة النبوية مدافعاً لتشريع الإكراه، أو الاستلاب الفكري، مما يؤكد أن غاية الحوار فيما لم تكن بغية سلب الطرف الآخر لقناعاته الفكرية بقدر ما تروم إيصال الحقائق والكشف عنها وتحقيق الأمانة في التبليغ والدعوة.

فالإسلام دين يستوعب مبدأ التنوع العقائدي، دون أن يكون لهذا التنوع أي مساس بالحقوق السياسية والاقتصادية والإنسانية لأصحابها؛ بل جميع هذه الحقوق مكفولة بمقتضى روح الدين وجوهره الثابت.

وعلى الرغم من خاتمية الدعوة الإسلامية، إلا أنها خاطبت العقل والفترة السليمة غير المعاندة، مع تأكيد قضية الاقتناع بعد إلقاء البيّنة، والإدراك، وليس فيه أدنى توجه نحو الإكراه والغضب.

تقول في ذلك المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة: "لعل من أهم انتصارات العرب هو ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم، حتى إن الملك الفارسي "كيروس" قال: إن هؤلاء المنتصرين لا يأتون كمنحربين؛ فيما يدّعيه بعضهم من اتهامهم بالتعصب والوحشية، إن هو إلا مجرد أسطورة من نسج الخيال، تكذبها آلاف من الأدلة القاطعة على تسامحهم، وإنسانيتهم في معاملاتهم مع الشعوب القديمة. والتاريخ لا يقدم لنا في صفحاته الطوال إلا عدداً ضئيلاً من الشعوب التي عاملت خصومها، والمخالفين لها في

فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنّة النبويّة

العقيدة، بمثل ما فعل العرب" (٣٣٩).

وقد أرست النصوص القرآنية هذا المبدأ الأصيل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٣٤٠). وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَيَّ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٣٤١).

كما عززت تلك المبادئ المواقف المتعددة للنبي عليه الصلاة والسلام إزاء مخالفيه، بل من أشهر في وجهه العداة والخصومة؛ ليعطي بذلك منهجاً سلوكياً في التعامل الإسلامي الأصيل.

ففي يوم فتح مكة، رغم العذاب والعنت الذي لاقاه وأصحابه من أهلها إلا أنه ﷺ عفا عنهم.. وقد قال لأهلها: (ما تظنون إني فاعل بكم؟)

قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم.. فقال النبي عليه الصلاة والسلام حينها قولته المشهورة: أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين.. فاذهبوا فانتم الطلقاء) (٣٤٢).

وذكرت كتب السير أن فضالة بن عمير بن الملوح (٣٤٣) أراد قتل النبي وهو

(339) "زيغريد هونكه"، مرجع سابق، ص ٣٥٧، ٣٥٨.

(340) سورة آل عمران: ٢٠٠.

(341) سورة المائدة: ٩٢.

(342) ابن حجر، فتح الباري، ج ٨، ص ٣٦٥.

(343) فضالة بن عمير بن الملوح الليثي. انظر ترجمته في: ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة،

يطوف بالبيت عام الفتح فلما دنا منه قال رسول الله أفضالة؟ قال: نعم، فضالة يا رسول الله. قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله. قال: فضحك النبي ﷺ، ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه<sup>(٣٤٤)</sup>.

إلى غيرها من الشواهد الوفيرة التي تتعامل مع اللين والرفق والرحمة في مخاطبة الآخرين.. ولم يحاول يوماً أن يصادر عقل مخالفيه، أو يقمع أصواتهم لوجهة نظر - أو رأي مخالف.

وهذا ما حدا بأوجيست كونت رائد المدرسة الوضعية أن يقول عن الإسلام (لم يصادر الإسلام العقل وإنما أعطى له قدرة على التحرر والتفكير والتبصر والقدرة على الإبداع الفني والجمالي والعمراي، ولا يمكن لدين أن يفعل هذا إلا إذا كان ديناً يستحق أن يُدرس بعمق.

وتتمد هذه التعاليم النبوية إلى جيل الصحابة ليجعلها النبي عليه الصلاة والسلام أساساً أصيلاً لتعامل المسلم مع مخالفيه في العقيدة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ يَهُودِيٌّ بِسُوقِ الْمَدِينَةِ: لَا وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ، قَالَ: فَرَفَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَدَهُ فَصَكَ بِهَا وَجْهَهُ، قَالَ: تَقُولُ هَذَا وَفِينَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ!، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ

تحقيق: علي محمد الجاوي، دار الجليل، بيروت، ١٩٩٢م، ج ٥، ٣٧٢.

(344) ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ج ٤، ٣٠٨.

فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٣٤٥﴾ فَأَكُونَ أَوَّلَ مَنْ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَإِذَا مُوسَىٰ آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أُدْرِي أَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلِي أَمْ كَانَ مِمَّنْ اسْتَشَىٰ اللَّهَ، وَمَنْ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ" (٣٤٥).

فإذا لم يكن ثمة حقيقة ظاهرة مدعمة بدليل، فلا مجال لفرضها أو التشدق بها مطلقاً مع المخالف.

وهكذا فإن من أبرز أهداف الحوار تأكيد أن الغاية الأساس منه ليست الوصول بالطرف الآخر إلى قناعة المحاور وإلغاء قناعة الطرف الأول الفكرية وإنما هي إظهار الحق المدعم بالبراهين والأدلة.

وليس من لوازم كل حوار الوصول إلى اتفاق ما، لكن من اللازم والضروري أن لا يكون الحوار مدخلاً إلى الصراع والنزاع، وإنما إلى مزيد من الحوار ومحاولات اللقاء والتعايش. فبالتأني والصبر قد تتكشف الحقائق، وبالعصبية والعنف يزداد كل طرف تمسكاً بمنطلقاته الفكرية والسلوكية ورفضاً لما عند الآخر من أفكار وسلوك، وهذا بدوره يؤدي إلى مزيد من العزلة والتفوق، فمزيد من التوجس والخوف، ثم إلى مزيد من الصراع والنزاع.

ولعلّ موقف المسلمين المهاجرين إلى الحبشة من النجاشي، من المواقف الواضحة في ذلك. فقد خرج المسلمون وهم في ضيق وشدة إلى أرض الحبشة، وما لبثوا أن جاءت رسل قريش تتبعهم.

(345) رواه الترمذي وقال عنه حسن صحيح، تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، رقم ٣١٦٨.

وعلى الرغم من شدة حاجتهم إلى الملجأ، إلا أن ذلك لم يكن مانعاً عن قول الحق  
أمام النجاشي حين بدت دواعيه في الأسئلة المطروحة عليهم من قبله، حول دين الإسلام  
واعتقادهم؛ وظهر ذلك جلياً في الحوار التالي، الذي دار بينهم وبين النجاشي:

روى ابن كثير في البداية والنهاية عن أبي موسى قال أمرنا رسول الله أن ننطلق  
مع جعفر بن أبي طالب إلى أرض النجاشي فبلغ ذلك قريشاً، فبعثوا عمرو بن العاص  
وعمارة بن الوليد وجمعوا للنجاشي هدية، وقدموا على النجاشي، فأتياه بالهدية فقبلها  
وسجدوا له.

ثم قال عمرو بن العاص: إن ناساً من أرضنا رغبوا عن ديننا، وهم في أرضك.  
قال لهم النجاشي في أرضي؟ قالوا: نعم. فبعث إلينا، فقال لنا جعفر: لا يتكلم منكم  
أحد، أنا خطيبكم اليوم. فانتبهنا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه وعمرو بن العاص  
عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس، وقد قال له عمرو وعمارة: إنهم لا  
يسجدون لك، فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان: اسجدوا للملك.  
فقال جعفر: لا نسجد إلا لله عز وجل، فلما انتهينا إلى النجاشي قال ما منعك أن  
تسجد؟ قال: لا نسجد إلا لله. فقال له النجاشي: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث فينا  
رسولاً، وهو الرسول الذي بشر به عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام من بعده اسمه  
أحمد، فأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، ونقيم الصلاة ونؤتي الزكاة، وأمرنا  
بالمعروف، ونهانا عن المنكر. فأعجب النجاشي قوله. فلما رأى ذلك عمرو بن العاص  
قال: أصلح الله الملك إنهم يخالفونك في عيسى بن مريم. فقال النجاشي: لجعفر ما  
يقول صاحبكم في ابن مريم؟ قال: يقول فيه قول الله هو روح الله وكلمته أخرجته من  
العدراء البتول التي لم يقرها بشر، ولم يفرضها ولد. فتناول النجاشي عوداً من الأرض

فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنة النبوية



فرفعه فقال: يا معشر القسيسين والرهبان ما يزيدون هؤلاء على ما نقول في ابن مريم، ولا وزن هذه، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده فأنا أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي بشر به عيسى، ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته، حتى أقبل نعليه، امكثوا في أرضي ما شئتم، وأمر لنا بطعام وكسوة. وقال: ردوا على هذين هديتهما<sup>(٣٤٦)</sup>.

ولعل هذا الهدف أقرب إلى التحقيق، وأدعى إلى التعايش على أساس هذه المشتركات، وخاصة بين الأديان: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٣٤٧)</sup>. ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٣٤٨)</sup>..

ولا يعني قبول الإسلام بوجود أصحاب الأديان الأخرى والملل المخالفة، إقراره للكفر، مطلقاً، بل يعني إيقاعه المسؤولية الشخصية لكل فرد على اختياره كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾<sup>(٣٤٩)</sup>.

فليس ثمة سبيل ناجح لدعوة الناس إلا عن طريق الحوار الهادئ الحرّ، والله عز وجل هو الذي يتولى الفصل بين العباد يوم القيامة. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا

(346) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٣، ص ٧٠.

(347) سورة آل عمران: ٦٤.

(348) سورة العنكبوت: ٤٦.

(349) سورة الكهف: ٢٩.

وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٣٥٠﴾. فالحرية الممنوحة للإنسان حرية تتضمن مسئوليته الكاملة عن اختياره بعد عرض الحقائق المدعمة بالبراهين والأدلة أمامه.

وقد رفض النبي عليه الصلاة والسلام أن يعاقب أحداً على اختيار دينه على الإسلام، كتابياً كان أو مشركاً.

ومن ذلك أن سهيل بن عمرو<sup>(٣٥١)</sup> حين فتح المسلمون مكة أرسل ابنه عبد الله إلى النبي ﷺ يطلب له جواراً فلما التقى عبد الله بالنبي عليه الصلاة والسلام فقال: تؤمنّ أبي يا رسول الله؟ قال نعم: هو آمن بأمان الله، فليظهر لعمرى أن سهيلاً له عقل وشرف، وما مثل سهيل جهل الإسلام.. فخرج عبد الله إلى أبيه فأخبره، فكان يقبل ويدبر وهو آمن دون أن يسلم، بل وخرج بعد ذلك في جيش النبي ﷺ إلى حنين وهو على شركه حتى أسلم بعد ذلك في الجعرانه<sup>(٣٥٢)</sup>.

(350) سورة الحج: ١٧.

(351) سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر. ويكنى أبا يزيد. وكانت له صحبة، رحل إلى الشام للغزو في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ، وكان يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: مقام أحدكم في سبيل الله ساعة خير من عمله عمره في أهله قال سهيل بن عمرو فأنا أربط حتى أموت ولا أرجع إلى مكة أبداً، فلم يزل بالشام حتى مات بها في طاعون عمواس سنة ثمانٍ عشرة في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ. بنظر ترجمته في: محمد بن سعد بن منيع الزهري، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ج٧، ص ٤٠٤.

(352) أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، تحقیق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م، ج٣، ص ٣١٧. السيرة الخلية، ج٣، ص ٥٦.

وقد ذهب الإسلام إلى أبعد من ذلك حين قرر احترام حرية الآخر في الاختيار، حتى ولو كان ذلك الاختيار خطأ. وجاءت الآيات القرآنية مكرسة لهذا المبدأ مقرررة له. قال تعالى: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ. قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾<sup>(٣٥٣)</sup>.. فوصف اختيار النبي عليه الصلاة والسلام للحق، وهو على حق، بأنه إجرام (في نظرهم). ووصف اختيارهم للباطل، وهم على باطل، بأنه مجرد عمل، ثم ترك الحكم لله. وفي هذا أعظم أدب للتعاور مع المخالف. إضافة إلى ما تحمله الآية من تقريرٍ لاحترام حرية الاختيار، وليس احتراماً للخطأ كما قد يتوهم البعض.

### المبحث الثاني: التفاهم والتعاون للخروج من مرحلة الأزمة

من أبرز أهداف الحوار، تحقيق الأمر الإلهي القاضي بتعزيز روابط: التفاهم، والتعايش، والتعارف بين شعوب العالم وأُمَّه. ذلك الأمر الذي أكدته النصوص القرآنية كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(٣٥٤)</sup>. فالتعارف رسالة الإسلام الكبرى، وغايتها العظمى، التي لا ينبغي تغييبها في ظل الأزمات الخانقة التي يمرّ بها العالم. وثقافة الحوار من أهم وسائل التعارف والتعايش خاصة في ظل الظروف العصيبة.

والعالم بأسره يعيش اليوم مرحلةً يمكن أن نطلق عليها: مرحلة الأزمة. فالأزمات

(353) سورة سبأ: ٢٥-٢٦.

(354) سورة الحجرات: ١٣.

لم تعد محصورة على جانب واحد من ميادين الحياة، بل امتدت لتشمل جُلّ ميادينها، إن لم نقل كلها. فالعالم يعاني من سلسلة متواصلة من الأزمات الأخلاقية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.. التي لا سبيل للخروج منها إلا بتكاتف جهود الجميع على اختلاف توجهاتهم وتعدد أجناسهم واهتماماتهم.

يقول "مراد هوفمان" في سياق الحديث عن معاناة العالم اليوم: "لقد غدت الجماهير العريضة نتيجة ممارستها الواقعية للذاتية وللنسبية تعيش نوعاً من الإلحاد الساذج المسطح الأبعاد، متمثلاً في عبادة آلهة جديدة هي: السلطة، والثراء، والجمال، والشهرة، والجنس. لقد رضي هؤلاء -الملحدون بالممارسة- الاطمئنان والركون إلى العلوم الطبيعية، عوضاً عن الدين، الذي أقصته وهجرته" (٣٥٥).

ولا يمكن لمثل هذا التعاون أن يتم إلا في أجواء الحوار، وأروقة التفاهم السلمي بين الشعوب والهيئات والمؤسسات والحكومات. وعليه فإن من أبرز أهداف الحوار، الانتقال إلى مرحلة التفاهم القائم على احترام وجهات النظر، وتبادلها بغية التوصل إلى الخلاص من مرحلة الأزمة.

وثمة مشاكل وصراعات باتت تهدد أمن العالم كله، لا يستطيع إنكارها أو التغاضي عنها أحد: كالحروب وآثارها، والتفسيخ الأسري، والفقر، والجهل، والتدهور الأخلاقي، وفقدان الأمن والاستقرار.... كل هذه الأزمات، وغيرها مما يضيق المقام بذكره، يمكن أن تشكل نقاط التقاء، وقواسم اهتمامات مشتركة بين جميع أطراف الحوار. إضافة إلى أن التوصل إلى حلول جذرية لمعالجتها، أمر يهم جميع الأطراف، بلا

(355) "مراد هوفمان"، الإسلام كبديل، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص ٣٥.

استثناء. فالعالم يتوق إلى السلام والأمن والاستقرار في ظل أوضاعه المتردية حالياً.

وثمة دعاوى بالغة الخطورة باتت تهدد كيان الأسرة والمجتمع العالمي على حد سواء، يمكن أن يهدف الحوار إلى معالجتها ومواجهة أخطارها، مثل دعاوى الإباحية في السلوك، وسفك الدماء، واستباحة الأموال، وتغذية النزعة الاستهلاكية للمادية في الإنسان. وزلزلة الثوابت الفطرية التي أرادها الله لصالح الحياة الإنسانية.

وقد عبر الأمير "تشارلز" قبل أعوام مضت عن طبيعة القلق المتزايد في الغرب، بشأن تلك الأوضاع حيث قال: "إن المادية المعاصرة أحدثت خللاً مروعاً في حياة الفرد والمجتمع، لأنها مادية فقدت عنصر التوازن الضروري لحياة سوية متناسقة متكاملة. ولقد بدأنا نحن أبناء العالم الغربي نشعر بأننا قد فقدنا الإحساس الكلي بالكون، والبيئة، ومسئوليتنا الشاملة إزاء الخلق. ويمكن لنا نحن أبناء الغرب من أجل إعادة اكتشاف الفهم الأصيل لوجودنا ومهمتنا أن نلتمس العون على ذلك من التراث الإسلامي، المشبع بالنظرة الكلية الأصيلة إلى الكون والإنسان، كما يمكن الاستفادة من هذا التراث في تحسين نظرتنا نحو الأفضل في الخلافة العلمية للإنسان.. ولا شك أن انفصال العلم والتكنولوجيا عن القيم والموازن الأخلاقية قد بلغ حداً مروعاً مفرعاً... (إلى أن يقول): إن رسالة الإسلام مهمة للغرب فهي أكثر تكاملاً وتوحيداً للعالم.. " (٣٥٦).

فالشباب اليوم في العالم يبرزون للعيان - من خلال نوعية مشاكلهم، ونزعاتهم

(356) راجع نص المحاضرة في: جريدة الشرق الأوسط، العدد ٦٥٩٨، لندن، تاريخ ٢١/١٢/١٩٩٦ م.

المَرْضِيَّة، وإقدامهم المروع على المخدرات، وعُقدهم المركبة - حاجتهم الماسة إلى الشعور بالسكينة والأمان، ومقاومتهم لسطوة المادية، وعبادتها في شتى الميادين، الأمر الذي لا بد أن يقض مضاجع المهتمين، ويدفع بهم إلى مائدة الحوار حول ذلك كله.

ويندرج تحت هذا الهدف كذلك أهداف أخرى، كمناصرة قضايا العدل، ونصرة الشعوب المستضعفة. فالإسلام يقاوم الظلم، ويناصر المظلومين، من أي شعب، ومن أي جنس، ومن أي دين. والمسلم مدعو للوقوف في صف الحق والعدل والخير والحرية، ويعتبر نفسه طرفاً أصيلاً في أية مواجهة ضد الظلم أينما كانت.

وهو أمر حضّ عليه النبي عليه الصلاة والسلام، حين أشاد بحلف الفضول، الذي شارك فيه في شبابه في الجاهلية، وكان حلفاً لنصرة المظلومين، والمطالبة بحقوقهم، ولو كانت عند أشرف القوم وسراهم. وقد روى ابن إسحاق أن النبي ﷺ قال: "لو دعيت إلى مثله في الإسلام أجبته".

كما يهدف الحوار الحاصل بين المسلمين أنفسهم، إلى التفاهم حول المشاركة في الحياة داخل العالم الإسلامي الكبير، وحمل همومه، والسعي في تخليصه منها، والإسهام في تقدمه ونمائه، والرضا بما يحققه أبنائه له من نجاحات في أي مجال، والعمل يداً واحدة على تخليصه من نقائصه، وزيادة كمالاته. ولئن كان هذا الهدف يروم وحدة المسلمين في العالم، فإن دواعيه ومقتضياته في داخل الوطن الأصغر الذي يعيش فيه شعب واحد، أولى وأشد.

والعيش المشترك في الوطن الواحد، يعني قبول الطرفين بفكرة اتساع الدنيا للجميع، وضرورة التعاون على استثمار خيراتها، وإعمارها، فهذه غاية جامعة للناس أجمعين دون تمييز بينهم في ذلك بسبب الدين أو المذهب أو الطائفة داخل الدين.

## المبحث الثالث: الترقى بالذات

فالثقافة التي لا ترى إلا ذاتها، وتلغي ما عداها، هي المقدمة النظرية لسلوك عدواني تجاه الآخر المختلف مطلقا، أيا كانت درجات ذلك الاختلاف. وبذلك تصبح الذات لا ترى إلا قناعاتها، ومن ثم تعمل على التخلص من كل ما يخالف تلك القناعات وتلغيه.

فالحوار نوع من مشروع إصلاح الذات، وتخليصها من سموم الثقافة العدوانية، التي ما هي إلا مرحلة متقدمة من تغييب الآخر، وإغائه لمجرد مخالفته للذات في الأيدلوجية، أو الموقف، ونحو ذلك.

والحوار خطوة ضرورية لتخليص الأفراد والمجتمع من طوفان الاستبداد الفكري، القائم على احتكار الحقيقة، وتعرية الآخر منها، على الرغم من أن المسلم لا ينبغي له ادعاء الإحاطة بكنه الحقيقة.

وقد أدرك علماءنا السابقون - رحمهم الله - هذا المغزى الدقيق في الحوار. وعلى هذا اعتبروا وجود المخالف، بل وجود العدو ضرورة لمعرفة الذات، وتخليصها من عيوبها وخفاياها، التي غالبا ما تنكشف عند احتكاكها بالآخر المخالف. فالتواصل مع الآخر عن طريق الحوار والتبادل المعرفي مرآة حقيقية، تنكشف من خلالها مصداقية الأفكار، والرؤى، وسلامة التصورات أو خللها.

من هنا كان الحوار مع الآخر من أهم وسائل إعادة العلاقة بين الذات والغير على أسس القبول، والتعددية، والاعتراف الضمني بمشروعية الاختلاف، ونسبية الحقيقة، وإمكانية التصويب الفكري.

وقد أوضحت الدراسات الاجتماعية، والبحوث في ميدان الإدراك الاجتماعي، خطورة غياب الحوار بين الأفراد، الذين يعيشون في مجتمع واحد في تكوين وإصدار أحكام مسبقة على الآخرين، يتم من خلالها ظهور صور نمطية جامدة. ويتم من خلال عملية التنميط تلك تصور الفرد لجميع أعضاء الفئة، أو الجماعة، بطريقة متشابهة، متغاضياً عن الفروقات الفردية الموجودة بينها، وبحكم هذه العملية المعرفية، يقوم الفرد بحشر جميع أفراد هذه الفئة، أو الجماعة، في صورة نمطية جامدة بناءً على معرفته البسيطة، أو السطحية لبعض أفرادها، أو تجربة عابرة مع بعض أفرادها ويحدث هذا غالباً عندما يتعذر الاتصال والحوار والتفاعل بين الفرد والآخرين من تلك المجموعة.

كما يحدث أولاً من خلال تحديد الفرد، أو جماعة ما، لفئة من الأفراد (مبدأ التصنيف) ثم قيامه بعزو (Attribute) مجموعة من الخصائص والسمات إلى هؤلاء الأفراد، ثم في النهاية التعميم، فيعزو تلك الخصائص إلى أي شخص ينتمي إلى هذه المجموعة<sup>(٣٥٧)</sup>. وقد يشترك عدد من أفراد المجتمع بهذا التصور، وتنتشر فيه حتى تصبح ظاهرة مؤثرة في إدراكهم، وسلوكهم تجاه تلك الجماعة النمطية (Stereotyped). ويرى أصحاب الاتجاه الاجتماعي عامة، والعالم "تاجفل" بصفة خاصة، أن تكوين هذه العملية يتأثر كثيراً بثقافة المجتمع، وقيمه، ومعايره، وبالتصورات المتبادلة بين الجماعات الاجتماعية داخل المجتمع<sup>(٣٥٨)</sup>.

(357) Paul F. Secord and Carl W. Backman, Social Psychology (New York: McGraw-Hill). 1974, p. 15.

(358) Henri Tajfil, Individuals and Groups in Social Psychology, British Journal of Social and Clinical Psychology, vol, 18(1979), pp. 183-190.



من هنا فقد حمل القرآن الكريم على عملية التمييز حملةً واسعة، فلا تكاد تجد آية، أو نصاً قرآنياً يتحدث، عن أهل الكتاب مثلاً، إلا وخصَّ بكلمة: فئة، أو طائفة، أو كثير، أو قليل، مؤكداً في ذلك كله على عدم شرعية التمييز في العلاقات الإنسانية. وهو أمر تعززه علاقات التعارف، والتعايش السلمي بين الناس، ليذكر الفرد في مجتمعه أن الناس "ليسوا سواءً" (حسب اللفظة القرآنية). والحوار والانفتاح على المخالف والتعامل معه، من أهم وسائل تخليص الفرد والمجتمع من النمطية والأحكام المسبقة.

إن مثل هذا التحليل، والفهم لطبيعة العلاقات الاجتماعية بين الجماعات في المجتمع، هو الذي يمكن أن يساعدنا على معرفة أسباب لجوء الجماعة الداخلية إلى التمييز السلبي للجماعة الخارجية، (المخالفين في الدين)، وإضفاء عدد من السمات السلبية عليها، مما يساعد في مرحلة لاحقة في تبرير اضطهادها، أو استغلالها، وقد يسوّغ لها معاملتها التمييزية والتعصبية ضدها<sup>(359)</sup>. وستقف هذه الدراسة لاحقاً على خطورة التمييز بين أبناء الدين الواحد، أي بين المسلمين أنفسهم.

من هنا تتأكد فريضة الحوار بين المسلمين ومخالفهم في المجتمعات المختلفة، سواء أكانت تلك التي يشكل المسلمون فيها أغلبية أو أقلية. فالحوار وسيلة وقائية لعدد هائل من الأمراض والأوبئة الاجتماعية، التي ربما لا يدرك الأفراد خطورتها، إلا عند وصولها حدّ الخطر والإنذار، وقد تصبح مستعصية على العلاج آنذاك.

---

(359) Tajfil, Social Stereotypes and Social Groups(Little Brown Co) 1980. pp.123.

## المبحث الرابع: التلاقح الحضاري

من أهم أهداف الحوار: تحسين علاقة الإنسان بالإنسان، بل الدول بالدول. ذاك أن تلك العلاقات، إن قامت على أساس الحوار، واعتمدت المنطق، الذي يقوم على العقل، كُتِب لها النجاح. من هنا كان الإسلام أول الأديان التي دعت إلى الحوار بين أصحاب الديانات والحضارات الأخرى. كما أن اللقاء الحضاري الإسلامي مع حضارات الأمم المختلفة قد تم على أساسٍ وطيّد، ربما لم يتم التوصل إليه من قبل الكثيرين، إلا في مرحلة متأخرة.

فالعالم في نظر الإسلام أقرب ما يكون إلى متندى عالمي، لحضارت متميزة، تشترك أممها في عضوية هذا المتندى، ومن ثم فلا بد أن يكون بينها مشتركٌ حضاريٌّ عام، كما لا بد أن تكون لكل منها مميزات حضارية تحفظ لها هويتها<sup>(360)</sup>.

والحوار ضرورة حتمية، لا تستغني عنها أي حضارة في سبيل تطوير ذاتها. فمن المعروف أن عملية التلاقح الحضاري، تتم من خلال الاقتباس والنقل والتبادل المعرفي، وهذه أمور متداولة بين الشعوب قاطبة. فكل حضارة أبدعت، ونقلت، وأخذت، وأعطت، ولم توجد حضارة أبدعت، ولم تنقل عن غيرها، فالنقل، والتلاقح، والتفاعل، والأخذ، والعطاء الثقافي، ليس وباء، وإنما ضرورة حضارية وظاهرة صحية<sup>(361)</sup>.

---

(360) محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، طبعة الأزهر، ١٩٨٨م، ص ٨. وانظر كذلك: أحمد عبد الرحيم السايح، في الغزو الفكري، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، رجب ١٤١٤هـ، ص ١٢٢.

(361) بتصرف: محمد عبد الرحمن مرحبا، أصالة الفكر العربي، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٨٢م، ص ١٥٢.

ولم يكن المسلمون في يوم من الأيام معزولين عن غيرهم من أصحاب الثقافات العريقة. فقد اختلطت الثقافات، وتزاوجت في حركة ثابتة مستمرة، مما أدى إلى عمليات تصفية للأفكار، والمعارف، وتقدمها تبعاً لذلك الاختلاط والتزاوج الثقافي.

في مثل تلك الأجواء ظهر الإسلام وترعرع، فلم ينتشر في فراغ حضاري، فقد كانت الأمم والشعوب التي دخلت فيه، ذات حضارات شتى ومشارب فكرية عدة. فاختلطت الثقافات، وتمازجت الأفكار، وكان الحوار وثقافته سيّدا الموقف، ووسيلتنا التبادل الحضاري الفكري. وعلى هذا فقد عرف المسلمون حضارة الهند، وحكمة فارس، وفلسفة اليونان، واختلط المسلمون بأقوام شتى تنوعت عقائدهم، وتشعبت آراؤهم، والتقوا بمئات المفكرين والمثقفين من أمم شتى، فشاع الحوار الثقافي، الذي كان مدعاة للتفاعل الحضاري، والذي هو من أهم سمات الحضارة الإسلامية.

يَبْدُ أن هناك ضابطاً لا ينبغي تجاهله في أثناء إجراء هذا الحوار، يقوم على ضرورة التمييز بين ما هو مشترك إنساني عام، لا غضاضة في الانفتاح عليه وتقبله، والسعي في تحصيله، وبين ما هو خاص بالأمة ذاتها؛ فلا يفهم من الحوار والتلاقح الحضاري، أنهما أدوات لتذويب الثقافة والهوية الحضارية لأمتنا.

فلقد اختلط الأوروبيون بمن هم أرقى منهم، فاستفادوا من الحضارة الإسلامية، مما أسهم في النهضة الأوروبية الحديثة. إلا أنها استفادت فيما هو مشترك إنساني عام ولم تأخذ من الحضارة الإسلامية خصوصيتها الإسلامية. يقول في ذلك المؤرخ "ستانود كوب" Stanwood Cobb: "قليلون من هم على علم بما أسهم به العالم الإسلامي من جهود متميزة في تقدم الإنسانية، حتى في عصرنا المستنير، في حين أن

هذه الحضارة لم تكن تقود العالم في مجالات العلم طيلة خمسة قرون فحسب، وإنما استوعبت كل طاقة الإنسانية في السعي المنظم وراء المعرفة خلال تلك الفترة"<sup>(٣٦٢)</sup>.

فلقد أجمعت تيارات فكر النهضة الغربية على رفض أبرز خصائص الحضارة الإسلامية، المتمثلة في التوحيد، مما صبغ الحضارة الغربية بطابعها المادي البحت. ومن أبرز الأدلة على ذلك أن أوروبا عندما أخذت من فلسفة ابن رشد إنما أخذت عنه شروحه على أرسطو حكيم اليونان. أما ما يتعلق به كفيلسوف مسلم فقد رفضته أوروبا، ولم تأخذ منه شيئاً. يقول "الفريد جيوم" في ذلك: "إن علينا أن نضع حداً فاصلاً بين ابن رشد كفيلسوف وابن رشد كشارح لأرسطو"<sup>(٣٦٣)</sup>.

وعلى هذا ينبغي تعزيز مبدأ شرعية الاختلاف الحضاري، والخصوصية الذاتية للأمم والحضارات، مع التأكيد على أن الاعتزاز بالهوية والخصوصية الحضارية، لا يعني الانغلاق وتجاهل الحضارات الأخرى، وادعاء التميز عليها، ورفض نتائجها الإنساني. فالتاريخ الحضاري في مجمله ثمرة الجهد الهائل، والمتراكم للمسيرة الإنسانية على مدار التاريخ.

وتأسيساً على هذا، كانت الحضارة الإسلامية حضارة علمية وإنسانية منفتحة، قابلة لاستيعاب كل أنواع الثقافات التي احتكت بها. فلا تعارض بين الحفاظ على الهوية وبين الأخذ والاقْتباس من الحضارات الأخرى"<sup>(٣٦٤)</sup>.

---

(362) "ستانوود كب"، المسلمون في تاريخ الحضارة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية/

١٤٠٥/١٩٨٥م، ص ٢١.

(363) "الفريد جيوم"، الفلسفة وعلم الكلام، بحث منشور ضمن كتاب تراث الإسلام، ص ٣٩٤.

(364) بتصرف عن: علي فهد الزميع، منهج التواصل بين حضارات العالم، بحث مقدم للمؤتمر الثامن. مرجع

سابق، ص ٣.

ولعل الظرفية التاريخية التي يعيشها المسلمون على وجه العموم اليوم، تعد رغم صعوبتها من أكثر الظروف ملائمة لمراجعة الحوار مع الغرب، في محاولة لنشر عالمية الإسلام، وقدرته الاستيعابية لأحداث العالم وتداعياته، وانفتاح المسلمين على كل الحضارات والمبادئ البناءة، وقابليتهم للتعلم والحوار المتبادل.

ومما لا شك فيه أن الحوار من أهم وسائل التفاعل الحضاري بين الأمم، ولا ينصرف الحوار إلى الشفاهي فحسب، فقد حاور ابن رشد "توما الأكويني" (١٢٢٥-١٢٧٤م) وغيره من الفلاسفة الغربيين بعد مئات السنين من خلال كتاباته وأطروحاته.

إضافة إلى أن حوار المسلمين اليوم، يمكن أن ينصرف إلى الإفادة من الحضارات المعاصرة، وربطها بالواقع، مع الحفاظ على الثوابت الإسلامية المميزة لهوية الأمة. وكلما ازدادت فرص الالتقاء، والتفاعل، والتحاور الحضاري، كلما زادت فرص النمو، والنهضة، والنقلة الحضارية المنشودة للأمة. ويبقى الرهان قائماً على نقل التقنيات الأوروبية لدعم القيم الإسلامية المحلية.

كما أن ميزان القوى في العصر الحالي قد مال لصالح الغرب.. ولهذا فهو يسعى إلى نشر ثقافته، ونمطه الحضاري على العالم، بادعاء أنه السبيل لتحقيق حياة أفضل للبشرية من وجهة نظره..

ولهذا يلاحظ أن هناك تيارات تدعو إلى فرض نمط الحضارة الغربية، باستخدام كافة وسائل الهيمنة الثقافية والاقتصادية، وهو ما ظهر في مناسبات ومحافل دولية مختلفة مثل: مؤتمر السكان بالقاهرة ١٩٩٤م، ومؤتمر المرأة في بكين ١٩٩٥م.

ومن شأن هذه الدعوات، أن تغذي مظاهر الصراع الحضاري بين البشر، وتدخله

في حلقات جديدة أكثر عنفاً وضراوة.. ومن ناحية أخرى، فإن هناك تيارات تدعو إلى التعايش بين الحضارات والتواصل الإيجابي بينها، لإبراز العناصر التي تعزز تقدم البشرية، ويجب على جميع القوى المستنيرة في العالم، دعم هذه التيارات التي تدعو إلى احترام مختلف الحضارات. وهنا يبرز الحوار من أهم وسائل العودة إلى التفاعل الحضاري والخروج من أزمة الاغتراب والانغلاق.

### المبحث الخامس: تصحيح المفاهيم

من أهم أهداف الحوار في العصر الحاضر: تصحيح المفاهيم المشوهة، والأفكار المنحرفة التي لن يُكتب لها الاندحار إلا في أروقة الحوار الحرّ. فالأفكار المنحرفة، والتصورات الشاذة، لا يمكن لها أن تنمو وتنتشر في غير الأجواء المغلقة ذات الطابع الانكفائي.

وثمة صور ومفاهيم مشوهة، قامت وغرست بين العالم الغربي من جهة، والمسلمين من جهة أخرى. فكلا الطرفين بات اليوم يحمل صوراً قد تتغير، في كثير من الأحيان، واقع الأمر. ولا يمكن لتلك الصور أن تتغير دون إقامة حوار مثمر بناء، لا يروم التغيير لمجرد الرغبة فيه، بل حرصاً من جميع الأطراف على التوصل إلى الصورة الحقة لكل منهما لدى الآخر.

فالصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين، باتت صورةً شبه نمطية في تصور الآخر. ولعلّ ذلك يعود إلى عوامل تاريخية وسياسية متضاربة. فقد أثبتت الدراسات الحديثة والبيانات المستخلصة من استطلاعات الرأي العام ومن الدراسات التحليلية لمضامينها أن الآراء الغربية، على وجه العموم، سلبية تماماً عن العرب والمسلمين عموماً.

وأن جذور التفرغ عميقة ومتأصلة، أسهمت في تأصلها عوامل متعددة منها:  
النشر السيء في الصحف، والقوالب الذهنية السلبية، وجملة الأحداث الراهنة التي  
أساءت إلى المسلمين بشكل لا نكاد نجد له مثيلاً في هذا القرن.. وغير ذلك من  
عوامل لا تزال تسهم بوضوح في إحباط أية محاولات لنشوء علاقات حوارية. يقول  
"خوان غويتسلو" في ذلك: "إننا خاضعون لعملية غسل دماغ كامل ضد العرب  
والمسلمين"<sup>(٣٦٥)</sup>.

وتقول المستشرقة "آن ماري شيميل": "إن الخطر الإسلامي الذي يتناقله الغرب،  
كمسلمات يقينية، غير قابلة للمناقشة، بناءً على عدائتي ضد الإسلام، ترسب في النفوس  
بفعل وسائل الإعلام وكتابات بعض المستشرقين المتعصبين"<sup>(٣٦٦)</sup>.

وهكذا، فإن العالمين كليهما: المشرق المسلم، والغرب المسيحي يقفان اليوم أمام  
كومة من الحطام، والخوف، المتسلل إلى الطرفين من بعضهما البعض. ولن يتم التغيير  
لهذا الوضع، إلا في أجواء من التسامح، والفهم المتبادل، وتقبل وجهة نظر الآخر  
واحترامها، وإزالة العقبات والحواجز، التي يمكن أن تعرقل السير نحو الحوار الهادف.

فالحوار والتعايش بين الحضارات والثقافات يساهم في درجة كبيرة في التقارب  
بين الشعوب والأمم، وإزالة الحواجز المتراكمة من سوء الفهم، ومن الأفكار المسبقة

---

(365) "ميخائيل سليمان"، صورة العرب في عقول الأمريكيين، ترجمة عطا عبد الوهاب، مركز دراسات

الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٢٢٥ وما بعدها.

(366) راجع الحوار الذي أجرته معها: جريدة العالم الإسلامي الصادرة عن رابطة العالم الإسلامي، تاريخ

١٨-٢٤ نوفمبر، ١٩٩٦م، ص ٥.

المختزنة في ذاكرة الشعوب، عبر قنواتٍ فكرية تراكمية، تقوم في أغلب الأحيان على أسس غير صحيحة.

من هنا يصبح الحوار اليوم جهداً فاعلاً، وضرورة حتمية لا بد من تنميتها، والإقدام عليها، وتوسيع وسائلها؛ لتجلية المواقف، وكشف الأخطاء والتصورات، الناجمة عن الانغلاق الفكري، وتوضيح صورة الإسلام الجلية. وليس من وسيلة في العصر الحاضر أجدى وأنبج من الحوار المتكامل، القادر على التغلب على التحدي "الأيدولوجي"، الذي بات يحاصر الإسلام والمسلمين، من خلال توليد أفكارٍ جديدة وتوضيح معانيها.

وهنا تبرز أهمية دور المسلمين، بشكل خاص، في تبين الحقائق، وتوضيح المفاهيم الخطأ، وكشف الحجب الكثيفة، والتراكمات البغيضة، التي كرسَت صوراً أبعد ما تكون عن سماحة الإسلام وسمو تعاليمه، مع تجنب الأطروحات التي تدفع الشعوب نحو صدامات جديدة، تُستخدم فيها شتى أساليب القوة، وعدم احترام الإرث الحضاري للبشر.

وعلى هذا فإن الحاجة ملحة إلى التركيز على إبراز الخاصية الإنسانية في الإسلام وتعاليمه، والمنطلقات الإنسانية، المستمدة من شريعته، التي ينبغي أن تشكل نسيجاً للعلاقات والروابط الداخلية والخارجية للمسلمين. ومن هنا تبدو الأهمية البالغة لإعادة الكشف عن الحقائق الأصلية، الخاصة بمنظومة القيم الإنسانية المتكاملة، التي تميز الإسلام، والتركيز على إبراز تلك القيم الإنسانية، الأساسية والجوهرية في الخطاب الحوارية. إلى جانب أهمية ترسيخ الوعي بأبعاد الطابع الإنساني، للثقافة الإسلامية، وما



يترتب عليه من آثار إيجابية ثقافياً، وتربوياً، وسلوكياً.

والواقع بكل إفرزاته، يفرض على المسلمين اليوم، أكثر من أي وقت مضى، تصحيح الصورة المشوهة، التي ألصقت بهم وبدينهم. تلك الصورة التي باتت تشكل أشبه ما يكون بخطة استراتيجية، تحدد تعامل الآخرين مع الإسلام والمسلمين. ولا بد من التنبه إلى أهمية مواجهة ومحاور الأטרولات القاضية بذلك<sup>(٣٦٧)</sup>.

ويشكل الحوار اليوم، وفق الأهداف والأسس الرصينة، واجباً دينياً إنسانياً، وشرطاً مؤكداً للتعايش السلمي بين البشر، ومدّ أسباب التواصل مع الأمم والشعوب الأخرى. خاصة وأن الأمة اليوم تعيش تحديات حقيقية، تتطلب من الجميع: التفكير العميق، والتخطيط المتواصل، للخروج من هذه التحديات بنجاح واقتدار. بيد أن تلك الأهداف معقودة على المنهجية السليمة في رسم ثقافة الحوار وتعزيزها.

فالحوار قوة وسلاح من أسلحة السجال الثقافي، والمركة الحضارية، وهو وسيلة ناجحة من وسائل الدفاع عن المصالح العليا للأمة، وشرح قضاياها، وإبراز اهتماماتها، وتبليغ رسالتها، وإسماع صوتها، وإظهار حقيقتها، وكسب الأنصار لها، وجلب المنافع إليها ودرء المفاسد عنها<sup>(٣٦٨)</sup>.

---

(367) من ذلك ما كتبه "صموئيل هنتينغتون" أستاذ العلوم السياسية، نشرها مجلة "فورن أفيرز" الأمريكية سنة ١٩٩٣م بعنوان: "صدام الحضارات"، وهي مقالة تحذر شعوباً من شعوب، بسبب من ثقافتها ويرى كاتبها أن ثقافات بعينها- وفي طبيعتها ثقافة الإسلام وحضارته- هي مصدر الخطر، وعامل التهديد لثقافة الغرب وحضارته، بل هي العدو الواجب محاربتة والقضاء عليه. وقد نالت هذه المقالة منذ نشرها شهرة مدوية. Huntington Samuel P. 132, Foreign Affairs, summer, 1993.

(368) عبد العزيز بن عثمان التويجري، مرجع سابق، ص ١٤.

ومن تلك الأمور التي يهدف الحوار إلى معالجتها، ما يظهر بين المسلمين المخالفين من جهل بجوهر الدين ومقاصده، والاعتماد أحياناً على نصوص غير صحيحة، والأخذ أحياناً بنصوص جاءت على سبيل المجاز، وتأويلها من قبل البعض على سبيل الحقيقة، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى غبش في المصطلحات والمفاهيم، وابتناء أحكام جائرة عليها دون التريث في فهمها.

وأسلوب الحوار وحده الكفيل بتجلية ذلك الخلط واللبس، وتحديد المصطلحات والمفاهيم بدقة وعمق. ومن تلك المصطلحات: مصطلح الجهاد، وتغيير المنكر، وتطبيق الشريعة، والولاء والبراء، وغير ذلك كثير. فهذه المصطلحات باتت اليوم مدعاة للاستمرار في جدل متواصل حول ماهيتها، والمراد بها، وأهدافها... والحوار هو الأسلوب الحضاري العلمي الكفيل بتجلية تلك التصورات وإزالة اللبس فيها.

## المبحث السادس: حلّ النزاعات والخلافات

من أبرز أهداف الحوار: حلّ النزاعات التي توجد بين الأفراد والمجتمعات والدول، وكذلك العمل على تجديد الفكر الإسلامي والنهوض بالمشروع الحضاري<sup>(369)</sup>. فالتنوع والتعدد الواقع، يُفترض له أن يسهم في إثراء الفكر الإسلامي في مختلف جوانبه: العقائدية، والفكرية، والاقتصادية... لو كان ذلك يتم في إطار ممارسة الفكر بطرقه السليمة، عبر مقارعة الدليل بالدليل، والحجة بالحجة، والعقل بالعقل في حوار يفتح فيه الجميع، وتتبادل فيه الآراء، والطروحات، بموضوعية، وعلمية، بعيداً عن التعصب.

(369) وقفت الدراسة على آثار الفرقة والتحذير منها في الفصل الأول، ولم يذكر هنا لتحاشي التكرار والتطويل.

# الباب الثالث

## ضوابط الحوار وآدابه

المبحث الأول: الحوار بالتي هي أحسن.

المبحث الثاني: مراعاة حال المخاورين ومستوياتهم الدينية والثقافية.

المبحث الثالث: الإنصات والاستماع الجيد.

المبحث الرابع: التأكيد على القواسم المشتركة.

المبحث الخامس: الاحتجاج بما يكون حجة عند المتحاوّر معه.

المبحث السادس: ضوابط مساعدة.



## الباب الثالث

### ضوابط الحوار وآدابه

لا يؤتي الحوار ثماره المرجوة، دون أن يقوم على أسس واضحة المعالم، وضوابط يلتزم بها المتحاورون في ثنايا حوارهم. وقد جاءت النماذج الحوارية في القرآن والسنة النبوية تطبيقاً لتلك الضوابط والآداب، وما على الناظر إلا استنباط المعاني العظيمة منها. ومن ضوابط الحوار وآدابه ما يلي:

#### المبحث الأول: الحوار بالتي هي أحسن

ويقصد بها أن يسلك المحاور أفضل السبل، وأحسنها مع مخالفه، مهما كان موقف المخالف منه. وهو أسلوب يقتضي سمات خاصة حضت نصوص الوحي عليها كالرحمة والصفح والعفو... ومن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ فقال لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم: يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت على وجهي، وأنا مهموم، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فنادني، وقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال، فسلم علي، فقال: يا محمد! ذلك لك، فما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً<sup>(٣٧٠)</sup>.

(370) البخاري، صحيحه، مرجع سابق، برقم ٣٢٣١، بدء الخلق.

فهنا تجلت صفة الرحمة من قبل النبي عليه الصلاة والسلام، الذي عانى من قومه في سبيل الدعوة، إلا أن تلك المعاناة الطويلة لم تدفع به إلى طريق غير الرحمة والصفح عنهم.

وكذلك موقفه ﷺ مع أهل الكتاب، فقد نزلت الآيات: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٣٧١)</sup>. بعد سلسلة طويلة من الحوارات بين النبي عليه الصلاة والسلام وبين النصارى في شأن عيسى عليه السلام، ثم نزلت هذه الآية فدعاهم الله إلى التَّصَفِّ وقطع عنهم الحجة. فلما أتى رسول الله الخبر من الله عز وجل في شأن عيسى، وفصل القضاء بينه وبينهم بما أمر به من ملاحظتهم، إن ردوا ذلك، عليه دعاهم إلى ذلك. فقالوا: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه. فانصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب، وكان هذا رأيهم، فقالوا: يا عبدالمسيح! ما ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى، لقد علمتم أن محمداً لَنَبِيِّ مُرْسَلٍ، ولقد جاءكم من خير صاحبكم بالحق، ولقد علمتم ما لآعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم، إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل، ثم انصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله، فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك، وأن نتركك على دينك، ونرجع إلى ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم

(371) سورة آل عمران: ٦٤.

عندنا رضاءً. فقال لهم رسول الله ﷺ: اتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين. فأرسل معهم أبا عبيدة بن الجراح ليحكم بينهم فيما يختلفون فيه<sup>(٣٧٢)</sup>.

وهنا تبرز سمات الحلم والعفو وسجاياه ﷺ مع مخالفيه، وصبره الطويل معهم، رغم جهلهم وعنادهم.

وقد تحوّل هذا السلوك النبوي إلى مظهر من مظاهر تعامل المسلمين مع مخالفهم: من المشركين، وأهل الكتاب، بشكل عام. فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: وكان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصطبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿تُبَلَّوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾<sup>(٣٧٣)</sup> وكان النبي ﷺ يتأول العفو ما أمره الله به<sup>(٣٧٤)</sup>.

وتتوالى التوجيهات النبوية، يجعل هذا السلوك طابعاً عاماً، تتسم به معاملات المسلمين مع غيرهم. فمن ذلك أيضاً ما ذكرته عائشة رضي الله عنها أن يهوداً أتوا النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم (أي الموت) فقالت عائشة: عليكم، ولعنكم الله وغضب الله عليكم. قال: مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش. قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: أو لم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم؛ فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم في<sup>(٣٧٥)</sup>.

(372) أبو الربيع سليمان بن موسى، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٧٤-٣٧٥.

(373) سورة آل عمران: ١٨٦.

(374) العسقلاني، فتح الباري، مرجع سابق، ج ٨، ٤٥٦٦.

(375) العسقلاني، فتح الباري، ج ١٠، ص ٦٠٣٠.

ومن الوسائل الأخلاقية التي يمكن أن تعزز فوائد الحوار، روح التواضع التي يتمتع بها المحاور. فكلما زادت حقيقة التواضع فيه كلما ازداد في داخله إحساساً بالجهل، بينما هو في الواقع يتنامى علماً وبصيرة.

وعلى العكس من ذلك، فإن التكبر، والاستعلاء، يغري الإنسان بإحساسٍ كاذب بالكمال، والاكتفاء، فينكر أفكار غيره، بينما هو يتضاءل جهلاً وعمياً. إن عدم تعالي كل طرف على الآخر خلال الحوار مهم، فلعلّ ثمة حقاً لدى الآخر يُكتشف أثناء الحوار. قال تعالى حاكياً قول النبي ﷺ وهو يحاور المشركين من قومه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٣٧٦)</sup>. فإن الحوار بهذه النفسية أكثر عوناً لكل من الطرفين على قبول الحق، الذي يتكشف له، وصحيح أنه لا بد أن أحد الطرفين على الهدى والطرف الآخر على الضلال، لكن ذلك ينبغي أن يتم التوصل إليه من خلال الحوار، لا قبله. إن الحق واحد لا يتعدد، ولكن الحوار بقلب يقظ وعقل مفتوح ورغبة وجدانية بالوصول إلى الحق سيوصل إليه حتماً.

بل إن مبعث الحوار مع المخالف، إنما هو الرحمة به، والرغبة العميقة الصادقة في إيصاله إلى الحق. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لن تؤمنوا حتى ترحموا. قالوا: كلنا رحيم يا رسول الله. قال: إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة الناس، رحمة العامة"<sup>(٣٧٧)</sup>.

(376) سورة سبأ، ٢٤.

(377) العسقلاني، فتح الباري، مرجع سابق، ج ١٠ / ٤٥٣.



وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين. قال: إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة" (٣٧٨).

يقول ابن حجر في تعليقه على حديث: من لا يرحم لا يُرحم. قال ابن بطال: فيه الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق، فيدخل المؤمن والكافر، والبهايم، المملوك منها، وغير المملوك... (٣٧٩).

لقد خط الإسلام بهذا النهج أنموذجاً في الرحمة والعدالة والإنصاف لتعميق مفهوم الضمان والتكافل الاجتماعي في الدولة الإسلامية، بقطع النظر عن المخالفة في الدين، والمعتقد، التي لم تكن في يومٍ ما مانعاً من إنسانية الأفراد، وتعاونهم في الخير والبر. فبدون تلك المواصفات لا تستقيم الحياة ولا يمتد خيرها.

### المبحث الثاني: مراعاة حال المحاورين ومستوياتهم الدينية والثقافية

راعى القرآن الكريم والسنة النبوية مستويات الأطراف المتحاورة وخلفياتهم الثقافية والدينية والفروق الفردية، فجاء الحوار متنوعاً متدرجاً، فكان الحوار في العهد المكي يختلف عن الحوار في العهد المدني، من حيث المضمون والأسلوب. كما تباين الحوار وأساليبه حتى في العهد الواحد، باختلاف الطرف المتحاور معه.

فالحوار مع الكافر الجاحد المعاند العنيف في مواجهة الدعوة، يختلف في الأسلوب والطرح والمضمون عن الكافر المتحير، أو الشاك الهادئ. فأساليب الحوار وأهدافه

(378) رواه مسلم، ٢٥٩٩.

(379) العسقلاني، الفتح، ج ١٠، ص ٤٥٥.

جاءت متباينة لتبني برمتها رؤية إسلامية شاملة للحوار مع الآخر، غير متوقفة على أزمته التنزيلي ليتعامل أهل كل زمان ومكان مع تلك التوجيهات والتعاليم من خلال طبيعة الحالة التي يعيشونها.

بل إن مواصفات الحوار التربوي تختلف عن مواصفات الحوار في مجالات أخرى، كمجال البناء الاجتماعي، أو إقامة العلاقات الاجتماعية مع الآخر.. كما كانت مواصفات الحوار وأهدافه في العهد المكي، الذي اتسم بالاستضعاف، تختلف عن مواصفات الحوار في العهد المدني، المتسم بالتمكين والبناء. وكانت توجيهات القرآن والسنة في ذلك كله محددة الطريق لبناء حوار متكامل، يشمل حالات متعددة ومتنوعة، تتعرض لها البشرية في مختلف الأزمنة والظروف.

عن عبد الله قال جاء يهودي إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد إن الله يمسك السموات على أصبع والأرضين على أصبع، والجبال على أصبع، والخلائق على أصبع، ثم يقول: أنا الملك. قال: فضحك النبي ﷺ، حتى بدت نواجذه، وقال: وما قدروا الله حق قدره (٣٨٠).

ففي هذه القصة، يتبين لنا أن النبي عليه الصلاة والسلام أدرك بحسه الثاقب مستوى السائل والمتحاور معه، فلم يزد عن التجاوب معه، وفق ذلك المستوى، وبناء عليه. وهو أمر في الواقع يستدعي فهم المحاور لأطراف الحوار ومستوياتهم وخلفياتهم الثقافية والفكرية.

وقد يلحظ القارئ لتلك الأساليب المتنوعة في الحوار المتعددة في الأهداف

(380) رواه مسلم في صحيحه، ج ٤، ص ٢١٤٧. حديث رقم: ٢٧٨٦. رواه الترمذي، مرجع سابق، ج ٥،

ص ٣٧١. حديث رقم: ٣٢٣٨. تفسير الطبري، مرجع سابق، ج ٢٤، ص ٢٦.

والوسائل، ما يمكن أن يتوهم فيه وقوع نوع من التعارض، وعدم إمكانية التوفيق بينها جميعها في آن واحد. بيد أن القراءة الشمولية، البعيدة عن الانتقائية والتعضية، سرعان ما تبدد ذلك التوهم الناجم عن اضطراب في الفهم، واستقطاع في القراءة.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق، تأكيد أهمية المواصفات الخاصة التي ينبغي توافرها لدى الأطراف المحاورّة: من إدراك للفوارق والمستويات، واستيعاب لحال الأطراف المتحاور معها، وتخصصاتهم، وخلفياتهم. الأمر الذي يستدعي توافر أنماط شمولية من الشخصيات المحاورّة، تنطلق من مرجعية شرعية واضحة المعالم، راسخة الأهداف، مستوعبة للتدرج والتباين في هيكلية الحوار، لتتمكن من تحقيق النقلة النوعية المطلوبة في الحوار.

إن عدم استيعاب النظرة الشمولية للحوار، وأهمية تنوع أساليبه، وتعدد أهدافه في الكتاب والسنة، يمكن أن يؤدي إلى نوع من التجزئة الفكرية، والنظرة التفكيكية المؤدية إلى تعميم جوانب مرحلية معينة، في الحوار مع الآخر، على جميع الحالات، وجعلها لوناً واحداً، وإلغاء أنماط في الحوار مع الآخر، لا يمكن أن تتحقق الأهداف بدونها. من هنا كانت أهمية النظرة الشمولية، وضرورة الدراسة المستوعبة لمختلف الأساليب والوسائل.

### المبحث الثالث: الانصات والاستماع الجيد

أثبت علماء النفس الاجتماعي أن الاستماع الجيد إلى الآخرين ليس بالضرورة ينتهي إلى التأثير الكامل فيهم، إلا أنه يزيد من أواصر المحبة والتقارب الروحي، والعاطفي بين الناس..

كما أن من أبرز سمات العظماء، وأصحاب النفوذ والتأثير في المجتمعات، هي الاستماع والإصغاء إلى كلام الآخرين..

فليس كثرة الكلام دليلاً على قوة الشخصية، ولا قوة التأثير، بل ربما - أو في الغالب - ينتهي كثرة الكلام إلى ما لا يحمد عقباه من النتائج.. فإن الكلام الكثير يعرّض صاحبه إلى الوقوع في الأخطاء الكثيرة أيضاً، والدخول في مجالات بعضها هامشية، قد تضر ولا تنفع، مضافاً إلى أن الملل الناجم منه ربما ينزل بمستوى الحديث إلى مصاف الحديث العادي، والكلمات فاقدة القيمة، أو الشعارات التي تفتقد إلى المزيد من الواقعية..

ويتضح ذلك جلياً من خلال مواقف النبي عليه الصلاة والسلام، المتواصلة مع مخالفه. فقد كان عليه الصلاة والسلام يحسن الاستماع إليهم، مهما بلغت سفاهة طرح الطرف المقابل، أو غلظة أسلوبه وجفاوته.

يروى أن عتبة بن ربيعة، وكان سيّداً، قال يوماً، وهو جالس في نادي قريش، والنبي جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد، فأكلمه، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا، وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أن أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرون. فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلّمه. فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله، فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السلطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفّحت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم. فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها. فقال له رسول الله قل: يا أبا الوليد أسمع. قال يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت

به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً لا تستطيع رده من نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه، أو كما قال له. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يسمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال: أفعل. قال: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿حَم. تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ﴾<sup>(٣٨١)</sup>. ومضى رسول الله فيها يقرأها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يستمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك<sup>(٣٨٢)</sup>.

فالقدره على الاستماع، هي الأداة الرئيسية للوصول إلى تفاهم وتواصل مثمر بين الناس، خاصة في مواقف الخلاف والصراع، وفي تخفيف الميول العدوانية في لحظات التوتر والانفعال العنيف.

ومن فوائد الإنصات في الحوار: مشاركة الآخرين وفهم وجهة نظرهم، وتقديرها والتعبير عن الذات، وتأكيدها. كما تكمن القدرة على الإصغاء في قدرة الفرد على إعادة صياغة أفكار الآخرين، وتصورتهم.

(381) سورة فصلت: ١-٥.

(382) الكلاعي، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٢٧-٢٢٨.

## المبحث الرابع: التأكيد على القواسم المشتركة

ويقصد بالقواسم المشتركة الأفكار التي يتفق فيها أطراف الحوار، وهي التي ينبغي التركيز عليها أولاً والتقدم لها عند الدخول في الحوار، فهي التي تقرب النفوس والأفكار، مع إغفال التقاطعات التي تبعد وتقطع الاتصال.

وقد أكدت النصوص القرآنية تلك القواسم، وكرستها في إطار يوضح أهميتها في بدء الحوار الدعوي مع تلك الفئات، الأمر الذي يجعل ذلك من أهم وسائل الحوار. قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾<sup>(383)</sup>. فالآية تؤكد وجود التوافق بين ما جاء في القرآن وما عند أهل الكتاب، في خطوة أولى لفتح باب الحوار معهم. وهذه الآية تعد من أوئل الآيات التي ذكر فيها أهل الكتاب مما يؤكد أولوية هذا العامل في التحاور مع المخالف عموماً<sup>(384)</sup>.

ثم إن التأكيد على القواسم المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب ازداد وضوحاً في العهد المكي كما في العهد المدني، كما جاء في آيات القرآن الكريم ومن ذلك قوله

(383) سورة المدثر: ٣١.

(384) محمد عزة دروزة، سيرة الرسول ﷺ صور مقتسة من القرآن الكريم، قطر، ١٤٠٠هـ، ج ١،

ص ٣٢٨-٣٢٩.

تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾<sup>(٣٨٥)</sup> وفيها تقرير لوحدة الهدف والدعوة بين القرآن والكتب السماوية الأولى. وسورتا الأعلى والنجم اللتان وردتا فيها تلك النصوص الواضحة مما نزل مبكراً.

ومن ذلك أيضاً الحديث الوارد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان النبي ﷺ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ، وَكَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَسْتَدْلُونَ أَشْعَارَهُمْ وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَفْرُقُونَ رُءُوسَهُمْ، فَسَدَلَ النَّبِيُّ ﷺ نَاصِيَتَهُ ثُمَّ فَرَّقَ بَعْدُ<sup>(٣٨٦)</sup>.

وفي ذلك تقرير لحقيقة التوافق والتساوق التامين بين التقارير القرآنية وما عند الكتائبيين وكتبهم من حقائق وشارات ونعوت وأوصاف للنبي عليه الصلاة والسلام ودعوته. إضافة إلى ما في ذلك من توجيه أصيل لأهمية البدء بالقواسم المشتركة في الحوار، قبل الخوض في الجزئيات الأخرى.

وقد ظهر ذلك في مواقف النبي عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب. فقد كان في مكة والمدينة بعض الجاليات الكتائية. وقد بدأ النبي عليه الصلاة والسلام أول ما بدأ مع هؤلاء بالتأكيد على القاسم المشترك بين دياناتهم وبين الدعوة الجديدة ألا وهو الدعوة إلى وحدانية الله ووحدة المصدر الذي صدرت عنه تلك الديانات الثلاث وكتبها.

(385) سورة الأعلى: ١٨-١٩.

(386) صحيح البخاري، اللباس، الفرق، حديث رقم: ٥٤٦٢. سنن أبي داود، الترحل، ما جاء في الفرق، حديث رقم: ٣٦٥٦.

ومن ذلك رسالته ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة، والتي جاء فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، سلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحسنة حملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده وإني أدعوك إلى الله وحده.. " (٣٨٧).

والتأكيد على القواسم المشتركة يؤكد منهج الإسلام في توطيد السلام، وتحقيق مبدأ التعارف بين الناس، وبقاء المحبة من خلال عدالة التعامل ونزاهة السلوك. وعلى هذا الأساس أرسى النبي عليه الصلاة والسلام أسس التعايش معهم، لأهمية ذلك في بناء وتأسيس الاستقرار الذي هو من أهم عوامل النهوض والبناء.

بل ظهر ذلك في تعاملاته مع غيرهم إن كان ثمة أمر مشترك، ومن ذلك ما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه قال اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة، حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام فلما كتبوا الكتاب كتبوا هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقالوا: لا نقر بها، فلو نعلم أنك رسول الله ما منعناك، لكن أنت محمد بن عبد الله، قال: أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله، ثم قال لعلي: امح "رسول الله" قال: لا، والله، لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، لا يدخل مكة سلاح إلا في القراب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع أحداً من أصحابه أراد أن يقيم بها، فلما دخلها ومضى الأجل أتوا علياً،

(387) أبو بكر السيد البكري، إغاثة الطالبين، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، ج ٣، ص ١٤٧.



فَقَالُوا: قُلْ لِصَاحِبِكَ أَخْرُجْ عَنَّا، فَقَدْ مَضَى الْأَجَلُ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَتَبِعَتْهُمْ ابْنَةُ حَمْزَةَ: يَا عَمُّ، يَا عَمُّ، فَتَنَاوَلَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، فَأَخَذَ بِيَدِهَا، وَقَالَ لِفَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ دُونَكَ ابْنَةُ عَمِّكَ حَمَلْتَهَا فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيُّ وَزَيْدٌ وَجَعْفَرٌ فَقَالَ عَلِيُّ أَنَا أَحَقُّ بِهَا وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّي، وَقَالَ جَعْفَرٌ ابْنَةُ عَمِّي، وَخَالَتَهَا تَحْتِي، وَقَالَ زَيْدٌ ابْنَةُ أُخِي فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِخَالَتِهَا، وَقَالَ: الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ، وَقَالَ لِعَلِيِّ: أَنْتَ مَنِّي وَأَنَا مِنْكَ، وَقَالَ لَجَعْفَرٍ: أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخَلْقِي، وَقَالَ لَزَيْدٍ: أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا (٣٨٨).

وعلى هذا فإن إبراز العناصر المشتركة بين الأطراف المتحاوره من أهم وسائل إنجاح الحوار.

فلا ينبغي التركيز على مواطن الاختلاف والتباين، وعرضه بأسلوب غير موضوعي لما يؤديه من تغذية عوامل الصدام والصراع ومحاولات فرض السيطرة والاستعلاء.

وهو أسلوب فطن، يدل على حسن الفهم، والعمق في الوعي والإدراك، الذي هو جماع الحكمة التي أمر الله بها عز وجل عند المحاوره.

ويترتب على هذه الوسيلة محاولة إبراز أهمية التكامل بين الأطراف المختلفة، وتأكيد أهمية إيجاد إطار مشترك من خلال دعم وتعزيز التوجهات التي تؤمن بالتعايش والتفاعل والاحترام المتبادل بين الشعوب والأمم والحضارات.

(388) رواد البخاري، الصلح، حديث: ٢٥٠١.

## المبحث الخامس: الاحتجاج بما يكون حجة عند المتحاور معه

وهو مسلك أرسنه نصوص القرآن الكريم المتضافرة، فقد احتجت بصحة الرسالة المحمدية بما جاء في الكتب السماوية التي يؤمن بها أتباعها من اليهود والنصارى، وانطلقت من تلك الكتب في إثبات صحة الرسالة الخاتمة وصدق صاحبها. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوْلَمَ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾<sup>(٣٨٩)</sup> فقد تضمنت هذه الآية تقرير أن الحجة على صدق الرسالة المحمدية، والتي طالب بها المخاورون من قريش، إنما هي الكتب السماوية التي كانوا ينظرون إليها نظر الثقة والاعتماد<sup>(٣٩٠)</sup>.

ومما يؤكد هذا الموقف من العرب قول عبد المطلب جدّ النبي عليه الصلاة والسلام لأُم أيمن يا بركة: لا تغفلي عنه فإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني نبي هذه الأمة<sup>(٣٩١)</sup>.

والحق أن الاحتجاج بما يؤمن به الطرف المتحاور معه، من أبلغ وسائل الحوار وأوقعها في النفس، فإذا كان المتحاور معه لا يؤمن بالقرآن فلا يُحتج بأدلة ونصوص من القرآن على صحة الموضوع المتحاور فيه، لأنه لا يؤمن به أصلاً. وتأسيساً على هذا كان الاحتكام في الحوار للمنطق والمنهج العلمي، قطباً في الحوار الإسلامي. ذلك أن التعاليم الإسلامية النابعة من مشكاة الوحي، يوافقها المنهج السليم المبني على العلم والمنطق.

(389) سورة طه: ١٣٣.

(390) دروزة، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٣١.

(391) جلال الدين السيوطي، كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م، ج ١، ص ١٣٨.

ومن شواهد الاحتجاج بما يكون حجة لدى المتحاورين في السنة، ما ورد في كتب السيرة عن الكتاب الذي أرسله الرسول ﷺ إلى النجاشي مع عمرو بن أمية حيث جاء فيه:

"لما وجه رسول الله رسله إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام وجه إلى النجاشي عمرو بن أمية فقال له يا أصحاب: إن عليّ القول، وعليك الاستماع، إنك كأنك في الرقة علينا منا، وكأننا في الثقة بك منك، لأننا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه، ولم نخفك على شيء قط إلا أمناه، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد، وقاض لا يجور، وفي ذلك وقع الخبز، وإصابة المفصل، وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم، وقد فرق النبي رسله إلى الناس، فرجاك لما لم يرجهم له، وأمنك على ما خافهم عليه، لخير سالف، وأجر ينتظر. فقال النجاشي أشهد بالله أنه للنبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب" (٣٩٢).

كما سار النبي عليه الصلاة والسلام على ذات الأسلوب مع قيصر ملك الروم، حين أرسل إليه دحية الكلبي، مما يؤكد أن هذا الأسلوب في الاحتجاج بما يكون لدى المخالف حجة، هو الأسلوب الأنجع في التوصل إلى الحق المرئى (٣٩٣).

ولم يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام أو يحتج على أهل الكتاب إلا بما ورد في كتبهم من الحق. وقد أدرك هذا الضابط رسله الذين أرسلهم إلى الملوك لمحاورتهم.

(392) أبو الربيع سليمان الكلاعي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٩٠.

(393) انظر الكتاب بصيغته المطولة في: المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٧٩.

ومنهم حاطب بن أبي بلتعة، الذي أرسله النبي عليه الصلاة والسلام إلى المقوقس صاحب الإسكندرية بكتاب جاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بداعية الإسلام اسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم القبط يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون" (٣٩٤).

ثم دار بين حاطب والمقوقس الحوار التالي: "إن لك دينا لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له يهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعبسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن، إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوما فهم من أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدركه هذا النبي ولسنا ننهك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به".

لقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم وهم حملة رسالة الإسلام ما انطوى عليه هذا الدين من أصول وقيم وقواسم مشتركة، تربط بين أهل الأديان كلها، بل بين الإنسانية كلها، من وشائج الإخاء والمحبة، فجاءت حواراتهم تعكس تلك القناعات السامقة.

وتأسيسا على هذا، أجاب حاطب عن تساؤلات المقوقس، بأن مثل محمد ﷺ عند الله كمثل عيسى في أن الله جعلهما رسولين لهداية الخلق، كغيرهما من الأنبياء.

(394) أبو الربيع سليمان الكلاعي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٩٤.

فلما لزمته الحجة المقوقس، فقال: إن لنا دينا لا ندعه، إلا لما هو خير منه، أجاب حاطب بأن ما يدعو الإسلام إليه هو ما دعاك دينك إليه. وفي هذا غابة الفهم العميق في التحوار وإقامة الحجة النيرة، التي أوردتها في كلمته: "ولسنا ننزيك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به".

فلاحتجاج بما يحتج به المتحاور معه ويؤمن به، من أقرب الوسائل وصولاً إلى ذاته ودنوا منها، وبناء على هذا، فقد أثمرت تلك الحوارات جميعاً نتائج طيبة.

ومن ذلك أيضاً ما كتبه النبي ﷺ إلى "ضغاطر"، الأسقف حيث جاء فيه: "سلام على من آمن، أما على أثر ذلك فإن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم الزكية، وإني أومن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون والسلام على من اتبع الهدى" (٣٩٥).

وقد كان لتلك الكتب والرسائل وقعها وأثرها الإيجابي على متلقيها. ذلك الأثر الذي لم يكن منحصرًا في إسلام البعض منهم، كالنجاشي و"ضغاطر" بل امتد ليشمل الأمم والشعوب التي كانت تحت إمرتهم. فقد كانت تلك الحوارات الإيجابية ذات أثر بعيد في مستقبل الدعوة الإسلامية، عندما انساح المسلمون في الأرض يدعون تلك الشعوب إلى الله، فقابلها هؤلاء بالوقوف مع المسلمين في وجه الظلمة من الرومان، حتى أتيح لهم الدخول في الإسلام لاحقاً عن إيمان وقناعة، بدون إكراه (٣٩٦).

(395) محمد بن سعد بن منيع، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٧٦.

(396) محمد الصادق عرجون، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٦٢.

ومما يُلاحظ على الكتب والرسائل التي أرسلها إلى أهل الكتاب أنها مفتوحة باسم الله الرحمن الرحيم، لإيمانهم بالله، فهم أهل كتاب. في حين أن الكتاب الذي كُتب يوم الحديبية بين رسول الله ﷺ والمشركون لم يرد فيه البسمة بهذه الصيغة، لما ورد عن سهيل بن عمرو (مبعوث قريش) قوله: لا أعرف هذا (يعني الرحمن الرحيم) ولكن اكتب باسمك اللهم، فكتب ذلك. وكذا عندما قال رسول الله ﷺ لكاتبه: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال رسول الله ﷺ: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو<sup>(٣٩٧)</sup>.

### المبحث السادس: ضوابط مساعدة

ثمة ضوابط وآداب يمكن أن تسهم في إنجاح الحوار، مثل:

- أن لا يكون الحوار بقصد عقد النفس بالكبر أو العجب أو الفعل أو التشهير مثلاً.. أو بقصد التسقيط والمغالطة، لإثبات القدرة العلمية، أو بقصد التضليل، أو الانتقاص من الآخرين.. أو أي قصد آخر غير الحقيقة موضوع الحوار، فإنه يلغي الحسن فيه، بل قد يكون قبحاً.

- منح أطراف الحوار الحرية الفكرية المتحررة من أي ضغط أو إكراه، قال تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾<sup>(٣٩٨)</sup>.. وقد خاطب القرآن

(397) جلال الدين السيوطي، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٠٠.

(398) سورة البقرة: ٢٥٦.

النبي عليه الصلاة والسلام وهو خاتم الأنبياء والرسل، ورسالته خاتمة الرسالات: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾<sup>(٣٩٩)</sup>. وقال في موضع آخر: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٤٠٠)</sup>. فلا بد لكي يبدأ الحوار أن يمتلك أطرافه حرية الحركة الفكرية التي ترافقها ثقة الفرد بشخصيته الفكرية، المستقلة، فلا ينسحق أمام الآخر؛ لما يحس فيه من العظمة والقوة التي يمتلكها؛ فتتضاءل إزاء ذلك ثقته بنفسه، وبالتالي بفكره، وقابليته لأن يكون طرفاً للحوار، فيتجمد ويتحول إلى صدى للأفكار التي يتلقاها من الآخر.

لذلك أمر الله رسوله أن يحقق ذلك ويوفّره لمحاوريه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾<sup>(٤٠١)</sup>. وقوله عز وجلّ موجهها نبيه ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٤٠٢)</sup>.

القبول بمبدأ الخطأ من الذات، وعدم ادعاء العصمة لأفكار الذات، وتصور امتلاك الحقيقة المطلقة، ومن ثمّ إلغاء أفكار الآخرين وإقصائها واعتبارها خطأ، دون منح فرصة المراجعة والتقويم وإعادة الحسابات، مهما كانت الاستدلالات. فالحوار هو الذي يوفر الأجواء لمعرفة الحقيقة والتواصل، كما يمكن أن يعزز مبدأ المشاركة

(399) سورة العاشية: ٢١-٢٢.

(400) سورة يونس: ٩٩.

(401) سورة الكهف: ١١٠.

(402) سورة الأعراف: ١٨٨.

الجمعية، للوصول إلى الحقيقة، دون أفكار مسبقة بالتعصب والتفرد الفكري.

- أن يكون المتحاور متميزا بالأسلوب الحسن الهادئ، والقدرة على استعمال الألفاظ المهذبة، والتجاوز عن هفوات الطرف الآخر في الحوار، وأن يظهر لنا ومدارة كبيرة لمن يحاوره، ويتحاشى الحدة والانفعال والغضب، فالحوار لا يحتاج فقط إلى عقل، لكن يحتاج إلى خُلق أيضاً، فمن خُلق الحوار: الرفق في الحوار، واللفظ في الحوار.

ويتضح ذلك جلياً من مواقف النبي عليه الصلاة والسلام العديدة في سيرته مع مخالفه. فقد وسع نبي الله ﷺ برحابة فكره، وسعة صدره، محاوريه ومخالفه، على اختلاف مشاربهم. ومن ذلك ما دار بينه وبين عدي بن حاتم قبل إسلامه، حيث قال: **أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ الْقَوْمُ هَذَا عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ، وَجِئْتُ بِغَيْرِ أَمَانٍ وَلَا كِتَابٍ. فَلَمَّا دُفِعْتُ إِلَيْهِ أَخَذَ بِيَدِي، وَقَدْ كَانَ قَالَ قَبْلَ ذَلِكَ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ يَدَهُ فِي يَدِي، قَالَ: فَقَامَ فَلَقَيْتُهُ امْرَأَةً وَصَبِيٌّ مَعَهَا، فَقَالَا: إِنَّ لَنَا إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَامَ مَعَهُمَا حَتَّى قَضَى حَاجَتَهُمَا، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي حَتَّى أَتَى بِي دَارَهُ، فَأَلْقَتْ لَهُ الْوَلِيدَةُ وَسَادَةً، فَجَلَسَ عَلَيْهَا وَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: مَا يُفْرِكُ أَنْ تَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟! فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إِلَهٍ سِوَى اللَّهِ؟! قَالَ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: ثُمَّ تَكَلَّمَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا تَفَرُّ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، وَتَعْلَمُ أَنَّ شَيْئًا أَكْبَرُ مِنَ اللَّهِ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَإِنَّ الْيَهُودَ مَعْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ النَّصَارَى ضَالَّةٌ ضَالَّةٌ. قَالَ: قُلْتُ: فَإِنِّي جِئْتُ مُسْلِمًا. قَالَ: فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ تَبَسَّطَ فَرِحًا.. " (٤٠٣).**

ومن ذلك أيضاً ما ذكره الطبري في تاريخه أن صفوان بن أمية خرج يوم فتح

(403) رواه الترمذي، سنن الترمذي، تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، رقم ٢٨٧٨.



مكة، يريد جدة ليركب منها إلى اليمن، فقال عمير بن وهب: يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومي، وقد خرج هاربا منك ليقذف نفسه في البحر، فأمنه صلى الله عليك. قال: هو آمن. قال: يا رسول الله فأعطني آية ليعرف بها أمانك، فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التي دخل فيها مكة، فخرج بها عمير حتى أدركه، وهو يريد أن يركب البحر، فقال: يا صفوان فداك أبي وأمي الله الله في نفسك أن تهلكها، فهذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به. قال ويحك اغرب عني، فلا تكلمني. قال: يا صفوان فداك أبي وأمي أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، وابن عمك، وعزّه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك. قال إني أخافه على نفسي. قال هو أحلم من ذلك وأكرم؛ فرجع معه حتى وقف به على رسول الله ﷺ، فقال صفوان إن هذا يزعم أنك قد أمتنتني قال: صدق. قال: فاجعلني بالخيار فيه شهرين قال: أنت بالخيار أربعة أشهر<sup>(٤٠٤)</sup>. ففي هذا الموقف يتجلى صبر النبي عليه الصلاة والسلام ورحمته ورأفته بمخالفيه، وحكمته في منح الطرف المقابل الوقت الكافي لمراجعة الذات، والقناعة بما يقدم عليه.

وكان عليه الصلاة والسلام يقدم الرحمة والرأفة بين يدي مخالفيه سلوكا وعملا. ففي حديث كيد لبيد بن الأعصم اليهودي في عمله السحر للنبي ﷺ، وقول النبي ﷺ بعد أن عافاه الله وأطلعه عليه: "أما أنا فقد عافاني الله، وكرهت أن أثير على الناس شراً". فتركه ولم يُعاقبه<sup>(٤٠٥)</sup>. وفي رواية عمرة فأخذه النبي ﷺ فاعترف فعفا عنه وفي حديث زيد بن أرقم فما ذكر رسول الله ﷺ لذلك اليهودي شيئا مما صنع به، ولا رآه في وجهه<sup>(٤٠٦)</sup>.

(404) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٦٢.

(405) راجع الحديث بنصه في صحيح مسلم، باب السحر، رقم ٢١٨٩.

(406) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، مرجع سابق، ج ١٠، ص ٢٣١.

وتأسيساً على هذا الحديث استنبط البخاري رحمه الله: ترك إثارة الشر على مسلم أو كافر. وهذا يدل على دقة فهم الإمام البخاري، وبراعة فقهه لمقاصد النصوص. فالله عز وجل أقام الإسلام على دعائم العدل، وندب عباده إلى الإحسان والعتق عن المسيء، والنبي عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى لهذه الدعائم.

- التزام الحوار العلمي بعيداً عن الجدل بالباطل: ﴿هَأَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٠٧).  
والتزام العلم يسع الناس جميعاً، وإن الادلاء بالحجج والبراهين يستميل العقول والقلوب، ويفتح الأبصار والبصائر على الحق المبين، أما الجدل بالباطل فمضيعة للوقت وإزدراء بالعقل ومجافاة للحكمة، ولكنه، مع هذا، أسلوب كثير من الناس: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (٤٠٨).

وهو نهج رائده القرآن، الذي طالب الكفار والمنكرين للحقائق بتقدم الدليل والبرهان على ما يدعون. قال تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. وتضافرت النصوص القرآنية بمطالبة المخالفين بتقدم البراهين على دعواهم، مؤسسة بذلك قاعدة من أهم قواعد الحوار السليم والتفكير العلمي الهادف.

ويقتضي هذا، الالتزام التجرد من الأهواء، وعدم الوقوع تحت سلطاتها، فلا يميل المحاور عن المنهج العلمي لإثبات ما يوافق رغبته وهواه.

(407) سورة آل عمران: ٦٦.

(408) سورة الحج: ٨.

# الباب الرابع

## وسائل الحوار

- الفصل الأول: الحوار بالقدوة والسلوك العملي.

- الفصل الثاني: وسائل معاصرة.

المبحث الأول: تفعيل دور سفارات الدول الإسلامية.

المبحث الثاني: التركيز على الحوار مع الشعوب.

المبحث الثالث: وسائل تعزيز ثقافة الحوار في المجتمع:

أولاً: التنشئة الاجتماعية Socialization.

ثانياً: تفعيل دور المؤسسات التعليمية والتربوية.

ثالثاً: المناهج الدراسية.

رابعاً: المؤسسات الإعلامية.

خامساً: تفعيل دور المؤسسات الدينية والمساجد.



## الباب الرابع

### وسائل الحوار

اعتنت نصوص الوحي (قرآنا وسنة) بالبحث في وسائل الحوار المجدية، التي يمكن من خلالها تحقيق أهداف الحوار لمختلف الأطراف.

### الفصل الأول: الحوار بالقدوة والسلوك العملي

الحوار بالقدوة والسلوك العملي من أهم وسائل وأشكال الحوار مع المخالف. وقد أثبتت الشواهد التاريخية أن هذا النوع من الحوار من أنجع الوسائل في إبلاغ الدعوة ومبادئها، وأقرب الوسائل والسبل وصولاً إلى الطرف الآخر، وأكثرها وأعمقها تأثيراً.

تقول المستشرقة الألمانية "زيغريد هونكه"<sup>(٤٠٩)</sup> في ذلك: "لقد سحر العربي الشعوب في البلدان المفتوحة بأصالته، وملاحة وجهه، ولطف حديثه. فشرفه وكرامته المتوارثة أجبراهم على اتخاذه مثلاً أعلى يحتذونه، بل ويتشوقون إلى مثل مكانته الاجتماعية، بمعنى أن يصبحوا عرباً مثله. واستطاع العربي أن يكون أبلغ سفير وداعية لديانته، لا بالتبشير وإيفاد البعثات، وإنما بخلقه الكريم، وسلوكه الحميد، فكسب بذلك

---

(409) "زيغريد هونكه" المستشرقة الألمانية، الذائعة الصيت، وهي زوجة الدكتور "شولترا" الذي اشتهر بكتاباته المنصفة عن العرب وآدابهم وآثارهم. صدر للمؤلفة العديد من الكتب في هذا المجال، وكانت رسالتها للدكتوراه: "أثر الأدب العربي في الآداب الأوروبية"، ومن أشهر كتبها كتاب "شمس العرب تسطع على الغرب". انظر ترجمتها في: مقدمة كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب"، مرجع سابق، ص ٧.

لدينه عدداً وفيراً لم تكن أية دعوة مهما بلغ شأوها لتستطيع أن تكسب مثله" (٤١٠).

والسيرة النبوية حافلة بالروايات والحوادث التي تعكس بجلاء هذه الوسيلة، واستعمال النبي عليه الصلاة والسلام المستمر لها مع مخالفه، على تعدد مشاربهم واختلاف انتماءاتهم، وتغاير سلوكياتهم تجاهه وتجاه دعوته عليه الصلاة والسلام.

ومن ذلك ما أخرجه الحاكم في المستدرک عن علي بن أبي طالب أن يهودياً كان له على رسول الله دنانير فتقاضى النبي ﷺ فقال له: ما عندي ما أعطيك. قال فإنني لأفارقك يا محمد حتى تُعطيني، قال: إذا اجلس معك، فجلس معه، فصلّى النبي ﷺ الظهر والعصر والمغرب والعشاء والغداة، وكان أصحاب النبي يتهددون اليهودي ويتوعدونه، فقالوا يا رسول الله يهودي يحبسك، قال: منعني ربي أن أظلم معاهداً ولا غيره فلما ترجل النهار أسلم اليهودي، وقال: شطر مالي في سبيل الله، أما والله ما فعلت الذي فعلت بك إلا لأنظر إلى نعتك في التوراة: محمد بن عبد الله، مولده بمكة، ومهاجره بطيبة، وملكه بالشام، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا متزين بالفحشاء، ولا قوال للخنا" (٤١١).

لقد قدّم النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الموقف وغيره من مواقف، عديدة نقلتها كتب السير، ترجمة صادقة حيّة للتعامل مع المخالف بالصدق والعدل والإحسان، فأقنع العالم من خلال سلوكه بعدالة الإسلام وسماحته.

(410) "زيغريد هونكه"، مرجع سابق، ص ٣٦٦-٣٦٧.

(411) أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، مرجع سابق، ج ٢،

ص ٦٧٨. رقم ٤٢٤٢.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن مكحول قال: كان لعمر على رجل من اليهود حق فأتاه يطلبه. فقال عمر لا والذي اصطفى محمداً على البشر لا أفارقك. فقال اليهودي والله ما اصطفى الله محمداً على البشر، فلطمه عمر، فأتى اليهودي النبي ﷺ فأخبره فقال: أما أنت يا عمر فأرضه من لطمته. ثم قال: بلى يا يهودي آدم صفي الله وإبراهيم خليل الله، وموسى نبي الله، وعيسى روح الله، وأنا حبيب الله، بلى يا يهودي تسمى الله باسمين سمي بهما أمي: هو السلام، وسمى بها أمي المسلمين، وهو المؤمن، وسمى بها أمي المؤمنين، بلى يا يهودي طلبتم يوماً، ادخر لنا اليوم، ولكم غد، وبعد غد للنصارى، بلى يا يهودي أنتم الأولون، ونحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بل إن الجنة محرمة على الأنبياء حتى أدخلها وهي محرمة على الأمم حتى تدخلها أمي<sup>(٤١٢)</sup>.

وعن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قالوا جاء أعرابي إلى رسول الله فقال: إن قومي أسلموا فزادهم الإسلام فقراً. فالتفت رسول الله إلى رجل كان دفع إليه نفقة، فقال: قد أنفقت ما كان معي، فقال يهودي خلف رسول الله: هذا رجل يعطيك ورقاً يسلفك في تمر حائط كذا وكذا فقال رسول الله: لا نسمي لك حائطاً ولكن تسلفنا في تمر مسمى في كيل معلوم إلى أجل معلوم. فبايعه اليهودي ثم حل ورقاً معه، فقال رسول الله ادفعها إلى الأعرابي، الحق فأغث بها قومك، فخرج رسول الله في جنازة، فلما وضع الميت في قبره وحثوا عليه قام اليهودي فقال: يا محمد ألا تقضين تمرى، فوالله ما أعلمكم يا بني عبد المطلب إلا تطلون الناس بحقوقهم؟ فقال

(412) أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٩هـ، ج٦، ص ٣٢٧. رقم ٣١٨٠٢.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: والله لولا مجلسه لوجأت أنفك، فقال رسول الله: يا عمر أنت إلى غير هذا أحوج: أن تأمره فيحسن طلبي وتأمرني فأحسن قضاءه . انطلق معه إلى حائط كذا وكذا، وهو الذي كان أراد من رسول الله، فأبى أن يسميه له فأدخله فقل لفلان يكشف له عن الطعام فيريه إياه فان رضيه فمره فليوفه ماله وكل له كذا وكذا صاعا بشتك إياه، فانطلق به عمر، فأراه فرضي، فكال له كما أمر به رسول الله فقال اليهودي لعمر: إنه لم يكن بقي شيء مما وجدنا في كتابنا مما وصف لنا موسى عليه السلام إلا قد رأيناه في محمد إلا الحلم فقد رأيناه الآن منه، فأنا أشهدك أي أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأشهدك أن نصف ما أملك صدقة على من آمن بمحمد، فقال عمر انه قد حقت علي نصيحتك، لا يسعهم كلهم، ولكن اجعله لمن مع رسول الله، ففعل ثم إن اليهودي مات فخرج رسول الله فحمل سريره على عاتقه الأيمن، وحمل علي أيضا سريره على عاتقه الأيسر" (٤١٣).

ومن المواقف التي علّم النبي عليه الصلاة والسلام من خلالها أصحابه كيفية الحوار مع المخالف من خلال القدوة الحسنة والسلوك الهادئ الطيب، موقفه مع اليهودي الذي أتهم بسرقة الدرع. جاء في تفسير الطبري أن الآيات: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا. وَاسْتَعْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

(413) رواه الحاكم في المستدرک علی الصحیحین وقال عنه: صحیح الإسناد، انظر: المستدرک علی الصحیحین، ج ٢، ص ٣٧. وصحیح ابن حبان، ج ١، ص ٥٢١. علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٤٠٧هـ، ج ٨، ص ٢٤٠. ورواه البيهقي في السنن الكبرى، مرجع سابق، ج ٦، ص ٥٢. وانظر كذلك هذه الرواية في: ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، مرجع سابق، ج ١، ص ١٦٦.



كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا. وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَتُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا<sup>(٤١٤)</sup>. نزلت في شأن طعمة بن أبيرق وفيما هم به نبي الله من عذره وبين الله شأن طعمة بن أبيرق ووعظ نبيه وحذره أن يكون للخائنين خصيما. وكان طعمة بن أبيرق رجلا من الأنصار ثم أحد بني ظفر سرق درعا لعمه كانت وديعة عنده ثم قذفها على يهودي كان يغشاهم يقال له زيد بن السمين، فجاء اليهودي إلى نبي الله يهتف، فلما رأى ذلك قومه بنو ظفر جاءوا إلى نبي الله ليعذروا صاحبهم، وكان نبي الله عليه الصلاة والسلام قد هم بعذره حتى أنزل الله في شأنه ما أنزل فقال: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَتُونَ أَنْفُسَهُمْ ...﴾ إلى قوله: ﴿هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾<sup>(٤١٥)</sup>.

قال الطبري قوله: ﴿هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني: بذلك قومه، ﴿وَمَنْ يَكْسِبُ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ وكان طعمة قذف بها بريئا<sup>(٤١٦)</sup>.

وعن أبي حردد الأسلمي أنه كان ليهودي عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه رسول الله فقال: ادفع إليه حقه. فقال لا أجد. فأعادها ثلاثاً، وكان إذا قال ثلاثاً، لم يراجع فخرج إلى السوق ف نزع عمامته فأتزر بها، ودفع إليه البرد الذي كان متزرا

(414) سورة النساء: ١٠٥-١٠٧.

(415) سورة النساء: ١٠٧-١٠٩.

(416) انظر: الطبري، تفسير الطبري، ج ٥، ص ٢٦٧.

به، فباعه بأربعة دراهم فدفعها إليه<sup>(٤١٧)</sup>.

وهكذا كان السلوك العملي والقدوة الحسنة من أعظم وسائل التخاطب والتحاور مع الآخر، وبهذا انتشر الإسلام في البلاد المفتوحة، بالتزام الحق والعدل والإنصاف والمعاملة الحسنة مع المخالفين<sup>(٤١٨)</sup>.

والتاريخ الإسلامي حافل بال نماذج التي كانت القدوة فيها من أهم وسائل الدعوة. فالتزام الحق مع الناس ومعاشرتهم بالبر والقسط والعدل هو دعوة الإسلام في كل حين. والإسلام لم يقصد مطلقاً أن تقوم الحياة بين المسلم وغيره على العداوة المستمر، والقتال الدائم، والغلظة والفظاظة، والظلم والتظالم، بل جعل الأصل في الحياة السلم والعدل والإنصاف والبر والإصلاح. قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾<sup>(٤١٩)</sup>. وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾<sup>(٤٢٠)</sup>. وأوضحت تلك الآيات المحكمة الواحدة تلو الأخرى أهمية السير على هذا المبدأ وتنفيذه في حياة المسلمين وجعله أصلاً.

وتأسيساً على هذا، كانت القدوة الحسنة وراء دخول أعداد هائلة من أهالي

---

(417) علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٢٩. وذكره الشوكاني في نيل الأوطار، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م، ج ٩، ص ١٨٢.

(418) لتوضيح المزيد حول هذه النقطة، راجع: محيي الدين عبد الحلیم، القدوة الحسنة وفعاليتها في الإقناع بالثواب الإسلامية، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد الثامن عشر، ربيع الثاني ١٤١٨هـ/ أغسطس ١٩٩٧م، ص ١١٧.

(419) سورة البقرة: ٨٣.

(420) سورة الإسراء: ٥٣.

البلاد المفتوحة إلى الإسلام. وقد صرّح الفقهاء بأهمية هذه الوسيلة حيث يقول الكاساني رحمه الله في ذلك: "أهل الكتاب إنما تركوا بالذمة وقبول الجزية، لا لرغبة فيما يؤخذ منهم، أو طمع في ذلك، بل للدعوة إلى الإسلام ليخالطوا المسلمين فيتأملوا في محاسن الإسلام وشرائعه وينظروا فيها، فيروها مؤسسه على ما تحتمله العقول وتقبله، فيدعوهم ذلك إلى الإسلام فيرغبون فيه فكان عقد الذمة لرجاء الإسلام"<sup>(٤٢١)</sup>.

ويؤكد السرخسي ذلك فيقول: "المقصود " من الجزية" ليس هو المال بل الدعاء إلى الدين بأحسن الوجوه؛ لأنه بعقد الذمة يترك القتال أصلاً، ولا يقاتل من لا يقاتل، ثم يسكن بين المسلمين فيرى محاسن الدين ويعظه واعظ، وربما يسلم"<sup>(٤٢٢)</sup>.

وتأتي الدراسات النفسية الحديثة بعد قرون من الزمن لتبين أن قدرا كبيرا من التعلم يتم بطريقة الاقتداء، فيتعلم المرء من خلال مشاهدة سلوك شخص آخر وما يترتب عليه من نتائج، أكثر مما يتعلمه من أقواله.

فالناس في مختلف الثقافات، وخاصة الأطفال، لا يعملون ما يقوله الراشدون وإنما يعملون ما يشاهدونه من سلوكهم، وما يتمثل من نماذج واقعية. فالإقتداء يعد من أهم الأساليب التي تتم من خلالها تنشئة الأفراد. وهو الأمر الذي أرسدت دعائمها مواقف النبي عليه الصلاة والسلام في المجتمع<sup>(٤٢٣)</sup>. ويؤكد علماء الاتصال في العصر الحديث

(421) علاء الدين الكاساني، مرجع سابق، ج ٧، ص ١١١.

(422) أبو بكر محمد بن أبي سهل السرخسي، المبسوط، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٦هـ، ج ١٠، ص ٧٧.

(423) شعبان حاب الله، التنشئة الاجتماعية، زين العابدين وآخرون (محرر). علم النفس الاجتماعي أسسه وتطبيقاته، مطابع زمزم، ١٩٩٣م، ص ٦٧-٨٨.

أن الاتصال العملي، غير اللفظي، عامل مهم في إيصال الرسالة. فالمستقبل يميل إلى تصديق الرسالة العملية غير اللفظية<sup>(٤٢٤)</sup>.

وحول ثمار ذلك الأسلوب الحوارى الفذ، الذي امتاز به المسلمون، تقول المستشرقة "زيغريد هونكه":

"واستطاع العربي بإيمانه العميق أن يكون أبلغ سفير وداعية لديانته، لا بالتبشير وإيفاد البعثات، وإنما بخلقه الكريم، وسلوكه الحميد، فكسب بذلك لدينه عددا وفيرا لم يكن أية دعوة مهما بلغ شأوها لتستطيع أن تكسب مثله"<sup>(٤٢٥)</sup>.

وثمة وسائل معاصرة يمكن الإفادة منها في إنجاح الحوار مع المخالف،

ومن ذلك :

---

(424) Lin. Nan. The Study of Human Communication, (New York: 1973), pp. 37-39.

(425) "زيغريد هونكه"، مرجع سابق، ص ٣٦٦-٣٦٧.

## الفصل الثاني

### وسائل معاصرة

#### المبحث الأول: تفعيل دور سفارات الدول الإسلامية

السفارات من أهم الوسائل التي يمكن جعلها منابر للقاء مع المخالف في بلدان العالم المختلفة الأديان والملل، والتعريف بالإسلام وثقافته وعادات الشعوب وتقاليدها، لتصبح حلقة وصل ثقافية بين تلك البلدان، والبلد الأصلي لها. وهي مهمة تحتاج إلى مزيد من الصبر على دراسة وتفهم تعاليم الإسلام وثقافته من جهة، وتعاليم وثقافة الشعوب الأخرى المضيفة.

وهي وسيلة تمتد جذورها في عمق السيرة النبوية حين أرسل النبي ﷺ سفراءه إلى مختلف الملوك والأمراء. ولعل أبرز سفرائه وأشهرهم عمرو بن العاص، الذي أرسله النبي ﷺ سنة ثمان للهجرة إلى "جيفر وعبد" ابني الجلندي في عُمان، وهما من الأزد. والملك منهما "جيفر" فدعاهما إلى الإسلام، فأسلم الملك وأسلم أخوه عبد وأسلم معهما كثير من العرب أهل عُمان.

ولقد راعى النبي عليه الصلاة والسلام أن يكون سفراؤه أصحاب امتيازات عالية من العلم واللياقة والمظهر والمخبر الحسن، في سبيل نقل أروع صورة عن الإسلام ومبادئه لدى الدول المرسلين إليها.

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام راعى في كل دولة أرسل إليها سفيره، الفروق الموجودة بين ثقافات الدول واهتماماتها. فراعى في سفرائه رواء المظهر خاصة عندما

أرسلهم إلى كسرى الفرس وقيصر الروم ومقوقس مصر مراعاة لميل ملوك تلك الدول بالاهتمام بالمظهر ومدى تأثيرهم بذلك. فكان يتخير ﷺ من يرسله ليكون أقرب إلى النفوس وأقدر على التأثير فيهم وأحرى أن يستقبل بالحفاوة والقبول منهم<sup>(٤٢٦)</sup>.

وهذه قضية يمكننا الإفادة منها في تطوير الحوار مع الأمم والشعوب. فلا تكاد تخلو دولة في العالم من سفارات دول إسلامية يمكنها أن تكون قنوات ثقافية، وجسوراً حضارية بين الشعوب المختلفة، على أن تتبنى ذلك كواحد من مشاريعها الاستراتيجية.

### المبحث الثاني: التركيز على الحوار مع الشعوب

قد يكون الأفراد والمؤسسات الشعبية أقرب إلى الاستجابة لنداء الحوار، والحوار معها أجدر بأن يعطي ثماراً حسنة وينتج تحاوياً فعالاً مجدياً.

وقد ظهرت فعالية تلك الوسيلة جليا في مواقف النبي عليه الصلاة والسلام فقد حاور الجميع. حاور زعماء الكفار المعاندين الجاحدين الذين اتسمت مواقفهم بالاستخفاف بالدعوة والتسفيه بصاحبها والسخرية اللاذعة منه، كما حاور أصحاب المواقف المعتدلة غير العنيفة في جحودها للدعوة. فكما يوجد الأنبياء والأولياء والصالحون الذين قال عنهم الله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾<sup>(٤٢٧)</sup>، يوجد في

(426) انظر في ذلك: محمود شيت خطاب، عمرو بن العاص القائد المسلم، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف

والشؤون الإسلامية، قطر، ربيع الأول ١٤١٧هـ، ج٢، ص ١٠١ وما بعدها.

(427) سورة الأنبياء: ٧٣.

المقابل المستكبرون والجبارون والسفهاء والمفسدون في الأرض. وهؤلاء يدعواهم  
تجريمهم واستكبارهم وعلوهم في الأرض إلى إنكار الحق وجحوده مهما كان بيناً  
واضحاً، وقد بين القرآن حقيقتهم فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا  
سِحْرٌ مُّبِينٌ. وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ  
الْمُفْسِدِينَ﴾ (٤٢٨).

فإذا سدت سنة الله في الحوار من أجل التفاهم والتعايش، انفتحت سنة الله في  
الدفع، دفع الباطل بالحق، ودفع الشر بالخير، ودفع الإفساد بالإصلاح، ودفع  
العدوان بالجهاد.

لأنه لولا هذا الدفع لعمّ الظلام وانتشر الفساد في البر والبحر والجو، وتعطلت  
مسيرة الحياة البشرية على وجه الأرض أو تعسرت. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ  
بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ (٤٢٩). وقال سبحانه ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ  
بَعِيرٍ حَقٌّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ  
وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ  
لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤٣٠).

ويمكن تفعيل هذه الوسيلة بشكل أفضل من خلال الجاليات المسلمة المتواجدة في  
مجتمعات غير إسلامية. ولعلّ المرحلة التاريخية الراهنة من أهم المراحل التي ينبغي أن

(428) سورة النمل: ١٣-١٤.

(429) سورة البقرة: ٢٥١.

(430) سورة الحج: ٤٠.

توجه إليها أنظار الجاليات المسلمة.

وهي مرحلة ذات بعدين: البعد الأول يتمثل في واقع المخالف في مجتمعه، فقد تعالت صيحات الخطر من قبل علماء النفس والاجتماع منذرة باستفحال أوبئة الانحرافات الأخلاقية، واللوثات الشاذة، التي باتت تهدد كيان المجتمعات الغربية عموماً. ومن ذلك ما كتبه الكاهن المشهور "جيري فولول" Jerry Fawell في كتابه "اسمعي يا أمريكا": "لديّ إحصاءات مرعبة عن حوادث الطلاق وتدمير الأسرة والإجهاض وجنوح الناشئة والفوضى الجنسية وتعاطي المخدرات وجرائم القتل إنني أشاهد حطام الإنسان والأرواح المهدورة بأكداس تفوق الإحصاءات إن أمريكا بحاجة سريعة إلى الإنقاذ الروحي والأخلاقي إذا كانت تريد أن لا تهلك في القرن العشرين" (٤٣١).

أما البعد الثاني: فيتمثل في إزالة الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين، والتي تأكدت معالمها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. تلك الصورة التي باتت تقض مضاجع المسلمين هناك، ولا سبيل للخلاص منها إلا بالتغيير السلوكي الإيجابي الفعّال من قبل المسلمين، ومحاولة اختراق المجتمع ثقافياً وتربوياً، ومحاورة الشعوب بلسان الحال لا المقال.

يبدّ أن هذا الدور لا يمكن للجالية المسلمة أن تؤدّيه إلا من خلال العودة إلى

---

(431) Jerry Fawell, Listen America, (New York: Bantam Book. Inc. 1981).

وراجع كذلك: ماجد عرسان الكيلاني، رسالة المسلم في المجتمع الأمريكي، مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي، مرجع سابق، ص ١٢٨.



هويتها الحضارية الإسلامية، والاعتزاز بها وبدورها في تقديم الإسلام. على أن يكون نمط الحياة المعيشية التي يجيئها أنموذجا يتحاورون من خلاله مع الآخر في عقر داره ومجتمعه. ولا يقتصر الحوار على الممارسات الفردية، بل لابد أن يمتد ليشمل توعية الجالية المسلمة بدورها كجماعة في المجتمعات، من خلال ممارسة ألوان العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية مع الآخر هناك.

ومما لاشك فيه أن هذا الأمر يتطلب خطة استراتيجية لدراسة طبيعة المجتمعات التي يعيشون فيها، وطبيعة التصورات المشوهة المفتراة على الإسلام، مع جهل العامة بالحقيقة التاريخية والحضارية له.

ولعلّ أوضح دليل على فعالية هذه الوسيلة: الشواهد التاريخية التي تؤكد دور التجار المسلمين في نشر الإسلام في دول جنوب شرق آسيا وأفريقيا، أثناء رحلاتهم التجارية. فقد شقّ الإسلام طريقه عبر التجار المسلمين، الذين حاوروا أهل البلاد بسلوكياتهم قبل أقوالهم.

يقول الرحالة "جوزيف تومسون" في تقرير له نشرته مجلة التايمز: "إذا بلغنا غربي أفريقيا والسودان الأوسط، نجد الإسلام كجسم قوي تدب فيه روح الحياة والنشاط، وتحرك فيه عوامل الحماسة والإقدام، كما كان في أيامه الأولى، ترى الناس تدخل فيه أفواجا أفواجا وتقبل عليه بإقبال عجيب، شبه أيامه السالفة، ترى فيه أشعة نوره منبعثة من شوارع سيراليون، وأخذة في إنارة بصائر القبائل المنحطة في وهاد الجهالة الآكلة لحوم البشر عند منبع النيجر.

وقد كانت أعظم فتوحات الإسلام في أواسط السودان وغربه كانت على يد

جماعةٍ سلمي الطوية، منخفضي الجناح، وفي الأزمان الحاضرة كان القائم بأمره تاجراً ذا همة وإقدام.. وكان يجهد نفسه لنشر لواء ديانته.. ونتج عن ذلك أن أشرقت شمس الإسلام في سماء هذه الجهة بأجمعها<sup>(٤٣٢)</sup>.

ذلك الدور الذي لم يقابله دور مماثل للجاليات المسلمة في الغرب. وهو أمر يحتاج إلى مزيد من الدراسة والتعمق لحصر أسباب ذلك ومعالجته.

ولئن كانت الفترات الماضية لم تؤكد، بالقدر الكافي، ضرورة هذه الخطوة وأهميتها، فإن المرحلة الراهنة أكبر شاهد على حتمية هذا الحل، وضرورة الانصياع له. وهذه الخطوة ليست نظريةً، البتة، وإنما هي ضرورة حيوية، لا يمكن أن يتصور بدونها تقدمٌ حقيقيٌّ في مجال الحوار العملي مع الآخر. وتتطلب هذه الخطوة من كافة العاملين في مجالات الحوار، محاولة إعادة تأهيل الخطاب الفكري لمواجهة التحديات الراهنة المتزايدة.

وعلى هذا فكل ما يمكن أن يحقق المصلحة والفائدة، يصلح أن يكون مجالاً للحوار، فلا يقتصر الحوار على موضوع دون آخر، بل يشمل كل ما يتعلق بحياة المجتمع في حاضره ومستقبله، ويغطي شتى الموضوعات المرتبطة بمناحي الحياة المختلفة، التي تفرضها طبيعة العلاقات الثنائية والمصالح المتبادلة.

---

(432) نقلا عن أنور الجندي، الإسلام يزحف بقوته الذاتية في أفريقيا، مجلة حضارة الإسلام، العدد الرابع، السنة العاشرة، جمادى الآخرة ١٣٨٩هـ / أيلول ١٩٦٩م.

## المبحث الثالث: وسائل تعزيز ثقافة الحوار في المجتمع

يتضح لنا مما سبق أن هناك شعوراً عاماً بضعف ثقافة الحوار، بشكل بدأ يترك آثاره السلبية في كثير من مظاهر السلوك اليومي للأفراد، في المجتمعات المسلمة على وجه الخصوص. وهو أمر يستدعي تكوين نخبة من علماء النفس والاجتماع والتربية المسلمين لرسم خطة من أجل تغيير الاتجاهات السلبية الشائعة لدى الأفراد والمؤسسات، وتكوين الشخصية الإيجابية المستقلة، القادرة على تجديد ذاتها، واستعادة دورها في الخطاب مع المخالف.

وهذا كله يقتضي البحث في واقع المسلمين والممارسات التربوية التي يعيشونها وما للنظم الأسرية والتعليمية والإعلامية من دور في تعزيز ونشر ثقافة الحوار لدى الأفراد.

من هنا فإن من أهم وسائل نشر ثقافة الحوار وتنميتها:

### أولاً: التنشئة الاجتماعية Socialization.

تعتبر التنشئة الاجتماعية العملية، التي يقوم بها المجتمع من خلال وكالاته ووسائله المختلفة، التي من أهمها الأسرة، والمؤسسات التعليمية، ووسائل الإعلام والاتصال، وجماعة الأقران، والمؤسسات الدينية، في تشكيل اتجاهات وسلوك الأفراد وفقاً لثقافة المجتمع ومعايره<sup>(٤٣٣)</sup>.

---

(433) معتز سيد عبد الله، عبد اللطيف محمد خليفة، علم النفس الاجتماعي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٢١٣.

فالأسرة تعد بلا منازع الجماعة الأولية، التي تكسب النشء الجديد خصائصه النفسية والاجتماعية. فالأسرة هي التي تزود الفرد بالرصيد الأول من القيم، التي ترشده في سلوكه وتصرفاته. وتشير الدراسات الحديثة والبحوث التي أجريت بهذا الصدد، أن أساليب التنشئة الاجتماعية التي يستخدمها الآباء والأمهات مع الأولاد، إنما تعكس الاتجاهات الوالدية Parental Attitudes وهي عبارة عن مشاعرهم، وتوجهاتهم في أساليب التعامل مع الأبناء.

وأغلب طاقات المجتمع الفردية أو الاجتماعية تنبع من التركيب الأسري للفرد، وكلما كانت التربية الأسرية مبنية على أسس سليمة وبناءة، كلما أنتجت من الكفاءات ما يرفد المجتمع بعوامل القوة والنجاح.

ومن أهم هذه الوسائل التي يمكن الاستفادة منها في تعزيز ثقافة الحوار من خلال تربية الوالدين، هو تبني مبدأ السماح معهم، وإعطاء الأبناء حرية اللعب والتعبير عن مشاعرهم، دون كبت في المنزل ومحاولة بعث الثقة في نفوسهم وتوجيههم إلى التعامل مع عناصر البيئة من حولهم بدرجة من الاستقلال تسمح لهم بنمو اعتمادهم على النفس.

فالتعامل مع الطفل بإيجابية ومحبة، واحترام فرديته، يساهم في تفتح شخصيته، وتنمية قدراته الإبداعية، وهذا موكولٌ إلى الأسرة التي تستطيع أن تهيب له فرصة التعبير عن أفكارٍ جديدةٍ وإيجابية، وتوفر له فرص القراءة والمناقشة وطرح الأسئلة.

إن تبني الأسرة للنهج القائم على الحوار مع الطفل، واحترام مشاعره وآرائه، والإصغاء إليه، وترك الحرية له للتعبير بجرية عن أفكاره، من أهم عوامل تعزيز ثقافة

الحوار وتأسيسها فيه. على ألاّ تصل إلى الخضوع لرغبات الطفل ، والانقياد لأهوائه في ما يطلب ويرغب ، بل في مشاركته بالقرار الذي يتعلق به.

وقد ضرب النبي عليه الصلاة والسلام في ذلك نموذجاً يحتذي به المربون والآباء. فعن سهيل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله أتى بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: والله يا رسول الله لا أؤثر بنصيبي منك أحداً قال: فتله رسول الله صلى الله عليه وآله في يده <sup>(٤٣٤)</sup>.

فسلطة الوالدين لا تكون من النوع التسلطي القهري، بل تكون كنوع من التوجيه والتربية والقيادة. فيترى الأفراد فيها على احترام الذات، والتفكير الإيجابي واحترام الغير، النابع من احترام الإنسان لذاته. وهذا النوع من التنشئة هو الذي ينبغي أن تتوجه إليه أنظار المربين، وبخاصة الآباء والأمهات في مجتمعاتنا. ويمكن أن تسهم وسائل الإعلام والمؤسسات التعليمية في مرحلة مبكرة جداً بتوعية الوالدين بأهمية ذلك، ودوره في إرساء القيم والمثل المنشودة.

كما أوضحت تلك الدراسات أن فرض إرادة الوالدين دائماً على أبنائهم، وتسلبهما عليهم بشكل مستمر، واستخدام أساليب التهديد، أو الضرب والحرمان، تؤدي إلى التطرف، وضعف الثقة بالذات، وتحاشي المواقف والآخريين، والعزلة عن المجتمع، وإعاقة الأولاد عن التفاعل الإيجابي مع المجتمع <sup>(٤٣٥)</sup>.

(434) العسقلاني، الفتح: ١٠ / ٥٦٢٠ واللفظ له.

(435) حامد الفقي، أنماط الضبط الوالدي في المجتمع الكويتي، "لويس كامل مليكة" (محرر) قراءات في علم النفس الاجتماعي في الوطن العربي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ج٦، ص ٤٣-٤٥.

فوجود نوع من العلاقة السلطوية بين الوالدين والأبناء، يحدّ من درجة التواصل الضروري بين الطرفين، ويثد روح الحوار، ويقوي الميل إلى العزلة، واللجوء إلى الصمت من باب غلق منافذ أية مواجهة بين الطرفين. فيترى الأولاد على الشعور بالتمهيش والظلم، مما يؤدي إلى تولد غضب مكبوت لديهم، لا يستطيعون التعبير عنه إلا من خلال وسائل العنف والتطرف والتمرد والانحراف في غالب الأحيان.

وقد أظهرت الدراسات أن من أبرز المتغيرات الاجتماعية المرتبطة بالعدوان: أسلوب التنشئة الذي يعيشه الطفل في محيط أسرته على وجه الخصوص. كما أظهرت ارتباط السلوك العدواني بتهيئة الطفل للتصرف بعدوانية مع الآخرين. كما أن تمهيش دوره كفرد في الأسرة وإقصاء رأيه والتقليل من شأنه، سيؤدي به إلى ممارسة تلك الأشكال من السلوكيات والتصرفات مع الآخرين<sup>(٤٣٦)</sup>.

وقد حوت السيرة النبوية نماذج عدة تؤكد هذا التوجه في تعليم النبي ﷺ للصغار والكبار، بأسلوب يتسم بالأناة، والحلم، والبعد عن الانفعالات والغضب، التي تترك آثاراً سلبية على نفسية المتعلم، تمتد أثرها إلى مدى بعيد، وينعكس على سلوكياته فيما بعد.

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاتَّكَلْ أُمِّيَاهُ! مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَيَّ أَفْحَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي، لَكِنِّي سَكَتُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَابِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا

(436) فؤاد البهي السيد، علم النفس الاجتماعي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨١م.

قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي، وَلَا ضَرَبَنِي، وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ:  
 إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ  
 الْقُرْآنِ، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (٤٣٧).

كما جاء عن عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ يَقُولُ كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،  
 وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا غُلَامُ سَمَّ اللَّهُ وَكُلَّ  
 بِيَمِينِكَ، وَكُلَّ مِمَّا يَلِيكَ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ (٤٣٨).

كما أن عدم تربية الأولاد وتنشئتهم على الاستقلالية، يسوق إلى تفعيل روح  
 التبعية، وهذا وإن بدا للناظر أنها تضبط روح التمرد لدى المتلقي، إلا أنها لا تحقق  
 الإشباع النفسي إلى الاستقلال عن غيره، التي هي جزء من النمو النفسي السوي  
 لنفس المراهق، والتي إن لم يتم إشباعها فسيجتهد المراهق بذاته في البحث عن وسائل  
 الإشباع منطلقاً من تصوره الشخصي للصواب والخطأ، أو مما يَرِدُهُ من مصادر أخرى  
 قد تكون غير آمنة.

ومن المعلوم أن من تَمَّتْ تربيته على الاتباع دون الإدراك الواعي، فإنه أيضاً  
 عُرضة لاستباق الغير إليه، وتربيته على اتباعه، خصوصاً إذا وفر له ما يحتاجه من  
 احترام، أو شهوات، وهذا على عكس التربية على المسؤولية التي تنتج لنا أفراداً قادرين  
 على الإدراك، واتباع الصواب وتجنب الخطأ مما يراه نابغاً من ذاته من فكر آمن.

(437) رواه مسلم، باب المساجد ومواضع الصلاة، رقم ٨٣٦.

(438) رواه البخاري، الأطعمة، رقم ٤٩٥٧.

فطريقة الاستبداد والتسلط التي تعتمد على القمع والقسوة، بحيث يتم توجيه الطفل، وفرض الأمور عليه، وقتل روح المبادرة والاستقلالية في ذاته، كل ذلك من شأنه أن يترك آثاراً سلبية على شخصية الطفل، قد تستمر إلى مدى بعيد، وربما تحولت إلى عُقد نفسية تتحكم بسلوكه وتفكيره، كالانغلاق والانزواء وغيرها. كما يمكن أن ينجم عن أمثال تلك الممارسات تعلم الطفل والمراهق ممارسة القسوة والعنف، التي مورست ضده، ومن ثم ممارستها ضد الآخرين.

من هنا، كان دور الأسرة بالغ الأهمية في الوقاية من مختلف الآثار السلبية، التي يمكن أن تترتب بناءً على غياب فقه الحوار وثقافته بين الأفراد.

من هنا، ذهب علماء النفس الاجتماعيين إلى أهمية تحاشي الممارسات الخطأ في تنشئة الأطفال، خاصة في الأسرة. وتمثل تلك الممارسات، في نظرهم، في خلو الحياة الأسرية من أية ضوابط، أو التشدد الشديد، البعيد عن توضيح مواطن الخلل والزلل في سلوك الطفل. فإذا تجاوز الطفل مرحلة التفاعل الإيجابي مع أقرانه، ورفض أسلوب الحوار والمناقشة معهم، وانتقل إلى مرحلة العنف والعدوانية مع غيره، فلا بد للوالدين من معالجة الأمر بحزم، ومعاقبته معنويًا على ذلك، ومراقبة ذلك السلوك. وفي المقابل يمكن للوالدين تنمية حساسية الطفل نحو مساعدة الآخرين، والتعاطف معهم، وتعزيز وسائل التعايش مع الغير.

وقد ضرب النبي عليه الصلاة والسلام أئمةً نموذجاً في التربية الهادئة، التي تبني شخصية المتعلم، وتنمي روح الاستقلالية والثقة في نفسه. كما ضرب أمثلة في معالجة الأخطاء الصادرة عن النشء، بأسلوب هادئ يتسم بالإيجابية.



عن أنس، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا K فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَذْهَبُ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى صَبِيَّانٍ، وَهُم يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَابِضٌ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، فَنظَرْتُ إِلَيْهِ، وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: يَا أُنَيْسُ! أَذْهَبَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ. قُلْتُ: نَعَمْ، أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ أَنْسُ: وَاللَّهِ لَقَدْ خَدَمْتُهُ سَبْعَ سِنِينَ، أَوْ تِسْعَ سِنِينَ، مَا عَلِمْتُ قَالَ لَشَيْءٍ صَنَعْتُ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ وَلَا لَشَيْءٍ تَرَكْتُ: هَلَا فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا!! (٤٣٩).

والتأمل في هذا الحديث، يلحظ الأسلوب التربوي الفذ، الذي خاطب به النبي ﷺ أنساً، الأمر الذي أثمر تصحيح الخطأ والتجاوب معه. فالتنشئة الحقيقية لتعزيز الحوار الهادف البناء، لا بد أن تبدأ بالاعتناء بالأطفال. فهذا هو المدخل الأساسي الصحيح لكل جهد هادف لتنمية بشرية حقيقية. ولا بد من الأخذ بعين الاعتبار عامل الزمن وأثره في إذكاء وإنجاح هذه التنشئة، فعملية إكساب الطفل المفاهيم الصحيحة والقيم المثلى، عملية تحتاج إلى كثير من الوقت، لكنها هي المحصلة الفعلية الحقيقية للإنسان.

فهذه التنشئة هي الخطوة الأولى في تربية الفرد على تقبل الرأي الآخر واحترامه، وتعلم لغة الحوار الصحيحة، وإتقان لغة الاستماع، والتقبل أو الرجوع، والتخلص من التكبر الفكري الذي بات يحول دون تقبل إمكانية وجود آخر.

(439) رواه أبو داود، باب الأدب، رقم ٤١٤٣.

## ثانياً: تفعيل دور المؤسسات التعليمية والتربوية:

المؤسسات جمع مؤسسة، والمؤسسة في اللغة: مشتقة من أس أي: أصل كل شيء، وأسست الدار أي: بنيت حدودها، ورفعت قواعدها. ويطلق لفظ المؤسسة على كل ما بُني لغرض من الأغراض، الربجية، وغير الربجية، ويدخل في هذا المعنى المؤسسات التي تُخصّص لأغراض علمية وتربوية وإعلامية<sup>(٤٤٠)</sup>.

وتعد المؤسسة التعليمية، سواء كانت مدرسة، أو جامعة، مصنعةً لشخصيات الأفراد، سواء كانوا معلمين أو طلبة. ففي المدارس والمعاهد توضع البذور الأساسية لطريقة التفكير: من حيث السطحية والعمق، وكذا من حيث المنطقية والعملية، أو الذاتية والموضوعية. ومن خلال المدرسة يتم اكتساب المعارف والمعلومات، وتكوين الاتجاهات نحو كثير من قضايا الحياة<sup>(٤٤١)</sup>.

كما أن الجامعة هي المكان الذي يتاح فيه للعلماء والباحثين والمتعلمين تداول العلم والمعرفة، وإجراء البحوث والدراسات. وتنشأ المؤسسات التعليمية بهدف تزويد الناشئة بالمهارات العلمية، والأساليب المنهجية، عن طريق تدريب عقولهم على الملاحظة والتجريب، اللازمين للوصول إلى الاستخدام الأمثل للقدرات العقلية، التي زود الله سبحانه وتعالى الإنسان بها. من هنا، جاء تصدُّر الجامعات، منذ القدم، دور الريادة في تطور الإصلاح الاجتماعي. والمتبع لتاريخ الجامعات في أوروبا، على سبيل

(440) لسان العرب، مرجع سابق، مادة: أس.

(441) عبد الرحمن الطريفي، العقل العربي وإعادة التشكيل، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون

الإسلامية، قطر، ١٩٩٢م، ص ٦٢.

المثال، يلحظ أن التحولات وحركات الإصلاح الديني والفكري والاجتماعي انطلقت في الأساس من الجامعات، بوساطة الأساتذة في شتى فروع المعرفة والعلم<sup>(٤٤٢)</sup>.

والمجتمع المدرسي يعتبر جزءاً من المجتمع الكبير، باعتبار أن المدرسة مؤسسة اجتماعية تربوية، موجهة بسياسة الدولة، ولها دورها المهم في إعداد الأجيال من خلال المحتوى، وما يتضمنه من "أيدلوجية" تقدم للتلاميذ، التي تحدد بدورها نوعية الأفكار والمفاهيم التي يكتسبها التلاميذ. ومن ثم فهي ذات تأثير مهم في اتجاهاتهم ومعلوماتهم وطريقة تفكيرهم وتكوين مستقبلهم<sup>(٤٤٣)</sup>.

وقد يكون هناك ضعف أصاب الدور التربوي الذي تلعبه المدرسة بشكل عام في تنمية ثقافة الفرد، وغرس ثقافة الحوار، وغرس التفاهم والتعايش بشكل خاص<sup>(٤٤٤)</sup>. وهو ضعف لا ينبغي عزوه إلى عامل واحد، بل هو مرتبط بأسباب عدة، إلا أنه من المؤكد أن التخطيط السليم العلمي الجاد لتغيير هذا الوضع وتحسينه سيؤدي إلى نتائج إيجابية بإذن الله.

فمرحلة التعليم الأساسي، التي تشكل مرحلة الطفولة ونهاية مرحلة الطفولة

---

(442) جمال محمد حسن الزنكي، كيفية تحقيق الهوية الإسلامية الملتزمة للطالب الجامعي، ندوة: استراتيجية الثقافة والتنمية ودور كليات الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية في دول مجلس التعاون الخليجي، كلية الآداب، جامعة الكويت، ٢٧-٢٩ مارس، ٢٠٠٠م.

(443) Spring. Joel. Education, The Worker Citizen, the Social Economic and Political Foundation of Education, New York, London, Long man, 1980, pp. 195-198.

(444) بتصرف عن: محمود محمد سفر، دراسة في البناء الحضاري، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ص ٦٦.

المتأخرة، (بداية مرحلة المراهقة) - كما يؤكد علماء النفس - من أنسب مراحل التطبيع الاجتماعي. حيث يبدأ النمو العقلي بالازدياد، كما يزداد الطالب اهتماماً بالبحث عن الحقائق، والقدرة على نمو المفاهيم، ويتعلم المعايير والقيم، ويزداد لديه حب الاستطلاع، والنقد الموجه لذاته وغيره، وقد يتحدى بهذا أفكار الآخرين ممن هم أكبر منه في المرحلة العمرية. وهو أمر يمكن الاستفادة منه، وتوظيفه في عملية تعزيز وغرس ثقافة الحوار أيما إفادة.

من هنا، ينبغي الاهتمام بمرحلة الطفولة المتأخرة، على وجه الخصوص، وبداية مرحلة المراهقة، اهتماماً أكبر؛ لأهميتها البالغة في غرس القيم والمفاهيم، مع التركيز على ضرورة تهيئة الجو المدرسي المنفتح، الذي يتطلب الاهتمام بالنواحي النفسية والاجتماعية للطلبة، من أجل نموِّ فكرٍ ذاتي سليم، يحاور ويتبادل وجهات النظر، ويبيد الرأي فيما حوله.

ويمكن الاستفادة في هذا المجال من استخدام برامج التدريب على مهارات التخاطب Communication Skills Training وهي عبارة عن أساليب تعليمية لتدريس سلوكيات التخاطب البناء. ويركز هدف هذه البرامج على منحى حل الصراعات من خلال التدريب على أساليب التفاوض، التي تُتبع التدريب العام على التخاطب. وتعد هذه البرامج منحىً واعداداً لتقليل التوتر في التعامل مع الآخرين، والقضاء على الصراع الناتج عن ذلك أحياناً بين الأفراد<sup>(445)</sup>.

(445) Corisini, R. (Ed). Encyclopedia of Psychology. New York. John Wiley & Sons. Pp. 39.

ومن النواحي المهمة في هذا السياق: ضرورة تغيير ثقافة التلقين في أسلوب التعامل والتعليم المدرسي، إلى أسلوبٍ يحقق فيه الطالب ذاته. يقوم على حرية الرأي، والحوار والمناقشة، والنقد الإيجابي البناء بين الطلبة والمعلمين والتربويين، ليصبح الجو المدرسي مناخاً إيجابياً فعّالاً، له دوره في إكساب التلاميذ ثقافة الحوار، والانفتاحية، والتقبل والاعتراف بالرأي الآخر، واتّساع الأفق. ففي مثل تلك الأجواء تنمو العلاقات الإنسانية والاحترام المتبادل والاتجاهات الفكرية السليمة حتى تتوطد في نفوس الأفراد<sup>(٤٤٦)</sup>.

فثمة حاجة ملحة، وضرورة آنية إلى تغيير ثقافة التلقين والتلقين في المناخ المدرسي، والانتقال إلى تبني ثقافة الحوار، والنقاش في مختلف القضايا، في جو يسوده الاحترام، والتقبل والنقد الإيجابي البناء.

فالأسلوب الواحد المفروض في التفكير، والتلقي، والاستظهار، والتعبير، والامتحان، الذي يُمارس في المؤسسات التعليمية منذ مرحلة الابتدائي إلى المستوى الجامعي، لا يمكن أن يسوق إلى فكرة وجود رأي آخر، ناهيك عن إمكانية التفكير في تقبلها أو مناقشتها. فالمؤسسات التعليمية ومناهجها وأدواتها ومناخها ينبغي أن تتضافر لتنمية حرية التفكير وحرية الاختيار وإبداء الرأي ورعاية القدرات العقلية عند النشء، وتوفير فرص النمو الفكري له.

ومن الأساليب التربوية التي ينبغي التنبه لخطورتها في إعاقة ثقافة الحوار لدى

انظر كذلك: علم النفس الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٧٠٠.

(446) لطيفة إبراهيم خضر، دور التعليم في تعزيز الانتماء، عالم الكتب، مصر، ٢٠٠٠م، ص ٢٣٢.

الناشئين: أسلوب المصادرة الفكرية. وهو أسلوب يكتب في نفس النشء الرغبات ويعوّق الإرادات، ويدخله في صراعٍ مع الذات بين معانٍ وآراءٍ داخلية، وواقعٍ خارجي يخشى الانفتاح عليه والإفصاح إليه عما في داخله.

ومما لاشك فيه أن في ظل تلك الأجواء التربوية الخطأ لا يعرف النشء ما يسمى بالرأي الآخر؛ فأنى له أن يتعلم تقبله ابتداءً!!.

إن عملية طرح المشكلات على المتعلمين، ودعوتهم إلى التفكير، وإيجاد الحلول لها، يعد أحدث اتجاه في التربية المعاصرة. ويتم ذلك عن طريق الحوار بين طرفين، هما: المعلم والمتعلم، فمنهج الحوار يهيء المتلقي ليصبح قادراً على التفكير، والنقد، والتحليل، والإبداع. يقول في ذلك "باولو فرايري" صاحب كتاب تعليم المقهورين: "إن منهج طرح المشكلات يُعتبر الحوارَ أساساً من أجل فهم العالم.. ويساعد منهج التعليم الحواري على الإبداع والفهم والتبصر بحقائق الوجود وبالتالي فإنه يحقق إنسانية الإنسان" (٤٤٧).

وقد سلك النبي ﷺ أسلوباً فذاً في تبني هذا النهج مع المتعلمين، ففي الحديث الذي رواه أبو أمامة أن فتى من قريش أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إئذن لي في الزنى، فأقبل القوم عليه، وزجروه، فقالوا: مه مه! فقال: أدنّه. فدنا منه قريباً، فقال: أتجبه لأملك؟ قال: لا، والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. قال: أفتجبه لابنتك؟ قال: لا. والله، يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه

(447) "باولو فرايري"، تعليم المقهورين، ترجمة: يوسف نور عوض، دار العلم، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٩.

لبنائهم. قال: أفتجبه لأختك؟ قال: لا. والله، يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم. قال: أتجبه لعمتك؟ قال: لا. والله، يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم. قال: أتجبه لخالتك؟ قال: لا. والله، يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم. قال: فوضع يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن فرجه، قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء<sup>(٤٤٨)</sup>.

ففي هذه الواقعة، لم يعالج النبي عليه الصلاة والسلام الإشكالية من خلال تقديم موعظة مباشرة، أو سلوك سبيل الزجر والنهي، بل لجأ إلى إيصال الفتى للحلّ بنفسه، بأسلوب اتسم بالتدرج، والحوار الهادف إلى التغيير الإيجابي بالإقناع.

ولا يقل دور المعلم أهمية، ومحورية عن دور الأقطاب الأخرى في العملية التربوية. فالمعلم والمربي ينبغي أن يكون بمثابة نموذج المثل الأعلى المقدم في المؤسسة التعليمية. فلا ينبغي أن يقتصر دوره على إلقاء المعلومات، وتلقين الأفكار والمفاهيم والمعتقدات من وجهة نظرٍ واحدةٍ تقوم على الإلزام، دون أن يُشرك المتعلمَ في ذلك كله ولو بشيء من التحليل والمناقشة وإبداء الرأي فيما يتلقاه<sup>(٤٤٩)</sup>.

ولا تخفى خطورة هذا النوع من التعليم في تقليل روح الإبداع في نفوس النشء،

---

(448) رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

(449) لمزيد من التفاصيل حول ذلك: انظر: ماجد عرسان الكيلاني، أهداف التربية الإسلامية في تربية الفرد، وإخراج الأمة، وتنمية الأخوة الإنسانية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، الطبعة الثانية، ١٤١٧/١٩٩٧م، ص ١٨٢.

وعدائية الجديد، وعدم مراجعة القديم، بل والمحافظة عليه بما يحمل من سلبات أو إيجابيات. بل إن هذا النهج يسوق في بعض الأحيان إلى وصف الجديد بالبدعية، والمجدّد بسوء النية، دون نظرةٍ فاحصةٍ تحليلية، قد تصل، إن وظفت إيجابياً، إلى التوافق الكامل، أو الجزئي، أو الرفض على بينة.. وهذه أمور ينبغي الاهتمام بها من قبل المعلمين والمربين.

ولا ينحصر دور المعلم في ذلك فحسب، بل يمتد ليشمل الممارسات التربوية في المؤسسة التعليمية، من خلال تقديم نماذج تطبيقية تسهم في إرساء هذه الدعائم، كشرعية حق المتعلمين في التصويت على بعض القضايا المطروحة في الدروس، وتشجيعهم على إقامة ندوات حوار مفتوحة لمناقشة بعض القضايا المتعلقة باهتماماتهم وحياتهم وواقعهم. فلا يبقى الفرد في المؤسسة التعليمية بمنأى عما يدور في مجتمعه وواقعه.

ولا ينحصر دور المؤسسة في تلقين معلومات ومفاهيم أحادية الجانب، بل يمتد ليشمل بعض ما يدور في المجتمع، لتتم معالجة ما يمكن أن يطفو على السطح من سلبات أولاً بأول، بأسلوبٍ يقوم على الحوار ويتبناه منهجاً للعلاج.

فالمدرسة بعناصرها المختلفة تلعب دوراً مهماً في ترسيخ فضيلة التسامح، ونشر ثقافة الحوار عند المتعلمين. فالعلاقة بين المعلم والتلميذ إذا كانت تقوم على احترام شخصية التلميذ، وتشجيعه على الحوار وإبداء الأسئلة التي تدور في ذهنه، وإعطائه الفرصة المناسبة لإبداء رأيه، ومناقشته بعيداً عن التعصب، فإن ذلك يجعل الطالب يقدر قيمة التسامح والحوار.



وكلما كانت الأساليب المتبعة في المؤسسة يسودها التقبل والتفاهم والتعايش تجاه المتعلمين، كلما ساهم ذلك في تنمية شخصية الفرد، وتحقيقها، وإيقاظ مفاهيم التنوع والتقبل للآخر.

ويمكن إدراج الفوائد التالية لنشر ثقافة الحوار التربوي بين المتعلمين في مختلف المؤسسات التعليمية، ومن ذلك:

- تعزيز استراتيجيات بناء العلاقات الإيجابية بين المتعلمين والمدرّسين ومنسوبي المدرسة، مما يؤدي إلى شيوع الاحترام المتبادل، والتقبل، ونبذ الصراع.

- يبيّن ويعزز ثقة المتعلمين بأنفسهم، ويؤكد ذواتهم وينمّي استقلاليتهم، ويشجعهم على اتخاذ قراراتهم بأنفسهم.

- تدريب المتعلمين على تقبل الاختلاف مع الآخرين، وأن ذلك لا يُعدّ تهديداً لهم.

- تدريب المتعلمين على تحقيق وتقرير مبدأ القيم المقبولة، فهو مناخ ممتاز لتعديل السلوك.

- تنمية للروح الاجتماعية، حيث يساعد في التغلب على الخوف الاجتماعي والخجل، ويعطي مناعة ضد ذلك مستقبلاً.

- يُظهر الحوار، للآباء والمعلمين والمرشدين بشكل صريح أو بشكل إسقاطي، ما يعانیه الأولاد من مشاعر عدائية، أو قلق، أو خوف، أو صراعات نفسية، وإحباطات وكبت، وهذه فرصة يجب أن تُنتهز لعلاج تلك المشكلات، ودعم النمو الانفعالي،

واستنطاق المشاعر، والتنفيس، ومن ثمّ معالجتها في مراحل مبكرة.

- تنمية الشعور بإمكانية تصحيح أخطائهم بأنفسهم بالاقتناع نتيجة التعلم.

- تعليم المحاورين الشجاعة النفسية في القبول، عند ظهور الدليل من المحاور الآخر.

### ثالثاً: المناهج الدراسية:

تقوم المقررات الدراسية بدور بالغ الأهمية في تنمية وتنشئة الأفراد، إذا ما تضمنت أهدافاً بعينها، وقيماً بذاتها، تعكس وتؤكد أهمية ترسيخ مبدأ الحوار، وتقبل شرعية الاختلاف والتنوع. الأمر الذي يتطلب مناهج تُؤسّس لهذا الفكر، وتعززه باعتباره نسقاً قيماً من خلال تضمن المقررات الدراسية قيماً بعينها، كقيمة الوسطية، والاعتدال، والاعتدال، وتقبل الرأي الآخر.

فالمناهج الدراسية، بما تحويه من معارف ومعلومات، وأمثلة، وتمارين، ونصوص أدبية، تمثل حجراً أساسياً في الكيفية التي ينمو بها عقل المتعلم. ويمكن الإفادة من ذلك تطبيقياً من خلال طرح الموضوعات المختلفة من خلال وجهات نظر وآراء متعددة، لا تعتمد الأحادية في طرحها أو صياغتها. كما يمكن للمقررات الدراسية أن يتسع مداها الإيجابي من خلال أسلوب المعلم، أثناء طرحه وتناوله للمسائل المختلفة بأسلوب يدع للمتعلم حرية الفهم والإدراك والوعي، ومن ثم ترشيد عملية التوصل الفكري السليم إلى الصواب، ومناقشة ذلك كله بجرية، واحترام لرأي المتعلم واستقلالته.

كما يمكن أن تتضمن بعض المقررات الدراسية خاصة ما يتعلق بالمقررات الدينية والاجتماعية تساؤلات تستثير قدرة المتعلم العقلية على المناقشة والمراجعة، وإدراك

مواطن الصواب من الخلل في القضايا المختلفة.

أما إذا كانت المناهج تُعرض وجهة نظر واحدة على أنها هي الحق، ولا تُفسح المجال لعرض الآراء الأخرى ونقدتها بصورة علمية، فإنها لم تحقق الأهداف المرجوة من العملية التعليمية المتمثلة في تنمية الملكات النقدية والاستقلالية الفكرية لدى الطلاب.

كما أن اعتبار المقرر المدرسي المصدر الوحيد لمعرفة الطالب، يجعله سجيناً في هذا الكتاب ملتزماً بحرفيته، وبالتالي فإنه لا يتعود على قراءة الآخر، وتقييم الآراء والأفكار المختلفة.

وإذا أضيف إلى ذلك: الأسلوب التلقيني، المتبع غالباً في المدارس، الذي لا يتيح المجال لأي إبداع، ويتعامل مع الطالب على أنه وعاء فارغ يتم حشوه بالمعلومات بشكل قسري، فيمكن تفهم سرّ تعصبهم لآرائهم، وعدم تسامحهم مع الرأي الآخر.

فالطفل الذي يتلقى مثل هذه التربية، لا يمكن أن ينشأ نشأة سليمة متناغمة مع غيره من الأجناس، لأنه تلقى تربية معرفية جعلت من الآخرين أعداءً، وبهذا تخلق التربية العدو كي تستفز إحساسات الناشئة، وتستثمر جهودهم لأغراضها، لأن التلقين عند الصغر أفعل في النفس، وأدوم حتى لو كان مبنياً على التزوير والكذب.

فالطفل لا يستطيع أن يحاكم الحقيقة، وإنما يقدر على تقبلها، وبخاصة إذا قدمت له في شكل قصة أو قطعة أدبية، أو حادثة تاريخية مشوقة. فهذه الأمور هي التي تشكل الأفكار المتطرفة مستقبلاً، وتجعلها ثوابت سلوكية، تتحكم في النشء، ويصعب عليهم التخلص منها. فهي تتحول إلى مبادئ وتحشد لنفسها من أسباب القوة كي تقهر

الآخر، وتنتصر عليه<sup>(٤٥٠)</sup>.

ويمكن إضافة مقررات دراسية في مراحل التعليم المختلفة، خاصة الأساسي، يتم التركيز فيها على إكساب المتعلمين قيم الحوار، والتقبل، والتسامح، والتعايش .. على أن تتضمن تلك المقررات نصوصاً من القرآن والسنة، ونماذج التاريخ الإسلامي، تركز على هذه القيم وتأصيلها في نفوس الناشئة. ويمكن أن يكون ذلك من خلال نصوص تحفظ، أو موضوعات قراءة نقدية، أو تعبير، أو قصة ... على أن يتولى المعلم دوره في تناول هذه المقررات وشرحها كمعلومات معرفية، بطريقة مشوقة مؤكداً أهميتها في الواقع، وصلتها بحياة المجتمع.

ومن ذلك قصص السلف في تعاملهم مع بعضهم البعض فيما اختلفوا فيه، وحرص كل واحد منهم على عدم فرض رأيه مهما بلغت م نزلة ذلك الرأي. ومن ذلك ما ينقل عن الإمام مالك: أنه لما أُلّف الموطأ، ومكث أربعين سنة يؤلفه، وقرئ عليه آلاف المرات، وعرضه على سبعين من العلماء فأقروه عليه، وتعب فيه أيما تعب، ومع ذلك لما بلغ الخليفة المنصور كتاب مالك وأعجبه، وقال: إنا نريد أن نعممه على الأمصار، ونأمرهم باتباعه؛ قال له الإمام مالك: "لا تفعل -رحمك الله-، فإن الناس سبقت منهم أقاويل، وسمعوا أحاديث ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وما أتوا به، وعملوا بذلك ودانوا به، وكل ذلك من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ - ثم من بعدهم من التابعين، وردُّ الناس عما اعتقدوه ودانوا به أمر صعب

(450) يونس عمرو وغانم مزعل، العربي في أدب الأطفال العربي، منشورات مركز البحث العلمي، جامعة

الخليل، ١٩٨٨ م.

شديد، فدع الناس وما هم عليه، ودع أهل كل بلد وما اختاروا لأنفسهم<sup>(٤٥١)</sup>.

فمن خلال المادة المقررة يمكن بث المفاهيم والقيم المؤكدة للحوار والتعايش بما يتناسب مع الفئات العمرية للمتعلمين. إضافة إلى أهمية تضمن تلك المقررات تساؤلات تثير العديد من المناقشات، وعلى المعلم إتاحة الفرص لمثل هذه المناقشات، وحسن إدارتها وتوجيهها بين المتعلمين، حتى يتم إدراكهم لمعاني المفاهيم من خلال الرأي والرأي الآخر، والحوار، والنقد، والإجابات المدعمة بالوسائل والأدلة العلمية، وممارسة الأسلوب العملي في التفكير وتدريب المتعلمين على كيفية توظيفه في حلّ القضايا المختلفة.

ولعل من نافلة القول الإشارة إلى ضرورة تطوير طرق التدريس، والوسائل، والتقنيات التعليمية، وعدم التركيز على التدريس التقليدي الذي أظهر عدم فاعليته في ظل التقدم العلمي الذي نعيشه، وضرورة تغيير الأساليب القائمة على الحفظ والاستظهار في معظم المقررات، إلى أساليب تقوم على حلّ القضايا بشكل يتم فيه تدريب التلاميذ على إعمال الذهن، والاختيار بين البدائل، وإعطاء الفرصة للنشء لتحديد وجهات نظرهم وإبدائها وفق منهج علمي مدروس.

كما تقوم الأنشطة المدرسية بدور مهمّ في تعزيز ثقافة الحوار، والتقبل للمخالف، لما تسهم به في ترجمة المفاهيم المجردة من خلال التدريس، والممارسات المختلفة إلى سلوكيات معاشة. من هنا تأتي أهمية تعزيز الأنشطة المدرسية لتحقيق دورٍ إيجابيٍّ في ترجمة القيم والمفاهيم، التي يحث عليها المعلم والمنهج الدراسي، وتنمية قدرة

(451) الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج ٨، ص ٦١.

الطالب على التفكير العلمي، والعمل الجماعي، والتفاعل الفعلي بين التلاميذ؛ ليتم اكتساب معنى الجماعة، والتواد والتعايش، وحرية الرأي، واحترام رأي الآخرين، والنقد الإيجابي... وهذه كلها من أهم القيم الإيجابية التي ينبغي تأسيسها. ويمكن حصر بعض الآثار الإيجابية المترتبة على تفعيل تلك الوسائل مجتمعة فيما يلي:

- تعزيز المتعلمين على الإيجابية.
- إشباع حاجات التلاميذ العلمية.
- استثارة قدرات التلاميذ العقلية وتنميتها.
- تنمية سلوكيات التلاميذ في التعامل مع الآخرين، واحترام آرائهم وتقديرها.
- تنمية روح العمل الجماعي.
- النأي بالتلاميذ عن روح التعصب للرأي.
- تحقيق ذات المتعلم من خلال ترك المجال له، لتصحيح الخطأ والاستدراك بنفسه، فإن عجز عن ذلك، قام المعلم بتعليمه بطريق المحاورة والنقاش والإقناع.

ولابد من التركيز على أهمية سلوك المعلم والمربي مسلك الحوار، والإقناع من تلاميذه، فالتعليم لا يتم عن طريق التعسف، وفرض الآراء على المتعلمين. بل إن أمثل طريقة لإيصال المعلومة هي عن طريق المحاورة، وإشعار المتعلم بالحرية في التعبير عما في نفسه. يقول ابن خلدون في ذلك: "إرهاق الجسد في التعليم مضر بالمتعلم، ولا سيما في أصغر الولد، ولأنه من سوء الملكة، ومن كان مَرَبَاه العنف والقهر من المتعلمين، أو المماليك، أو الخدم، سطا به القهر، وضيق على النفس في انبساطها، ودعاه إلى الكسل وحمله على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط

الأيدي بالقهر عليه" (٤٥٢).

إن عملية احتكاك المتعلم بمعلميه وزملائه ووجوده في مناخ يعطيه حرية التعبير والحركة والتجريب .. كلها أمور ذات أهمية بالغة في البناء العقلي، والنمو السليم للأفراد، ليتم البناء سليماً وفق منهج علمي، بعيد عن الانحرافات الفكرية وتداعياتها (٤٥٣).

من هنا، فإن للمؤسسة التعليمية دورها المحوري، في تأكيد الحوار: مفهوماً وقيمةً في وجدان وأذهان المتعلمين، وبلورته سلوكاً، وممارسة من خلال المواقف التعليمية المختلفة.

ومن الوسائل المعاصرة كذلك في هذا الميدان، استحداث كراسٍ وبعثات دراسية تمنح للجامعات الغربية، ليتم من خلالها تلقي دارسيها وطلابها تعليمهم في جامعات الدول الإسلامية، خاصة فيما يتعلق بعلوم اللغة العربية والدراسات الإسلامية.

فلا يشترط في الحوار أن يتم من خلال الوسائل التقليدية المعروفة، بل يمكن أن يتم من خلال وسائل غير مباشرة، كهذه، تسعى لإشاعة روح التعارف والتعاش بين الذات والآخر.

---

(452) عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، دار القلم، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٤م، ص ٢٤٣. وانظر كذلك: سلمان خلف الله، الحوار وبناء شخصية الطفل، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٨م، ص ١١٠.

(453) انظر في ذلك: عبد الرحمن الطريفي، العقل العربي وإعادة التشكيل، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ١٩٩٢م، ص ٦٣.

## رابعاً: المؤسسات الإعلامية:

تقوم وسائل الإعلام بدور فعال في التنشئة والتربية الاجتماعية. حيث تسهم في إكسابهم معلومات، ومعارف، وحقائق، وأخباراً ووقائع، وإعلانات ... حول موضوعات معينة، كما تساعد على تكوين اتجاهاتٍ وقيمٍ وآراء الأفراد، بما يؤدي إلى تكوين رأي عام حول هذه الموضوعات.

فوسائل الإعلام تعد من أهم وأخطر القنوات، التي تسهم مساهمة فعالة في تشكيل العقل، وطبيعة توجهه نحو قضية معينة، فيمكن من خلال الصحافة والإذاعة والتلفزيون والقنوات الفضائية والإنترنت ... التأثير على عقلية الفرد، وطريقة تفكيره. وقد أدركت بعض المجتمعات أهمية الإعلام، فقامت بتوظيفه بشكل سليم لخدمة أهدافها ومصالحها على المدى القريب والبعيد، وتقدم قضاياها من خلال العرض المطروح بمختلف الأساليب.

ومن المعروف أهمية الرأي العام Public Opinion وموقعه في دول العالم. فقد حظي هذا الجانب باهتمام المتخصصين في العديد من المجالات، كعلم النفس، والاجتماع، والسياسة، والإعلام.

ويرجع تزايد الاهتمام بالرأي العام في دول العالم أجمع؛ لما يمثله من أهمية في العديد من المجالات. فالرأي العام يشكل العنصر الأساسي لنجاح أي فكرة تدعو إليها الهيئات، أو المؤسسات<sup>(٤٥٤)</sup>. ولا يخفى دوره المحوري في التعرف على درجة شيوع

---

(454) محمد عبد القادر حاتم، الرأي العام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٢٤. وانظر كذلك: إسماعيل علي سعد، الرأي العام بين القوة و"الأيدلوجية"، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٨م،



بعض الآراء والتصورات الصحيحة، أو الخطأ التي توجه سلوك الأفراد والجماعات، واستجاباتهم للمواقف والقضايا المختلفة.

وقد أجمعت البحوث والدراسات التي حاولت الكشف عن أثر وسائل الإعلام: المسموعة، والمرئية، والمقروعة في عملية التنشئة الاجتماعية، على الدور المهم الذي تقوم به هذه الوسائل، بوجه عام، في تكوين وتغيير الآراء والاتجاهات والسلوك لأفراد المجتمع<sup>(٤٥٥)</sup>.

ولم يعد لأي مجتمع يريد الرقي والنمو تجاهل الدور الذي تقوم به وسائل الإعلام، خاصة في عصر المعلوماتية، فهي أداة فعالة في السلوك الاجتماعي والثقافي.

ووسائل الإعلام - إذا ما أحسن استخدامها - يمكن أن تسهم في تعزيز ثقافة الحوار، ونشرها من خلال قيامها بالوظائف الأساسية لها، مثل: إكساب الأفراد المعلومات، والإقناع، والترفيه. وهي وظائف تتفاعل فيما بينها لخلق جوٍّ عام يتوجه نحو الأفراد لتوجيه الخطاب إليهم.

كما لا يخفى أن الإعلام قد تجاوز هذه الوظائف الأساسية؛ ليصبح عاملاً مؤثراً مهماً في التنمية، بل وأداة رئيسية لكسب الرأي العام. فقد لعب هذا النوع من الدعاية دوراً محورياً في تغيير مواقف الأفراد والجماعات، وحتى الدول، لمن يقوم بها من الأطراف، ولرفع الروح المعنوية لديها، وكسب تعاطف الناس مع قضية معينة<sup>(٤٥٦)</sup>.

ص ١٥٠. "ألفريد سوفي"، الرأي العام، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٦٦م.

(455) "شاهيناز طلعت"، وسائل الإعلام والتنمية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٨٥.

(456) إسماعيل علي سعد، مرجع سابق، ص ١٥٢.

ويجمع الباحثون في هذا الصدد على ضرورة تعلم آليات الإقناع السلمي، بوساطة الدعاية التي باتت بديلاً حتى للحرب<sup>(٤٥٧)</sup>.

من هنا، يمكن للإعلام في البلاد الإسلامية المختلفة إحداث الأثر المنشود من خلال توجيه الحوار عبر الوسائل المسموعة، والمرئية، وبناء ثقافة شعبية، تقوم على الحوار من جهة، ومخاطبة الشعوب بلغاتها ولهجاتها المختلفة لإيصال أبعاديات الخطاب الإسلامي وغاياته من جهة أخرى، خاصة في الوقت الراهن الذي اختلطت فيه الأفكار، وشوشت المناهج، واختلطت الأصوات.

كما يمكن الاستفادة مما يعتمده الاعلام الحديث من وسائل، لإنجاحه مثل مسألة طرح الفكرة مرات، بعد مرات، ومتابعتها بأشكال جديدة ومناسبات وظروف مختلفة للوصول إلى الغرض المطلوب<sup>(٤٥٨)</sup>. فيمكن طرح فكرة الحوار بأساليب متنوعة، فتارة على شكل قصة، وتارة بشكل حوار مفتوح، وهكذا.. إلى أن تترسخ ثقافة الحوار في النفوس.

وهو أمر سبق إليه القرآن الكريم، قبل ذلك بكثير؛ فقد جاءت حوارات الأنبياء مع أقوامهم وخاصة حوار موسى عليه السلام مع فرعون مرات، ومرات في القرآن الكريم.

---

(457) قصف العقول: الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي، "فيليب تايلور"، ترجمة: سامي

خشبة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أبريل ٢٠٠٠م، ٢٣٣.

(458) زهير الأعرجي، دراسات في الإعلام، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م، ص ٥٢-٥٣.

ويمكن الاستفادة من التطور الهائل، الحاصل في الإعلام ووسائله، الذي أصبح يتيح للمسلمين فرصة تاريخية لتقدم وعرض الإسلام ومبادئه، وتاريخ إنجازاته الحضارية، وفعالياته في صنع الحضارة الإنسانية.

فقد أضافت شبكة المعلومات الدولية بُعداً جديداً لعملية الإعلام والاتصال، فلم يعد هناك جهة تنتج المعلومة وترسلها إلى جهة أخرى فحسب، بل أصبح بوسع الفرد العادي من خلال موقع، أو بريد "الالكتروني" أن ينتج ما يشاء من معلومات، ويتبادلها مع من يريد، وهذا في حد ذاته نوع من الحوار الجديد.

كما أضافت الأقمار الصناعية بُعداً جديداً يمكن الاستفادة منه في نشر ثقافة الحوار، ألا وهو الحوار بين المشاهدين، وبين ضيوف البرامج التي تبث مباشرة على الهواء. وهي أداة يمكن توظيفها لخدمة نشر الحوار، كمنهج تتم ممارسته عملياً من خلال هذه البرامج.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق، أن الحوار المؤثر في الغير لا يشترط فيه أن يكون أحادي الطرح يتم التركيز فيه على عرض مبادئ الإسلام فقط، بل يمكن أن يتم التأثير من خلال عرض متنوع الوسائل والأساليب. فتارة تطرح على المتلقي الجوانب الجمالية في الحضارة الإسلامية، وتارة: تاريخ انتشار الإسلام... وتارة: تحاور بشكل مباشر شخصيات علمية من المستشرقين وعلماء الغرب.

ولتأثير وسائل الإعلام مستويات عدة: تبدأ من مجرد الاهتمام، إلى حدوث تدعيم داخلي للاتجاهات، إلى تغيير فعلي في تلك الاتجاهات، ثم في النهاية إقدام الفرد على سلوك علني.

من هنا فإن دور وسائل الإعلام ومؤسساته يمكن أن يتركز في أمرين أساسين:

**الأول:** الخطاب الموجه للمخالف بطريقة غير مباشرة في سبيل تقديم صورة الإسلام الحقة، ومبادئه السمحة في التعامل مع الغير، عبر التاريخ، مع توخي الحذر في الوقوع في فخّ الدفاع والاقحام المضاد للمخالف من خلال تقديم مواقف دفاعية تضع الإسلام والمسلمين موضع الاقحام المتواصل.

**الثاني:** الخطاب الموجه للذات، في سبيل الترقى بنهج الحوار وتفعيل دوره في المجتمع وجعله نهجاً عاماً بين أفراد المجتمع في طرح ومعالجة مختلف القضايا. إضافة إلى تدريب المتلقي المتواصل على أساليب الحوار البناء والنقاش العلمي لخلق مناخ يحترم الرأي الآخر، والقبول بالتنوع والاختلاف.

كما ينبغي الاهتمام بالصحف والمجلات، ودورها في ذلك، خاصة فيما يتعلق بتنمية قيمة الحوار لدى الأطفال والمراهقين والشباب. حيث يرى المتخصصون في مجال صحافة هذه الفئة العمرية أن الصحيفة لا تقل في رسالتها عن الأسرة بالنسبة لهم. وتقوم بدور مهم في تثقيفهم وتشكيل شخصياتهم<sup>(٤٥٩)</sup>.

إن تأسيس، أو إعادة تأسيس، وتفعيل النهج الحوارية في الأمة يتطلب تغييراً في مناهج الفكر، وفي الأنماط السلوكية للأفراد. فيصبح الإعلام أداة فعالة في محاربة سلوكيات يسعى المجتمع لتغييرها ووقفها كما يسهم بشكل بارز في إرساء قيم وبناء سلوكيات الحوار التي يراد سيادتها في المجتمع. وبهذا يكون الإعلام قد أسهم

(459) معتر سيد عبد الله وعبد اللطيف خليفة، مرجع سابق، ص ٢٢٦.

## في تشكيل رأي عام يتبنى الحوار منهجاً وسلوكاً تعبويّاً.

فوسائل الإعلام أداة فعالة وأساسية في إرساء ثقافة الحوار، كما لا يخفى أثرها في تنمية قدرات الأفراد على ممارسة هذا السلوك، وجعله نهجاً عاماً في طرح المجتمع لمختلف مشاكله واهتماماته وقضاياها وبهذا يكون الحوار حلاً محورياً لا يمكن الاستغناء عنه.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق: دور الإعلام السليبي في التحريض، بطريقة غير مباشرة، على السلوك المنحرف، والعدواني في المجتمع من خلال عرضه لمشاهد العنف كنوع من الإثارة الفنية.

فمن العوامل الرئيسية التي تُزرع في الطفل بدايات اعتياد السلوك العنيف، تلك المشاهدات المتكررة للعنف، وإراقة الدماء على شاشات التلفزة، وغيرها. ويُعدّ علماء النفس مشاهدة لقطات العنف على شاشات التلفزيون أحد الأسباب الرئيسية لانتشار ظاهرة العنف عالمياً، ويدل على صحة ذلك أن الدول والمجتمعات التي لم تكن تعرف هذا النوع من الأفلام، كانت في منأى عن الجريمة بالشكل الذي آلت إليه في الوقت الحاضر.

تقول الكاتبة الأمريكية (بنلوب ليتسن) في سياق الحديث عن العنف الواقعي والعنف المرئي على الشاشة: "منذ جيلين فقط، كان من النادر أن يشهد الطفل شخصاً يصاب بحجر ضخم على رأسه، أو يُردى قتيلاً برصاصة، أو تدهمه سيارة، أو انفجار تتناثر معه أشلاء الضحايا (...). أما الآن فإن الأطفال، مثلهم مثل الكبار، يشاهدون هذه الحوادث يومياً وعلى مدار الساعة، وعندما يعتاد الطفل ذو الأربع

سنوات على هذه المشاهد، فإنها في الواقع تصبح شيئاً عادياً بالنسبة له، ويفقد الإحساس بها كأعمال غير إنسانية" (٤٦٠).

ومن الوسائل الإعلامية ذات الأهمية الكبرى في نشر ثقافة الحوار وتعزيزها، الندوات العامة والمؤتمرات. فهي مدعاة لتنشيط الأذهان، وإثارة العقول، وتذويب الجمود والتبلد، وغرس روح الإبداع في الأفراد من خلال المشاركة العامة فيها.

يُبد أن عملية تفعيل دور وسائل الإعلام في نشر ثقافة الحوار، لا بد أن يُسبق بخطوات من أبرزها: إدخال بعض مناهج الثقافة الإسلامية والحضارة والحوار مع الغرب في كليات وأقسام الإعلام في الجامعات المختلفة (٤٦١).

كما ينبغي أن يتوجه الاهتمام لإدخال دراسات علوم الاتصال الحديثة، وتقنياتها في مناهج الكليات ذات التخصص الشرعي، لتخريج إعلاميين مدرّكين لحيوية دور الثقافة الإسلامية، وأهمية نشرها، ودعاة مزودين بعلوم وتقنيات العصر، التي بات تعلمها من الفروض الأساسية التي لا تعذر بجهلها كوادِر الأمة (٤٦٢).

كتابي تخصصي  
فقه أصول

(460) الأطفال أولاً، نقلًا عن: محمد خضر عبد المختار، الاغتراب والتطرف نحو العنف، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٩م، ٧٦.

(461) السيد عبد الرؤف، الإعلام والتأسيس لفكر وحدوي إسلامي، بحوث مؤتمر التقريب بين المذاهب الإسلامية وأثره في تحقيق وحدة الأمة، البحرين، ص ٨.

(462) للمزيد حول أعداد الإعلاميين المسلمين، راجع: مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، رجب ١٤١١هـ، ص ٤٢.

## خامساً: تفعيل دور المؤسسات الدينية والمساجد:

ركزت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على أهمية إقامة شعائر ثابتة في الإسلام، تقام في مناسبات زمانية معينة، ومن ذلك الخطب المنبرية، كخطب الجمعة والعيدين. وقد شهدت تلك المنابر الدعوية في مراحل تاريخية مختلفة، دوراً بارزاً في طرح مفاهيم الإسلام وتعاليمه وتوجيهاته، كما عاجلت مختلف الحن والخطوب: الاجتماعية، والسياسية، والثقافية التي عصفت بالأمة. فكان المسجد بحق جامعة تربوية، ومؤسسة تعليمية راشدة، وبقيت خطبة الجمعة من أهم فعاليات المسجد.

بيد أن هذه الوسيلة تحولت بمرور الزمن إلى نوع من الرتابة الفكرية فلم تعد تخرج مواضيع الخطب عن أمور مكررة، ومواضيع محددة، ربما غابت عن الساحة الواقعية منذ أمد بعيد. وهكذا باتت الخطبة - في كثير من الأحيان - مكرسة لبعث الدين عن واقع الحياة من خلال ذلك الطرح. وواقع الأمر أن الخطابة فن وعلم له أصوله وقواعده ومتطلباته، التي من أهمها الثقافة الواسعة، والاطلاع العريض على مستجدات الواقع، ومتغيرات الحياة، وفهم عميق لشرائح الناس، ومستوياته الفكرية والاجتماعية، لتأتي الخطبة ملامسة لذلك كله في إيقاع تربوي هادف.

وتأسيس ثقافة الحوار - الذي نحن بصدد - يحتاج إلى تجنيد كافة الطاقات، وفق خطة مدروسة، لتعزيز قيمة الحوار، وتأسيس أدب الاختلاف، ونشر الوعي بين الناس: عامتهم، وخاصتهم من خلال خطب متسلسلة، تصب في اتجاه نشر ثقافة الحوار، والوعي بدور الأمة في توجيه زمامه.

ويمكن التوسل بالطرق المقترحة التالية، لتوظيف الخطب في نشر ثقافة الحوار:

أولاً: تأليف كتاب إرشادي خاص بالخطباء، يقوم بتأليفه نخبة من مفكري الأمة وعلمائها من مختلف التخصصات الإسلامية، والتربوية، والاجتماعية، والنفسية.. يتبنون في كل فترة زمنية معينة (شهرية، فصلية، سنوية) قضية كبرى يتم انتخابها من خلال دراسات ميدانية موثقة، تؤكد أهميتها ومحوريتها في المجتمع. ويمكن تبني قضية الاختلاف وأسس وآدابه... وما يندرج تحتها من أبعاد كثيرة، يمكن أن تشكل أبعاداً موضوعات تأخذ حيزاً عاماً كاملاً. على أن يتضمن ذلك الكتاب خطة منهجية متسلسلة يمكن من خلالها توطيد ثقافة الحوار والتسامح مع الآخر...

ثانياً: دعوة المصلين إلى المساهمة بآرائهم من خلال استفتاء يتم توزيعه بعد كل خطبة حول موضوع الخطبة، وأهميته، وتشجيعهم على طرح تساؤلاتهم وتحفظاتهم؛ ل يتم معالجتها من خلال الخطب اللاحقة. وهذه الخطوة تحمل جانباً نظرياً، وآخر تطبيقياً، مما يؤكد أهميتها ودورها في نشر ثقافة الحوار وفنونه بين مختلف الطبقات وممارسته عملياً.

ثالثاً: ضرورة احتواء الخطبة على ربط واقعي، ومعالجة موضوعاتها لما يثار في الواقع، مع ربط ذلك كله بالسيرة النبوية والمسيرة التاريخية للأمة، مما يستدعي اطلاعاً واسعاً للخطباء، وتمريناً مسبقاً، ودورات تأهيلية متواصلة، لتفعيل دور السيرة النبوية في الدعوة والتعليم.

رابعاً: القيام بحملات توعية كل شهر، على مستوى العالم الإسلامي قاطبة، والعالم العربي بشكل خاص، وذلك من خلال التعاون المشترك الفعال عن طريق رابطة



العالم الإسلامية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، واتحاد الجامعات، والجامع الفقهية، وغير ذلك من منظمات ومؤسسات تضم مختلف دول العالم الإسلامي. ويخصص لكل حملة توعوية موضوع يصب في تكريس وبناء ثقافة التسامح والحوار وتعزيز مبادئ الألفة والمحبة بين المسلمين. وهذه الدراسة تقدم اقتراحاً لأمثال تلك الموضوعات، كقضية التكفير، وخطورته، وآثاره الجسيمة على الفرد والمجتمع.

ويتم في هذه الحملة تكريس مختلف الجهود لنشر كل ما يتعلق بهذه المسألة، بمختلف الأساليب الدعوية عن طريق خطب الجمعة، ودروس وحلق العلم في المساجد. ويمكن تقديم لوحات بشكل مشوق يتم تعليقها كجداريات في مختلف المدارس، والجامعات، وبعض الشوارع، والمرافق العامة، تضم أحاديث نبوية تكرس مبدأ الأخوة بين المسلمين، وتحض على التسامح والوحدة، وتحذر من النيل من المسلم، أو التشهير به بأي وسيلة. كما تتضافر جهود وسائل الإعلام من خلال الدعاية المكثفة المسبقة، والمصاحبة لشعار كل حملة شهرية.

وثمة مؤسسات أخرى، لا ينبغي إغفال دورها في عملية إنجاح الحوار، ومنها على سبيل المثال: هيئة الأمم المتحدة، والتنظيمات التابعة لها.. وفي مقدمتها منظمة اليونسكو، التي تتمتع بما يؤهلها لدور مميز في تنظيم الحوار الحضاري والدعوة إليه، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، وجامعة الدول العربية، ومجلس التعاون لدول الخليج العربية، ومنظمة الدول الأمريكية، والاتحاد الأوروبي، ومنظمة دول جنوب شرق آسيا، ومنظمة الوحدة الإفريقية، ومنظمة دول عدم الانحياز وغيرها من المنظمات الإقليمية والمؤسسات المتخصصة التابعة لها.



## الباب الخامس

### الآثار الإيجابية الناجمة عن الحوار

أولاً: تخفيف حدة التعصب.

ثانياً: تخلص المجتمع من الشخصيات السيكوباتية.

ثالثاً: تحقيق الوحدة والاجتماع بين المسلمين.

رابعاً: الدعوة إلى الله.

خامساً: التلاحق الحضاري.



## الباب الخامس

### الآثار الإيجابية الناجمة عن الحوار

تتعدد ثمار الحوار الناجح وآثاره الإيجابية على المستوى المنظور والبعيد، ولعل من أبرز آثارها ما يلي:

#### أولاً: تخفيف حدة التعصب:

التعصب في اللغة: من العصبية والعصبية، أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته، والتألب معهم على من يناوئهم، ظالمين كانوا أو مظلومين. وقد تعصبوا عليهم، إذا تجمعوا، فإذا تجمعوا على فريق آخر قيل: تعصبوا، وفي الحديث: العصبي من يعين قومه على الظلم. والعصبي هو الذي يغضب لعصبته، ويحامي عنهم، والعصبة هم الأقارب من جهة الأب لأنهم يعصبونه ويتعصب بهم<sup>(٤٦٣)</sup>.

أما التعصب في المفهوم الأوروبي فهو مأخوذ من الاسم اللاتيني: الحكم المسبق *Præjudicium*. ويعني الفكرة المسبقة التي لا تستند إلى واقع موضوعي، أو منطق سليم، وتكون لدى المرء بحكم وجودها بين من ينتمي إليهم، وتنتقل منهم إليه، فيكره أو يحب من تنسحب عليه الفكرة أو الحكم دون سابق معرفة أو تجربة. فالتعصب: هوى بالنفس واتجاه نفسي<sup>(٤٦٤)</sup>. وتغير تلك التوجهات في النفس أمر بالغ الصعوبة؛ لما ينطوي عليه من القوالب النمطية<sup>(٤٦٥)</sup>.

(463) ابن منظور، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٩٦.

(464) عبد المنعم الحفني، الموسوعة النفسية، مكتبة مدبولي، ١٩٩٥، ص ٣٤٥.

(465) معتز عبد الله، التعصب دراسة نفسية اجتماعية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة

=

إلا أن الحوار الهادف المنضبط يعد من أنجع الوسائل في تخليص الفرد والمجتمع من وباء التعصب، وتحصينه منه. فالاتصال المباشر بين الجماعات المختلفة يسهم في تخفيف حدة القوالب النمطية والاعتقادات الخطأ، والعمل على تغييرها كما أن التقارب والتفاعل يزيدان في القوة والمحبة بين الجماعات المختلفة.

ويمكن تفعيل هذه الوسائل، خاصة في الدول الإسلامية، التي يعيش فيها أقليات من معتقدات مختلفة. ففي ظل التقارب والاتصال تزداد فرص التفاعل الإيجابي وإمكان قيام علاقات تقوم على الحوار والاعتراف بالآخر.

والسيرة النبوية حافلة بالشواهد التي تدل على وقوع أنواع شتى من الاتصالات التجارية والثقافية بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الملل الأخرى في مجتمع المدينة، مما أدى إلى غياب روح التعصب، والقضاء عليها إلى حد كبير، رغم وجود جماعات متباينة في المجتمع الواحد. فلغة الحوار هي السبيل الأمثل للتواصل مع الآخر في الوجود الإنساني، وإن كان يحمل رأياً مناقضاً، أو فكراً معارضاً، أو مذهباً يتعد في تكوينه عن الآخرين.

وقد حرص النبي ﷺ على مد جسور الحوار والتعارف في مجتمع المدينة مع مختلف الفئات المتواجدة آنذاك، ليخلص المجتمع من القوالب النمطية المهدة بإشعال التعصب والتحزب من حين لآخر. جاء في السيرة النبوية عَنْ أَنَسٍ أَنَّ يَهُودِيًّا دَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى حُبْزِ شَعِيرٍ وَإِهَالَةِ سِنِحَةٍ فَأَجَابَهُ (٤٦٦).

الثانية، ١٩٩٧م، ص ٨٨.

(466) مسند أحمد. ١٣٣٥٧.

والتعصب باعتباره سلوكاً متعلماً، يمكن تغييره، أو التخفيف من حدته إلى حد كبير، من خلال تفعيل وسائل التوعية والدعاية غير المباشرة والتثقيف. ويلعب التعليم دوراً إيجابياً مهماً من خلال التشجيع على تقريب المسافات بين الجماعات المتعايشة خاصة تلك التي تشترك في مجتمع واحد.

ولا يشترط في الحوار والاتصال أن يكون بشكل مباشر بين الجماعات المختلفة، بل يكفي بالمشاركة في أعمال ومشاريع متنوعة، يحدث من خلالها احتكاك واطلاع على إمكانيات الآخرين وأفكارهم.

### ثانياً: تخلص المجتمع من الشخصيات "السيكوباتية":

الشخصية "السيكوباتية" هي التي تتسم بالعنف غير الطبيعي، وتعاني من انحراف السلوك، وتسبب المعاناة لمن حولها في الأسرة والمجتمع، وتتسم بعجزها عن تكوين علاقة دائمة من المودة والاحترام مع الآخرين.

وثمة عوامل تسهم في تشكّل نمط الشخصية المضادة للمجتمع "السيكوباتية"، منها ما يتعلق بالتكوين الأسري، وبفئة الأسرة عموماً، ومنها ما يكتسب من عوامل سيكولوجية في الطفولة أو المراحل التالية، ومنها ما يتعلق بالحالة البيئية الاجتماعية التي نشأت فيها الشخصية.

وتؤكد الدراسات أهمية عدم حصر عامل واحد، والتركيز عليه في نشأة مثل تلك الشخصية، وإغفال العوامل الأخرى، بل ينبغي استحضارها جميعاً.

وتشير الدراسات النفسية إلى أن الأسرة التي يعيش أفرادها حالة التفكك والانحلال، وكثرة النزاعات والتحلل في العلاقات، تعد النواة الأولى لنشأة وترعرع

فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنة النبوية

السلوك المضاد للمجتمع "السيكوباتي". ويندرج تحت ذلك ممارسة القسوة الجسدية، أو النفسية على الأبناء، وإحساس الطفل بالخوف، أو الرعب الزائد من قبل الأبوين، أو القائمين على التربية. فتبقى صورة القسوة والعنف مرتسمة في مخيلة الطفل.

ثم إن هذا النمط من الشخصيات سرعان ما يتزايد ظهوره في البيئات التي تفشل في التواصل مع الآخرين، فتبقى محصورة مع الذات، لتقوم في فترة لاحقة بإفرازها من خلال العنف والتعدي على أفراد المجتمع والخشونة والتهور في المعاملة<sup>(٤٦٧)</sup>.

### ثالثاً: تحقيق الوحدة والاجتماع بين المسلمين:

الحوار من أهم وسائل الحفاظ على وحدة الأمة، وتحقيق التآلف بين أفرادها، وهو أمر تضافرت على وجوبه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية. فمن تأمل أحكام الشرع وجد مظاهر كثيرة تؤكد على أهمية الاتفاق والاجتماع، وتقضي على الفرقة والشتات.

فجمعت الناس في أنساكهم وصيامهم وصلاتهم: أن يشرعوا فيها في وقت واحد، ويختموها في وقت واحد، وشرع الاصطفاف للصلاة والتراص، ونهت عن تفويت الجماعة في الصلوات.. إلى آخر ذلك من تطبيقات تضافرت على تأكيد هذا المعنى.

وقد اختار بعض العلماء، كالثوري ومالك وأبي حنيفة والأوزاعي والشافعي عدم إعادة الجماعة في مسجد له إمام راتب. فمن فاتته الجماعة صلى منفرداً، لئلا يفضي

---

(467) راجع في ذلك كله: "ليندا، ل، دافيدوف"، مدخل علم النفس، ترجمة سيد الطواب وآخرون،

القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٦١٦ وما بعدها.



ذلك إلى اختلاف القلوب والعداوة<sup>(٤٦٨)</sup>. وفي هذا إعمال لمقاصد التشريع في الحفاظ على الوحدة، والنهي عن الفرقة، مهما كانت أسبابها ودواعيها. بل وترك بعض الأمور التي تصل حد الوجوب في سبيل الحفاظ على مصلحة عامة تتمثل في وحدة المسلمين.

وتأسيساً على هذا المبدأ الأصيل، ذهب العلماء إلى أن الرد على المخالف إذا ترتب عليه مفسدة أكبر، فلا يسوغ الرد عليه. يقول ابن القيم: "إن النبي ﷺ شرع لأئمة إيجاب إنكار المنكر ليحل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله، فإنه لا يسوغ إنكاره وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله"<sup>(٤٦٩)</sup>.

#### رابعاً: الدعوة إلى الله:

لعل من نافلة القول تأكيد أهمية انفتاح الدعوة الإسلامية، وضرورة توجيهها للعالم أجمع، دون حصرها بمكان أو زمان أو بئنة معينة. وهذا الانفتاح في الخطاب أمر رباني عززته عشرات النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، التي أكدت عالمية الدعوة الإسلامية، ودور المسلم في إيصال أبجديات هذه الدعوة بأفضل الوسائل والسبل المتاحة.

يقول الشاطبي رحمه الله في ذلك: "الشرعية بحسب المكلفين كلية عامة، بمعنى أنه لا يختص بالخطاب بحكم من أحكامها الطلبية بعض دون بعض، ولا يحاشى من

(468) عبد الله بن أحمد بن قدامة، المغني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ، ج ٢، ص ٥.

(469) ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين، مرجع سابق، ج ٣، ص ٤.

الدخول تحت أحكامها مكلف ألبتة، والدليل على ذلك، مع أنه واضح، أمور: أحدها النصوص المتضاربة كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وقوله عليه الصلاة والسلام: (بعثت إلى الأحمر والأسود)<sup>(٤٧٠)</sup> وأشباه هذه النصوص مما يدل على أن البعثة عامة لا خاصة ولو كان بعض الناس مختصاً بما لم يخص به غيره لم يكن مرسلاً للناس جميعاً"<sup>(٤٧١)</sup>.

والمسلمون في كل عصر ومكان مأمورون بحمل هذا التكليف، عن طريق الحوار، والتفاعل مع أصحاب الملل والديانات الأخرى، والانفتاح على الآخرين، ومدّ الخطاب الدعوي إلى العالم وشعوبه قاطبة. والحوار أولى وسائل التبليغ الدعوي وأهمها. والتاريخ الإسلامي في مختلف مراحل استجابة لهذا التكليف الرباني الذي أدرك السلف الصالح أهميته ومحوريته.

ويترتب على الحوار الناجح، أن يصبح همّ المحاور المسلم من حوارهِ وغايته الأولى تقوى الله، وتحقيق مرضاته، من خلال إحيائه لهذه الفريضة الغائبة التي لا ينصرف همها إليها إلى حب ظهور، أو شهرة بين الناس، بل غايته إظهار الحق، وتبليغه تنفيذاً لأمر الله. يقول الباجي رحمه الله في ذلك: "ينبغي للمناظر أن يقدم على جدله تقوى الله عز وجل، ليزكو نظره، ثم يسأله المعونة والتوفيق لنفسه على طلب الحق، وتوفيقه لإدراكه، ويقصد بنظره طلب الحق والوكالة عليه، ليدرك مقصوده، ويجوز أجره، ولا

(470) رواه أحمد وابن حبان.

(471) أبو إسحاق الشاطبي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٤٤.

يقصد به المباهاة والمفاخرة؛ فيذهب مقصوده، ويكتسب إثمه ووزره..<sup>(٤٧٢)</sup>.

فإذا تحقق المحاور أن الحوار في الأصل سبيل للدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أصبح لعمله هدفا يسعى لتحقيقه، وليس مجرد حاجة تلح عليها الظرفية التي يعيشها الناس اليوم.

يقول في ذلك الإمام الجويني<sup>(٤٧٣)</sup>: "أول شيء فيه مما على الناظر، أن يقصد: التقرب إلى الله سبحانه، وطلب مرضاته في امتثال أمره سبحانه، فيما أمر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... ويبالغ قدر طاقته في البيان والكشف عن تحقيق الحق وإبطال الباطل. ويتقي الله أن يقصد بنظره المباهاة وطلب الجاه والتكسب والمماراة والحك، والرياء ويحذر أليم عقاب الله سبحانه، ولا يكن قصده الظفر بالخصم والسرور بالغلبة والقهر.."<sup>(٤٧٤)</sup>.

ولا ينبغي أن ينصرف الحوار إلى فئات معينة من الشعوب، وإنما يتجه إلى مختلف الفئات، خاصة الفئة الشبابية من طلبة الجامعات الغربية على وجه الخصوص. فقد

---

(472) أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي، المنهاج في ترتيب الحجج، مرجع سابق، ص ٩.

(473) هو عبد الملك بن يوسف بن عبد الله الجويني النيسابوري يلقب بإمام الحرمين، ولد سنة ٤١٩ هـ في أسرة عريقة معروفة بالعلم سمع عن أبيه أولا وعن الإسفراييني وغيره من علماء عصره ورحل في طلب العلم كثيرا توفي سنة ٤٧٨ هـ. من مؤلفاته: الإرشاد إلى قواعد الأدلة في أصول الاعتقاد، البرهان في أصول الفقه، والكافية في الجدل وغيرها. انظر ترجمته في: طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٢٥٥، وسير أعلام النبلاء، ج ١٨، ص ٤٦٨.

(474) عبد الملك بن عبد الله الجويني، الكافية في الجدل، تحقيق: فوقية حسين محمود، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص ٥٢٩.

فترت قناعة هؤلاء بما تلقى عليهم الكنيسة من تعاليم وعقائد يعجزون في كثير من الأحيان عن فهمها، وفهم مدى واقعيتها ومصداقيتها في حل ما يعانون من مشاكل. وقد ظهر العديد من الدراسات الغربية التي تتحدث عن أزمة الشباب في الغرب في محاولات لإيجاد بعض الحلول من خلال إقامة ندوات وحوارات ومؤتمرات حول ذلك<sup>(٤٧٥)</sup>. وعليه فإن الفرصة سانحة لمشاركة المسلمين في تلك اللقاءات وتقديم التصور الإسلامي للحياة والوجود، ودور الشباب فيها، مع التأكيد على قدرة الإسلام على وضع مبادئ وقيم أخلاقية روحية عالمية، توجه وترشد تطور المجتمع الإنساني المعاصر، خاصة مع تزايد الإحساس العالمي بأزمة الإنسانية في ظل التطورات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المتسارعة. فالإسلام قادر على توفير القيم الحافظة للعلاقات الإنسانية في عالم يشوبه القلق وفقدان الشعور بالأمن، وضآلة العلاقات الإنسانية.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أهمية مراعاة الواقعية في عرض ذلك كله، وهو أمر لا يتأتى إلا بالقدرة على فهم واقع الأمم والشعوب، والتعرف على عناصرها، ومكوناتها في محاولة لتقديم تصورات ومفاهيم وحلول ملائمة تستجيب لمتطلبات واحتياجات النهوض بهذا الواقع، انطلاقاً من المبادئ والقيم والمقاصد الإسلامية. وهو أمر يتطلب القدرة على الإبداع الحضاري، والقابلية المتميزة للكشف عن القيم الإسلامية، وما يمكن أن تقدمه من معالجات، وصيغ متميزة في المجالات التنموية المختلفة.

---

(475) انظر سلسلة المؤتمرات والندوات المقامة في ألمانيا لمعالجة وضع الشباب في: السيد محمد الشاهد، المسيحية والإسلام من الحوار إلى الحوار، دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٢هـ / ٢٠٠١م، ص ٢٥.

## خامساً: التلاقح الحضاري:

يعيش العالم بصورة متصاعدة: تغيرات متسارعة في مكوناته الحضارية والثقافية، نتيجة للثورة التقنية والمعلوماتية، التي أنتجت نماذج فريدة في تشكيل العالم يصعب اللحاق بها أو فهمها.

وهذه المعطيات والتغيرات الجديدة والتحولات السريعة والثورة المعلوماتية الهائلة واختفاء الحواجز الثقافية .. تفرض علينا إيجاد وسائل فاعلة للتعامل معها والحوار حولها، والعمل المشترك على توظيفها في خدمة الإنسانية ومواجهة تداعياتها السلبية.

كما أن التنافس الثقافي من أهم عوامل النمو والتطور. وأغلب الحضارات

والإبداعات ظهرت عندما واجهت تحديات، وتواصلت بشكل إيجابي مع الآخرين.

لأن إبداع الآخر يستثير ويحرك روح التنافس. وهو ما شهدته التاريخ في النهضة

الأوروبية التي بدأت من خلال اتصالها بالآخر المسلم في قرطبة وأشبيلية وغيرها من

قلاع العلم والمعرفة الإسلامية آنذاك. فالتواصل الفكري يؤدي إلى وجود أفكار

جديدة عبر التفاعل والتكامل بل والتضاد.

تقول المستشرقة "زيغريد هونكه": "كانت الاحتكاكات بين الآراء المختلفة قد

منحت الحركة الفكرية حيوية دائمة، وحمى الإسلام من الجمود، وأجبرته على أن

يسلح نفسه علمياً، وأن يتطور بالقوى العقلية وينهض بها من سباتها"<sup>(٤٧٦)</sup>.

وقد أثبتت الدراسات "السيكواجتماعية"، ومدرسة جنيف التي تتعلق بالبناء

(476) "زيغريد هونكه"، ص ٣٧٣.

الاجتماعي للذكاء، أن القدرات العقلية للفرد لا يمكنها أن تتطور إلا مع الآخر المختلف، أي في ظل الصراعات المعرفية، التي تشكل المجال الأفضل للتطور الذهني والمعرفي. فالتفاعل الاجتماعي، يمكن الفرد من بناء أدوات ذهنية جديدة تساعده على مزيد المشاركة في تفاعلات اجتماعية أكثر تطوراً وأكثر تعقيداً، وهو ما يسمى بالسببية اللولبية<sup>(٤٧٧)</sup>.

كما تؤكد الأبحاث التطبيقية في علم النفس والتعليم التي قام بها "جان بياجيه"<sup>(٤٧٨)</sup> (١٨٩٦-١٩٨٠) أن التقدم المعرفي وإثراء الفكر، لا يحصل إلا إذا وجد الأفراد أنفسهم في وضعيات اختلاف ومواجهة مع أفراد متنوعي المستويات والتوجهات. وبناء على ما قدمته هذه الأبحاث من حقائق يمكن أن نستنتج أن أي صراع معرفي بإمكانه أن يؤدي إلى إثراء الفكر يشترط وجود اختلافات في آراء الأطراف المجتمعة حول عملية قلمك المعرفة. إذ أن الاختلاف يفرز لدى الفرد وعياً مزدوجاً<sup>(٤٧٩)</sup>. فهو

(477) حول ذلك انظر: عبد المنعم الحفني، موسوعة مدارس علم النفس، مكتبة مدبولي، مصر، ١٩٩٥، ص ٤٧١. وهو ما أشارت إليه المستشرفة الألمانية "زيغريد هونكه". انظر من هذه الدراسة ص ٥٤.

(478) نظرية الارتقاء المعرفي لـ "جان بياجيه" ١٨٩٦-١٩٨٠ هي واحدة من أهم النظريات في علم النفس الحديث، وإذا كان مقياس أي نظرية يقاس بقابلية فروضها للتحقق من صحتها، وإمكانية الحصول على نفس النتائج في ظروف مشابهة مع وضوح التعريفات المتعلقة بالنظرية إلى جانب ما يمكن للنظرية أن تثيره من بحوث جديدة، فإننا نستطيع أن نقول أن أغلب هذه الشروط - إن لم يكن كلها - قد توافرت لنظرية "بياجيه" بطريقة لم تتوافر لأية نظرية أخرى مشابهة في مجال علم النفس، فقد حصر "مدجل" حتى عام ١٩٧٦ ما يزيد على ٣٥ ألف بحث ودراسة أجريت حول المفاهيم الأساسية في نظرية "جان بياجيه".

(479) "أرنو ف. ويتبيج"، نظريات ومشكلات في سيكولوجية التعلم، ترجمة: عادل عز الدين الأشول وآخرين، دار "ماكجروهيل" للنشر، ١٩٨٤م، ص ٣٢٩. وانظر: "جان بياجيه"، اللغة والفكر عند

=

فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنة النبوية

من ناحية يشعر الفرد أن نظامه التأويلي غير متلائم مع ما هو مطلوب منه، فيتجاوز بذلك البدهة الخادعة، والأفكار المسبقة، والمعارف الحسية المباشرة والسطحية، عبر تصحيح الفكر بالوقائع، وترشيد الواقع بالفكر في حوار جدلي دائم. ومن ناحية أخرى يكتشف الفرد أوجه نظر مغايرة، وهو أمر جد مهم: لأن هذا الاكتشاف سيعينه على تجاوز التمرکز حول الذات (أي تمرکزهُ حول ذاته) المضرة بالنمو السليم لفكره، لأن الطفل يتجاوزها عند سن السابعة. إلا أن إثراء الفكر عن طريق الصراعات المعرفية يتطلب مُناخاً معيناً يقبل الاختلاف، ويسوده التفاهم والتسامح.

وقد بينت الدراسات "السيكوساجتماعية" منذ تجربة كـ"لوين المجرات" سنة ١٩٣٨ — مدى تأثير الأجواء السائدة على نتاج الفكر وإثرائه.

كما تؤكد النظرية التفاعلية الاجتماعية لـ"دواز" *Doise* أن التعلم لا يتم عن طريق الصراع المعرفي فحسب، بل يتم بصفة أفضل داخل المجموعة، وذلك عن طريق الصراعات الاجتماعية المعرفية *Les conflits sociocognitifs*.

وقد أبرزت مدرسة جينيف من خلال مباحثها أن دينامية التطور المعرفي تكون أفضل داخل وضعيات التفاعل الاجتماعي تلك التي تحمل كل مشارك في الصراع على إبداء آرائه أو تنسيق جهوده مع الآخرين، الشيء الذي يمكنه من التطور المعرفي، وتشتترط لذلك: وجود نسبة من الاختلافات بين آراء الأفراد. كما ترى ضرورة تنظيم المشاركة وتطوير الصراع المعرفي ليؤتي ثماره.

الطفل، ترجمة أحمد عزت راجح، ط ١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٤م.

وتشكل العوامل الذاتية أكثر العناصر محورية، وأهمية في الذات. فالنفس الإنسانية عندما تسرف في تقدير ذاتها، وتستعلي على الآخرين، وتحس بالتفوق المطلق، ترفض الاعتراف بغيرها، ومن هنا ينشأ الاستبداد. هذا بالإضافة إلى سيطرة الروح الأنانية والمصلحية في الإنسان، التي تحاول أن تحتكر كل شيء لصالح منافعها الخاصة، هذه الأنانية قادت ولاشك إلى كثير من النزاعات والصراعات العنيفة. ويرى الفيلسوف الفرنسي "الكسيس دي توكفيل" (٤٨٠) أن الفردية بحد ذاتها صيغة مخففة من الأنانية التي تدفع كل فرد من أفراد المجتمع إلى عزل نفسه، والابتعاد عن الآخرين. ويرى "توكفيل" أن تماسك المجتمع يتطلب تجاوز النزعة الفردية والأنانية الضيقة (٤٨١).

إن القراءة التاريخية لمعظم الأمم والحضارات، تعطينا نتيجة واضحة، وهي أن الأمم التي استطاعت ان تتقدم وتتطور وترتقي سلم الحضارة هي الأمم التي استطاعت أن توجد حالة التجانس والتعايش والتفاهم بين مختلف الفئات والقوميات والطوائف والأديان، وفي مختلف جوانبها النفسية والاجتماعية والسياسية بحيث كتب لها البقاء التاريخي على مرور الأجيال؛ لقدرتها على تحقيق

(480) ولد "توكفيل" بعد الثورة الفرنسية مباشرة (عام ١٨٠٥)، ومات بعد أواسط القرن التاسع عشر بقليل عن عمر لا يتجاوز الرابعة والخمسين عاماً، مفكر سياسي وعالم اجتماع ومؤرخ عميق في ذات الوقت، وقد ولد أصلاً في عائلة أرستقراطية مؤيدة للعهد القديم، ومعادية بالضرورة للثورة الفرنسية التي قضت على امتيازات الطبقة الأرستقراطية ومصالحها. خلف وراءه بعض الكتب المهمة من أشهرها: الديمقراطية في أمريكا.

(481) حول ذلك كله انظر:

Oliviour Zunz & Alan S. Kahan, The Tocqueville Reader, Blackwell Publishing. Oxford, 2003.



الوفاق الإنساني والسلام العام.

والأمة الإسلامية التي أنشأها رسول الله محمد ﷺ، شاهد حي لا يزال يزخر بنماذجه الرائعة. فقد استطاعت أن تجمع النسيج البشري في أطر متوافقة؛ من أجل البناء المشترك، والحياة السليمة، والعدالة العامة، بعيداً عن الحرب والقتل والعنف.

فقد استفاد المجتمع المسلم من التواصل الإيجابي، مع محافظته على قيمه الذاتية، بناءً على وجود قدرة واعية في تفهم الآخر، والاستفادة بشكل متبصر من خلال التبادل الفكري والعلمي والحضاري. من هنا وجدت شخصيات بارزة أسهمت في صياغة الحضارة الإسلامية ونموها، رغم مخالفتها في المعتقد والملة. ولم يكن في أي زمن من الأزمنة عنصر التنوع والاختلاف، مشرعاً للتناحر والصراع والتصادم.

إن قدرة أي أمة في تحقيق قوتها ورفيها، هو في قدرتها على استيعاب الآخرين، وضمهم في مسيرتها وتحقيق الوفاق الجماعي الشامل. كما أن عجز أي أمة يتبين من نبذها للآخرين وتشثيتها لأفرادها واختيار تقطيع أوصالها لكيانها عندما ترفض مبدأ التوافق. حيث أن التعامل الإيجابي، والمتفهم، مع الآخر الفكري أو المذهبي أو الديني.. هو العنصر الأساسي في حركة التاريخ المتقدمة نحو المستقبل. إذ أن حركة الإنسان لا تتكامل عناصرها بشكل عملي إلا بتكامل الجسم الإنساني العام. فالإنسان وحده لا يشكل إلا وجوداً يمثل وجهاً واحداً، والوجه الآخر هو الإنسان الآخر، الذي يمثل البعد الآخر المكمل للوجود الإنساني.



## الباب السادس

### الآثار السلبية الناجمة عن غياب الحوار

المبحث الأول: الإسراف في تقدير الذات.

المبحث الثاني: شيوع فكر التعصب.

المبحث الثالث: بروز التطرف الفكري.

المبحث الرابع: انتشار السلوك العدواني والعنف.

المبحث الخامس: فقدان الثقة بين الأفراد في المجتمع الواحد.

المبحث السادس: الوقوع في الظلم والبغي وبرز ظاهرة التكفير.

المبحث السابع: انتشار داء الفرقة والنزاع.

المبحث الثامن: التراجع الحضاري.



## الباب السادس

### الآثار السلبية الناجمة عن غياب ثقافة الحوار

إذا غابت ثقافة الحوار عن المجتمع، سواء أكان ذلك الحوار داخلياً أم خارجياً، طفت جملة من الظواهر السلبية، التي قد لا يتفطن المجتمع في البداية إلى خطورتها، إلا أنها سرعان ما تنتشر ويستفحل أثرها. من هنا فإن كوادرات المجتمع الثقافية مطالبة بمراجعة ودراسة الظواهر المجتمعية أولاً بأول، والتنبه لمعالجتها مبكراً قبل استفحال خطورتها، ومن تلك الآثار ما سأحدث عنه في المباحث الآتية:

### المبحث الأول: الإسراف في تقدير الذات

يذكر علماء النفس أن للشخصية الإنسانية جوانب ثلاثة، كما تقرر مدرسة التحليل النفسي، حيث يرى مؤسس هذه المدرسة أن هذه الجوانب هي (الهو Id) (الأنا Ego) (الأنا الأعلى superego). ومنع التعصب للرأي هي (الأنا ego)، وهي تختلف من شخص لآخر حسب المستوى والعمر والطموح. وتشكل ضغطاً على النفس عندما يفسح لها المجال التوسعي، فترى ذاتها فوق الآخر. وتوجد علاقة وطيدة بين حب الذات والآخرين، فالذاتية تجعل الفرد يحافظ على وجوده. ويرى "شوبنهاور" Showpenhoor أنه مع الفردية Individuality والأناية (حب الذات) يريد الفرد كل شيء لنفسه، ويجعل من ذاته مركز العالم، وينظر إلى كل ما يجري من حوله من زوايته الخاصة فقط. كما يتلقى مصالح الآخرين واهتماماتهم باللامبالاة وعدم الاكتراث. من هنا كان حب الذات والإسراف في تقديرها مدعاة لنهاية الإنسان

ذاته، كما أكد ذلك الفيلسوف الأخلاقي<sup>(٤٨٢)</sup> Gankifitish.

وبهذا يفر المرء إلى الانغلاق حتى يصبح السمة الأساسية في سلوك الأفراد والجماعات، مع قطع خطوط الاتصال والتواصل مع الآخر.

كما تمتد خطورة الإسراف في تقدير الذات إلى خلق شعور بفرط الإحساس بالانتماء إلى جماعة الفرد ذاته، فيدفعه إلى التفاخر بأصله على حساب قوميات أخرى وأمم أخرى. ثم إن هذا الإحساس يمكن أن يسوق إلى الشعور بالمغايرة للأمم الأخرى، وهذه المغايرة من الأسباب النفسية الدافعة للكراهية، والمستوجبة للنفور. وفي الحالات الشديدة قد تتحول إلى "فوبيا" الأعراب<sup>(٤٨٣)</sup> Xenophobia.

و يعد الإسراف في تقدير الذات من أبرز عوامل الجمود والتوقف عن السير في الخط الإيجابي. من هنا جاء تحذير النبي عليه الصلاة والسلام من تلك المرحلة أيما تحذير حين قال: "إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك.." <sup>(٤٨٤)</sup>.

ومن النتائج المترتبة على ذلك، التعصب للرأي وإملاؤه على الآخرين وفرضه في جميع دوائر الحياة ومناحيها. فتبرز: مجتمعات الكراهية، وفقدان الثقة بالآخرين، وتفرق الكلمة، والتستر على العيوب، وتحطم روح الجماعات، وسدّ قنوات الاتصال

(482) "إيريك فروم"، المجتمع السليم، تعريب: محمود محمود، ص ٣١-٣٣.

(483) عبد المنعم الحفني، مرجع سابق، ص ٣٤٨.

(484) رواه الترمذي في السنن، ج ٨، ص ٢٢٢ رقم ٣٠٦٠. وابن ماجه في السنن، كتاب الفتن، ج ٢، ص

١٣٣١ رقم ٤٠١٤. وأبو داود في السنن، ج ٤، كتاب الملاحم.

بالآخرين والتفاهم معهم.

ومن أخطر نتائج الانغلاق على الذات وإقصاء الآخر: انتشار الانحرافات الفكرية والثقافية وغيرها. فقد أثبتت إفرزات الواقع أن أغلب الانحرافات تنشأ في الأجواء المغلقة والاستبدادية؛ لأن عدم وجود التواصل المستمر يلغي حركة الحوار، والتخاطب البناء في المجتمع، مما يساهم في ترسيخ الأفكار السلبية، ونمو الأفكار الضالة، التي تنشأ في الأذهان لشبهات بسيطة لم تجد جوابا ونقاشا من الآخرين. لذلك نرى الكثير من المجتمعات المنعزلة تصبح مرتعا للانحراف بعد أن فقدت التواصل قواعدها الداخلية وعالمها الخارجي كذلك.

ومع غياب الحوار، وتنامي الإحساس بتقدير الذات، واعتقاد امتلاكها الحق المطلق، دون سواها، يتفاقم الانغلاق الفكري السائق إلى التطرف الفكري.

## المبحث الثاني: شيوع فكر التعصب

والتعصب يجعل في مقدرة المتعصبين، الذين لهم السيطرة في مجتمعاتهم، أن يميزوا أنفسهم فيها، وأن يفرزوا غيرهم، بحيث يَسْتَبْقُونهم تابعين لهم وخاضعين لسيطرتهم. وعادة ما يتوجه في المجتمع الواحد من الأغلبية إلى الأقلية. ويفسر ذلك التوجه علماء النفس الاجتماعيين أن بعض المجتمعات، أو بعض الأفراد في جماعة داخل المجتمع، تقوم على اعتبار تماسكها في جماعة واحدة داخلية، وتطلق على الأقلية، أو ما دونها، اسم: الجماعة الخارجية. وتبدأ بتصور غيرها من الجماعات على أنها جماعات خارجية مختلفة عنها في خصائصها وثقافتها وقيمها. وبناء على ذلك تُعاملها معاملة تتسم بالتعصب والتمييز. وكثيرا ما يقوم الصراع بينهما، حيث تمثل قيم ومعايير وأنماط السلوك

فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنة النبوية

للجماعة الخارجية تهديدا لتماسك الجماعة الداخلية<sup>(٤٨٥)</sup>.

وهو وباء نفسي اجتماعي قديم، حاربه الإسلام منذ بداية ظهوره. فقد كانت قيم العصبية القبلية العربية، ومحاور الولاء التي أفرزتها، متأصلة بعمق في الذات العربية. فلما جاء الإسلام أحدث نقلة نوعية تأبى انتقال تلك العصبية إلى المجتمع العالمي الجديد، وتؤكد توسيع شبكة العلاقات الاجتماعية إلى ما وراء دائرة الولاء القبلي. وقد شكل التعصب والولاءات العصبية واحدة من أعتى العقبات في طريق الدعوة، وانتشارها، في بيئة كانت تعتبر المقيمين خارج الدائرة القبلية أجنب عنها، ولا ولاء يربطهم بالقبيلة.

فكان التحدي الأكبر أن يواجه ذلك التيار، وأن يتم تزكية النفوس في سبيل بناء أمة عالمية، يتعايش فيها مختلف الأجناس والأعراق.

وعلى هذا، حارب النبي عليه الصلاة والسلام قيم التعصب، واعتبرها قيما بالية نتنة وحثر الأمة من الردة إليها، واعتبرها من الأمور الكبيرة. ففي الحديث: (إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب).

وفي حديث آخر: "دعوها فإنها منتنة" عندما ضرب أجير عمر رضي الله عنه حليف الخزرج؛ فسأل الدم، فنادى حليف الخزرج يا معشر الأنصار. وقيل: قال: يا للخزرج. ونادى أجير عمر: يا معشر المهاجرين. وقيل: قال: يا لكنانة يا لقريش. فأقبل جمع من الجيشين وشهروا السلاح، حتى كادت أن تكون فتنة عظيمة. فخرج رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ فأخبر بالحال، أي: فقالوا: رجل من

(485) الحفني، مرجع سابق، ص ٣٤٩.



المهاجرين ضرب رجلاً من الأنصار. فقال رسول الله ﷺ: دعوها (أي: تلك الكلمة التي هي: يا لفلان) فإنها منتنة (أي: مذمومة؛ لأنها من دعوى الجاهلية)"<sup>(٤٨٦)</sup>.

(من نصر قومه على غير الحق؛ فهو كالبعير الذي رُدِّي، فهو يُنزع بذنبه)<sup>(٤٨٧)</sup>.

والتعصب له أسبابه المختلفة إلا أن من أهم أسباب تزايد ودواعيه: غياب

الحوار مع المخالف. مما ينجم عنه اتساع في الهوة بين الأغلبية التي تعيش غالباً في بلدها وبين أفراد مجتمعتها، وبين الأقلية المخالفة لها في الدين والمعتقد وتعيش معها لسبب أو آخر.

ويرى علماء النفس الاجتماعيين أن التعبير عن التوجه التعصبي لدى الأفراد يتخذ مراحل متعددة، منها: التمييز Discrimination وتعد هذه المرحلة بداية أشكال التمييز الضارة، حيث يأخذ صاحب التعصب على عاتقه السعي إلى منع أعضاء الجماعات الخارجية من الحصول على التيسيرات والامتيازات التي يتمتع بها هو والآخرون من أعضاء جماعته.

وقد أشار إلى تلك المرحلة وخطورتها النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث، الذي أخرجه الحاكم عن حذيفة عن رسول الله قال: "لن تفتني أمتي حتى يظهر فيهم التمايز والتمايل والمعامع. قلت: ما التمايز؟ قال: عصبية يحدثها الناس بعدي في الإسلام قلت فما التمايل قال تميل القبيلة على القبيلة فتستحل حرماتها. قلت: فما

(486) السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٥٩٥.

(487) أخرجه: أبو داود في كتاب الأدب، باب في العصبية ٣٤١/٥، بإسناد صحيح.

المعامع؟ قال: تسير الأمصار بعضها إلى بعض تختلف أعناقها في الحرب" (٤٨٨).

من هنا كان اعتبار النبي عليه الصلاة والسلام فكر التعصب، وخاصة التعصب في المعتقد، Belief Prejudice من أخطر الأوبئة الفكرية والنفسية.

بل إن القرآن الكريم اعتبره من سيماء المجتمع الجاهلي، ومن أخطر معالمه التي عانى منها الناس طويلاً قبل الإسلام. كما اعتبر الخلاص من التعصب والعصبية من نعم الإسلام على العباد، ومن ثمرات تنفيذ تعاليمه ومبادئه. قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُم آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٤٨٩).

ذكر الطبري في تأويلها: "اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم التي أنعم بها عليكم حين كنتم أعداء، أي: بشركم يقتل بعضكم بعضاً، عصبية في غير طاعة الله ولا طاعة رسوله، فألف الله بالإسلام بين قلوبكم، فجعل بعضكم لبعض إخواناً، بعد إذ كنتم أعداء، تتواصلون بألفة الإسلام واجتماع كلمتكم عليه، وعن قتادة: قوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ كنتم تذابحون فيها، يأكل شديدكم ضعيفكم حتى جاء الله بالإسلام فأخى به بينكم، وألف به بينكم" (٤٩٠).

(488) رواه الحاكم في المستدرک على الصحيحین، ج ٤، ص ٥٦٩، رقم ٨٥٩٧.

(489) سورة آل عمران: ١٠٣.

(490) تفسير الطبري، ج ٤، ص ٣٣.

ويرى علماء النفس أن مردّ التعصب مكتسب، فهو فكر وسلوك يتعمله الفرد ويتلقاه من خلال عمليات التعلم الاجتماعي، سواء أكان ذلك في الأسرة من خلال آباء وأمهات متسلطين يمارسون التسلط على أبنائهم أم مع جماعة الأقران، أم من خلال وسائل الإعلام المختلفة التي تعرض بعض أشكال العنف تجاه فئات معينة، أو جماعات محددة، فتتمي روح الكراهية إزاتها. ويعد هذا الاتجاه في تفسير ظاهرة التعصب، الأكثر شيوعاً وقبولاً في ميدان علم النفس الاجتماعي بوجه عام<sup>(٤٩١)</sup>.

وقد يكون الفرد في بداية حياته متمركزاً حول ذاته، ثم نما في مجتمعه ليصبح متحوراً حول الجماعة، ثم لعبت عوامل التنشئة الاجتماعية دوراً في إكسابه وتعليمه اتجاهات معادية، أو مناهضة لإحدى الجماعات، زادت المسافة الاجتماعية، ونما الاتجاه السالب لديه<sup>(٤٩٢)</sup>.

كما يذهب علماء النفس كذلك إلى رد بعض أسباب التعصب إلى مشاعر نقص في المتعصب، تجعله يغالي في الانتساب إلى قيم ومعايير جماعته، ليقوى بها ويجد متنفساً لصرف مشاعر النقص لديه على أفراد الأقلية<sup>(٤٩٣)</sup>.

وخلاصة القول أن كافة أشكال التعصب تتوقف أساساً على استعداد الفرد أو الجماعة لقبول هذه الظاهرة أو المفهوم أو السلوك. فالانغلاق الذاتي للفرد، والتريبة

(491) معتز سيد عبد الله، مرجع سابق، ص ٥٥٨.

(492) ليلي عبد الستار، تنمية التفكير السليم لدى الشباب الجامعي لمواجهة التطرف، مجلة دراسات تربوية،

المجلد السابع، الجزء ٤٣، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ١٩٧.

(493) الحفني، مرجع سابق، ص ٣٥٢.

الثقافية، والتراكمات النفسية والثقافية والفكرية، تسهم في تشكل تلك السلوكيات الصدامية.

كما أن إنكار ورفض الاعتراف بالمخالف، هو في حدّ ذاته سلوك صدامي عام، يصدر من خلال القنوات النفسية والثقافية والعقائدية للفرد، حتى يصبح عاجزا عن التفاهم مع الآخرين. وفي الطرف الآخر فإن الفرد المتسامح والإيجابي نراه قادرا على التواصل مع الآخرين، والانفتاح عليهم على كافة المستويات.

والتعصب أولى خطوات التطرف، فالإنسان المتعصب هو الذي لا يعترف للآخرين بوجود، ولا يفتح نافذة للحوار مع الآخرين، وموازنة ما عنده بما عندهم، والأخذ بما يراه، بعد ذلك، أنصع برهاناً، وأرجح ميزاناً. من هنا كان انغلاق باب الحوار من أخطر الأمور المؤدية إلى نشأة وترعرع أوبئة فكرية في داخل دهايز عقلية بعيدة عن المجتمع والتحاوّر معه.

كما أن فقدان التواصل الإيجابي، والحوار المتفاهم، يسوق إلى لغة سلبية قائمة على التصادم والشك والتلقي الثقافي السيء.

ومما يسهم في حدة، وازدياد حالات التعصب اليوم، طبيعة الظرفية التاريخية الراهنة، المتسمة بفرض نمط الحضارة الغربية، واستخدامها كافة وسائل الهيمنة الثقافية والاقتصادية. الأمر الذي من شأنه تغذية مظاهر الصراع الحضاري بين البشر، وإدخاله في حلقات جديدة أكثر عنفا وضراوة.

والحوار هو الحل الأمثل لإخراج الإنسانية من تلك الدوامة. فالحوار سبيل يعزز مبدأ التعايش بين الحضارات، والتواصل الإيجابي بينها، لإبراز العناصر التي تعزز احترام

فقه الحوار مع المخالف في ضوء السُّنة النَّبَوِيَّة

الحضارات والأمم الأخرى.

ولا يقف أثر داء التعصب الناجم عن غياب الحوار، عند حدّ المخالف في المعتقد فحسب، بل يمتد ليشمل المخالفين من المسلمين كذلك. الأمر الذي يترتب عليه انتهاك حرمة المسلم، والنيل منه، والتعريض به، والقدح فيه مجرد الاختلاف معه في أمر ما. وقد وصّف هذه الحالة التاريخية الإمام الشوكاني رحمه الله حيث قال:

"وها هنا تُسكّب العيرت، ويُناح على الإسلام وأهله بما جناه التعصّب في الدين على غالب المسلمين: من الترامي بالكُفر، لا لسنة ولا لقرآن، ولا لبيان من الله، ولا لبرهان، بل لما غلّت به مراحلُ العصبية في الدين، وتمكّن الشيطان الرجيم من تفريق كلمة المسلمين، لقنّهم إزامات بعضهم لبعض بما هو شبيه الهباء في الهواء والسراب ببيعة، فيا لله والمسلمين من هذه الفاقرة، التي هي أعظم فواقر الدين، والرزية التي ما رزى بمثلها سبيل المؤمنين.." (٤٩٤).

### المبحث الثالث: بروز التطرف الفكري

التطرف في اللغة: الوقوف في الطرف بعيدا عن الوسط، وأصله في الحسيات، كالتطرف في الوقوف، أو الجلوس، أو المشي. وفي المعنويات كالتطرف في الدين أو الفكر أو السلوك.

فالتطرف Extravagance هو البعد عن منتصف المنحنى الاعتدالي، من خلال

(494) محمد بن علي الشوكاني، السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ، ج ٤، ص ٥٨٤.

الإفراط والتفريط، وقد يظهر في الفكر أو القول أو الفعل. وقد يتصف المتطرف بتصلب الشخصية والسلوك<sup>(٤٩٥)</sup>.

والتطرف اتجاه نفسي وانفعالي، يجعل الفرد يؤمن بعقيدة، أو حكم مسبق، دون الاعتماد على سند منطقي، أو معرفة كافية، أو حقيقة علمية. الأمر الذي يقوده إلى عدم إدراك الواقع إلا من خلال نظرتة الذاتية بكل ما تحمله من تحيزات<sup>(٤٩٦)</sup>.

وهو ظاهرة قديمة قدم الإنسان، فقد عرفت البشرية موجاتٍ بالغة من التطرف. وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجمود العقلي Dogmatism والانغلاق الفكري. فالتطرف في الأساس أسلوب مغلق للتفكير، يتسم بعدم القدرة على تقبل أية معتقدات أو آراء تختلف عن معتقدات الشخص أو الجماعة التي ينتمي إليها<sup>(٤٩٧)</sup>.

وتشير الدراسات في علم النفس إلى أن التطرف مظهر من مظاهر التعصب للرأي الذاتي، والعقيدة والفكر، وعدم الرغبة في الاعتراف بالنقد الموجه من قبل الآخرين. من هنا يظهر التطرف من خلال الرفض لمناقشة الرأي الذي يعتقده، مما يجعله يقف في وجه كل فكر جديد. الأمر الذي يجره إلى اعتقاد أنه يمتلك الحق المطلق، مما يدفعه إلى التصرف في اتجاه تصويب الآخرين، وإقناعهم بوجهة نظره. فإن لم يحدث اقتناع، لجأ

(495) مصطفى سويف، التطرف كأسلوب للاستجابة، الأجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٤.

(496) حامد عبد السلام زهران، علم النفس الاجتماعي، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٤م، ص ١٦٥.

(497) سمير نعيم، المحددات الاقتصادية والاجتماعية للتطرف الديني، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، يناير ١٩٩٠م، ص ١١١.

إلى العنف، وهو الممارسة العملية للتطرف الفكرى، والمحصلة النهائية له<sup>(٤٩٨)</sup>. والاستمرارية في رفض المخالف وآرائه مطلقا مهما بلغت من الصحة والصواب، تزيد من حدة التطرف، وقد تدفع به إلى العدوان؛ لإسكات كل صوت يغير رأيه واعتقاده.

### المبحث الرابع: انتشار السلوك العدواني والعنف

ثمة تداخل واضح بين مفاهيم العنف Violence والعدوان Aggression والعداوة Hostility.

فالعنف في جوهره حالة نفسية سلبية ضد الآخر، بحيث تنفيه، وترفضه في وجوده ونفسه أو في موقعه ومنصبه أو في مصالحه وعلاقاته، وتتحرك نحوه بطريقة عدوانية - تدميرية.

والعدوان: أيُّ سلوك يصدره الفرد بهدف إلحاق الضرر أو الأذى بفرد آخر أو مجموعة من الأفراد: بدنيا، أو لفظيا، بصورة مباشرة، أو غير مباشرة.

أما العداوة فهي: استجابة اتجاهية تنطوي على المشاعر العدائية، والتقويمات السلبية للأشخاص والأحداث، وهو ما يعبر عنه بصورة لفظية<sup>(٤٩٩)</sup>.

والعلاقة جد قريبة بين الثقافة التي تؤسس لمقاومات الإكراه والإلغاء والنفي، والسلوك العدواني تجاه الآخر. بمختلف درجاته. فالثقافة التي لا ترى إلا ذاتها، وتلغي ما

(498) عبد الرحمن عباد، التطرف الفكري أسبابه وأبعاده، المؤتمر الثامن، مرجع سابق، ص ٤.

(499) بتصرف عن: عبد اللطيف محمد خليفة، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٣م، ج ١، ص ٤٠.

عدها، هي المقدمة النظرية لذلك السلوك العدواني، الذي لا يرى إلا قناعاته ومصالحه، ويعمل على تدمير الآخر بمستويات متعددة.

والعلاقة بين الثقافة التي تبث الكراهية بين بني الإنسان، لدواعٍ "أيدولوجية" أو سياسية، وبين السلوك العدواني بكل مستوياته، والذي يستهدف تدمير الآخر وإلغائه هي علاقة السبب بالنتيجة.

فلا يمكن أن تُنتج ثقافة الكراهية والبغضاء والإلغاء واقع المحبة والألفة والتسامح، بل تنتج واقعاً من طبيعة ماهيتها وجوهرها، وهو العدوان بكل صورته ومستوياته.

وهو سلاح يستخدمه البعض عندما لا يستطيع أن يستجيب لمتطلبات التواصل والحوار. فعندما يعجز الفرد عن إقامة التفاهم والاتصال الموضوعي مع الآخرين يلجأ للعنف، لإثبات وجوده وفرض قيمه. إذ أن استخدام العنف في غير موقعه يبين ضعف الفرد أو الجماعة في التواصل، والاندماج بشكل سليم في المجتمعات البشرية، وفقدان القدرة التفاعلية على الحوار والتفاهم والتكامل.

ويرى بعض علماء النفس العنف والعدوان بمختلف أشكاله في ضوء التفاعل بين التفسير الاجتماعي والتحليل النفسي لسلوكيات الفرد. مع تأكيد أهمية مفهوم (الذات) ومفهوم (الآخر) والتطور النفسي الاجتماعي لهذه الجوانب في بناء الشخصية، ومديات استعدادها لسلوك العنف والعدوان في حال فشل التفاعل والتواصل بين الذات والآخر<sup>(٥٠٠)</sup>.

(500) معتز عبد الله، صالح أبو عباة، أبعاد السلوك العدواني دراسة علمية مقارنة، مجلة دراسات نفسية، المجلد

الخامس، العدد الثالث، ١٩٩٥م، ص ٥٢١ وما بعدها.



كما يرى البعض الآخر منهم أن هذه الظواهر السلبية نتاج حالة الاغتراب الناجمة عن فقدان العلاقات الاجتماعية بين الأفراد بعضهم البعض أو توترها، وبينهم وبين المجتمع من ناحية أخرى، إضافة إلى وجود عقائد تحمل طابعا عدوانيا عنيفا في التعامل والسلوك. وتعتبر تلك المظاهر لبنات المرض النفسي وتكوينه لأي شخصية عدوانية ذات سمة إرهابية.

وتأسيساً على هذا، فإن الفشل في إقامة العلاقة بين الذات والآخر على أسس القبول بالتعددية والاعتراف بحق الاختلاف ونسبية الحقيقة، من أبرز العوامل المكرّسة لموجبات العدوان على الآخرين.

ذلك العدوان الذي يعتبر أي اختلاف "أيدلوجي" أو سياسي أو ثقافي، مدعاة لانتهاك حقوق الآخرين، ومبرراً للاعتداء على حرياتهم ومصادرة أفكارهم أو حياتهم في بعض الأحيان.

### المبحث الخامس: فقدان الثقة بين الأفراد في المجتمع الواحد

غياب الحوار وثقافته يسوق إلى نشأة خلل كبير بين أفراد المجتمع الواحد؛ فيفتقد عنصر الثقة بين أبنائه، ويتربص كل فريق بإخوانه، وتنشر سياسة البحث عن العثرات وتتبع العورات وتلقف الأخطاء، مما يفقد المجتمع أمنه وطمأنينته فيعيش الأفراد في توجس وخيفة.

كما ينجم عن ذلك تكريس الأحادية الفكرية في أمور تتسع للتعدد والتنوع

والاختلاف. وهو أمر ينجم عن عملية غياب الحوار، التي تسوق في نهاية الأمر إلى مزيد من الأحادية في الفكر والطرح والسلوك.

فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنّة النبويّة

إضافة إلى أن ذلك مسوق إلى الوصول إلى حالة المطلقية في الآراء والأفكار، حيث لا آراء منافسة يمكن لها أن تكشف عن عوار الفكر السائد، الأمر الذي لا يمكن أن يتم إلا من خلال الحوار مع المخالفين.

وغياب الحوار عن الساحة الفكرية للمجتمع يؤدي في فترات لاحقة إلى الضيق بكل من يخالف الفكر الأحادي السائد، إلى الحد الذي يدفع بالبعض إلى إصدار أحكام غيبية على الآخرين، اختص الله عز وجل بها ذاته سبحانه. وهي مبنية غالباً على الشك، وسوء الظن بالآخرين، وإن لم يظهروا مخالفة لشيء، نظراً لغياب الحوار معهم، وعدم تبين وجهة نظرهم ابتداءً. يقول ابن تيمية: "من أظهر لنا خيراً فإننا نقبل علانيته، ونكّل سريرته إلى الله تعالى، فإن غايته أن يكون بم نزلة المنافقين الذين كان النبي ﷺ يقبل علانيتهم ويكّل سرائرهم إلى الله لما جاءوا إليه عام تبوك يخلفون ويعتذرون" (٥٠١).

ولا يقف الأمر عند إصدار الأحكام، على خطورته، بل يتعداه إلى قناعات عقلية راسخة في الذهن، تنعكس على سلوكيات بادية في الحديث والتعامل... الذي قد يبلغ بالبعض إلى حدّ قتال مخالفينهم ومعارضينهم في بعض المسائل.

وهو أمر وقع في التاريخ كثيراً، ومنه ما أشار إليه ابن تيمية في عصره حيث يقول: "الأمر آل إلى قريب المقاتلة، وسبب ذلك: الاختلاف في مسألة رؤية الكفار ربهم، وما كنا نظن أن الأمر يبلغ بهذه المسألة إلى هذا الحد، فالأمر في

(501) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج ٢٤، ص ١٧٥.

ذلك خفيف" (٥٠٢).

وقد عرف العالم نماذج لهذا الضيق الفكري الذي غذاه الثقيف التربوي، ف جاء الجليل كله يحمل فكرة أحادية الجانب، ترى الصواب إلى جانبها، والخطأ ملك سواها، فتعمل على رده إلى الصواب، ولو بمنطق القوة والعنف.

والحوار من أهم وسائل التخلص من الأحادية، وإيجاد التفاعل الفكري الذي من شأنه التخلص من الأفكار الشاذة والتوصل الجمعي إلى الحقائق الصائبة.

أما عملية إقصاء المخالف، وهميشه، وحشره في الزوايا الضيقة، فإنها ستؤدي حتماً إلى حدوث صراع مع ثنائية قطعية، ترى الحق في أفكارها مطلقاً، دون أية احتمالية لنسيية الصواب أو الخطأ فيه.

### المبحث السادس: الوقوع في الظلم والبغي و بروز ظاهرة التكفير

إن غياب ثقافة الحوار بين المسلمين على وجه الخصوص، يوقع أفراد الأمة في ظلم بعضهم البعض، وبعيهم على بعض، من خلال التراشق بالتهمة والإدعاءات، التي لا تتم تصفيتها عن طريق المواجهة الحوارية الراقية. وإنما يتم تصريفها بوسائل أخرى، كالتشنيع على المخالفين، والنيل منهم: قولاً مسموعاً، أو مكتوباً منشوراً، وقد يصل الأمر إلى المهاجرة والمقاطعة، حتى لا يصلي بعضهم خلف بعض وهذا كله من أعظم الأمور التي حرّمها الله ورسوله.

(502) المرجع السابق، ج ٢٤، ص ١٧٥ - ١٧٦.

فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنة النبوية

ويبقى علماء الأمة ومفكروها في حالة انشغال بالرد على مخالفيهم، والانتصار لآرائهم، والمكتبة الإسلامية خير مثال لثقافة الردود الانفعالية السائدة في أجواء بعيدة كل البعد عن الحوار.

ومن أشد أنواع الظلم، وأخطر مراحلها: الوقوع في تكفير المخالف المسلم. والتكفيرُ حكم شرعيٌّ ومحضٌ حقٌّ لله سبحانه ورسوله. وقد حذر العلماء من مغبة هذه الفتنة الكبيرة قديماً وحديثاً، وهي ظاهرة تبدأ بالتهاون في أعراض المخالفين، ولا تنتهي إلى حدِّ التكفير، بل تستمر لتصل إلى حد استحلال الدماء والأنفس المعصومة.

يقول الزركشي رحمه الله: "والذي ينبغي الاحترازُ منه: التكفيرُ، ما وجد إليه سبيلاً، فإنَّ استباحةَ الدماء والأموال من المصلِّين إلى القبلةِ المصرِّحين بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ، والخطأ في ترك ألفِ كافرٍ في الحياة أهونُ من الخطأ في سفكِ دمٍ لمسلم" (٥٠٣).

ويذهب الإمام ابن تيمية إلى أن أهل العلم لا يكفرون مخالفيهم وإن وقع من مخالفيهم تكفير لهم. يقول رحمه الله: "فلهذا كان أهلُ العلم والسنة لا يكفرون من خالفهم، وإن كان ذلك المخالف يُكفرهم؛ إذ الكفر حكمٌ شرعيٌّ، فليس للإنسان أن يعاقبَ بمثله، كمن كذب عليك وزنى بأهلك، ليس لك أن تكذب عليه، ولا تزني بأهله، لأنَّ الكذبَ والزنى حرامٌ، لحقَّ الله تعالى، وكذلك التكفير حقُّ الله، فلا يُكفر

(503) محمد بن بهادر الزركشي، المنشور، تحقيق: تيسير فائق، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت،

الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ، ج ٣، ص ٨٨.

إِلَّا مَنْ كَفَّرَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ" (٥٠٤).

وظاهرة التكفير ظاهرة تاريخية، تبرز كلما بعدت الشقة بين المسلمين وفهمهم لقيم الوحي قرآنا وسنة، وتنزيلهم لها في واقع الحياة.

فقد تضافرت الأدلة على وجوب صيانة عرض المسلم واحترامه، فكيف إخراجهم عن الإسلام إلى الكفر؟! فهذه جناية لا يعدلها جناية، وجرأة لا تماثلها جرأة، كما يقول الشوكاني في سياق توصيفه لظاهرة التكفير:

"وأين هذا المجترئ على تكفير أخيه من قول رسول الله ﷺ: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلَمُهُ" (٥٠٥) وقوله عليه الصلاة والسلام: "سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ" (٥٠٦) وقوله: "فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ" (٥٠٧). ويقول سبحانه: ﴿فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٥٠٨).

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله: "إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما، فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه". وفيهما من حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله يقول: "من دعا رجلاً بالكفر أو

(504) ابن تيمية، منهاج السنة، مرجع سابق، ج ٣، ص ٦١.

(505) صحيح البخاري، المظالم والغضب، حديث رقم ٢٢٦٢.

(506) رواه البخاري، باب الفتن، حديث رقم ٦٥٤٩.

(507) رواه البخاري، الحج، رقم ١٦٢٣.

(508) سورة النساء: ٩٤.

قال: عدوّ الله، وليس كذلك إلا حارّ عليه" (٥٠٩)...

فثمة ضوابط في باب التكفير، فلا يكفر إلا من أجمع أهل الإسلام على تكفيره، أو قام على تكفيره دليل لا معارض له. وهناك فرق في الحكم بين العموم والإطلاق، والتعيين والتخصيص عند إطلاق وصف الكفر أو الشرك أو النفاق أو البدعة أو الفسق، وعند إطلاق الشهادة بالجنة والنار. ففي حالة العموم والإطلاق يجوز وصف العمل أو القول بأنه كفر أو شرك أو نفاق أو بدعة أو فسق، إذا كان هذا هو حكمه في شرع الله تعالى.

أمّا عند تعيين إنسان بعينه، أو طائفة بعينها حصل منهم هذا الفعل، أو القول، الموصوف شرعاً بالكفر أو الشرك أو النفاق أو البدعة أو الفسق فلا يجوز إطلاق هذا الوصف على المعين إلا بعد وجود شروط هذا الوصف في المعين وانتفاء الموانع عنه.

### وأساس هذه الظاهرة الخطيرة: سوء الظن والقطيعة مع المخالف والبعد عن

أروقة الحوار معه، مما يدفع الإنسان إلى تأول كلام المخالفين له بناءً على تصوراته الذاتية، فيقوم أحياناً دون قصد، إلى حملها وفقاً لما يراه هو ذاته لا بناءً على ما يسمعه. وتزداد الخطورة عندما تمتد الظاهرة، لتشمل الوقوع في علماء الأمة ومفكريها. على الرغم مما ذهب إليه السلف من أن علماء المسلمين المتكلمين في الدين باجتهادهم لا يجوز تكفير أحدهم بمجرد خطأ أخطأه في كلامه.

يقول ابن تيمية رحمه الله في ذلك: "إن المتأول الذي قصده متابعة الرسول ﷺ لا

(509) النص بتمامه من: محمد بن علي الشوكاني، السيل الجرار، مرجع سابق، ج ٤، ص ٥٨٥.

يكفر، ولا يُفسَّق إذا اجتهد فأخطأ، وهذا مشهور عن الناس في المسائل العملية، وأما مسائل العقائد فكثير من الناس كفَّروا المخطئين فيها، وهذا القول لا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا يعرف عن أحد من أئمة المسلمين، وإنما هو في الأصل من أقوال أهل البدع الذين يتدعون بدعة ويكفِّرون من خالفهم... " (٥١٠).

ويقول تلميذه ابن القيم، واضعاً ضابطاً مهماً، خاصة عند الحديث عن علماء الأمة: "من قواعد الشرع والحكمة أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثيرٌ ظاهرٌ، فإنه يحتمل له ما لا يحتمل لغيره، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره، فإن المعصية خبثٌ، والماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث، بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى خبث.. إلى أن قال رحمه الله: "وهذا أمرٌ معلومٌ عند الناس مستقرٌ في فطرهم: أنه من له ألوف من الحسنات فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها، حتى إنه ليختلج داعي عقوبته على إساءته، وداعي شكره على إحسانه، فيغلب داعي الشكر لداعي العقوبة" (٥١١).

ولابن القيم رحمه الله نظرة ثاقبة حين قال في سياق الترهيب من الخوض في أعراض المسلمين: "ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحترام من أكل الحرام، والظلم، والزنى، والسرقه، وشرب الخمر، ومن النظر المحرم، وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه! حتى يُرى الرجل يشار إليه بالدين والزهد

(510) ابن تيمية، منهاج السنة، مرجع سابق، ج ٣، ٦٠.

(511) ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، مرجع سابق، ١٧٦ - ١٧٧. وانظر: زاد المعاد ٤٢٣ - ٤٢٧، ومدارج السالكين ٤٥٥/٢ - ٤٥٦.

والعبادة، وهو يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقى لها بالاً ينزل منها أبعد مما بين المشرق والمغرب. وكم نرى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات لا يبالي ما يقول!" (٥١٢).

## المبحث السابع: انتشار داء الفرقة والنزاع

من الآثار السلبية البارزة عند غياب الحوار: التفرق والنزاع، والدخول في دوامة الاختلاف المخالف للاجتماع بين المسلمين أنفسهم. حتى يصير بعضهم يبغض بعضا ويعاديه. ويفضى الأمر ببعضهم إلى الطعن واللعن والهمز واللمز، وبعضهم إلى الاقتتال. وهذا كله من أعظم الأمور التي حرّمها الله ورسوله، في حين أن الاجتماع والاتلاف من أعظم الأمور التي أوجبها الله ورسوله قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٥١٣).

والفرقة بين المسلمين كفيلة بتعطيل حركة المجتمع وإضعاف المسلمين، وتمكين أعدائها منها. يقول ابن تيمية في هذا السياق: "وهذا التفریق الذي حصل من الأمة: علمائها ومشائخها، وأمرائها وكبرائها، هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها.. وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا أصلحوا وملكوا؛ فإن الجماعة رحمة

(512) ابن قيم الجوزية، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون

تاريخ، ج ١، ص ١١١.

(513) سورة آل عمران: ١٠٣.



وفي ظل أجواء القطيعة بين المختلفين من المسلمين، تتاح الفرصة لاحتواء بعض المخالفين من أفراد الأمة وجماعاتها من قبل أعداء الأمة والانفراد بهم، مما يسوق إلى التخاذل المتبادل بين أفراد الأمة وجماعاتها ودولها وحكوماتها، وأن يُسَلَّم بعضهم بعضاً إلى الأعداء والفتن، والتحرش بهم، وتكالب الأعداء عليهم.

### المبحث الثامن: التراجع الحضاري

مع وجود الشك في الآخر، وعدم التواصل معه، يصبح من العسير التجانس مع التغيرات والتطورات، وهذا يقود لوجود تأثيرات سلبية متزايدة، ليس أقلها القطيعة الحضارية.

فالأمية السياسية والاقتصادية والثقافية، تزداد اتساعاً في المجتمعات، عندما يجهل أفرادها أبسط قواعد الاتصال والحوار. إضافة إلى أن التطور الحتمي يستدعي التواصل الداخلي، ووجود لغة حوار منفتح، تقود نحو التجانس، والتنسيق، والعمل المشترك.

إن البعد عن الحوار الأصيل، المتعدد الاتجاهات في مختلف مجالات العلم والحياة، يمكن أن يتحقق في إطار الرفض للمخالف وأفكاره مطلقاً. فالرفض نتيجة تجر وتوقع وعجز عن التمثل، أو التفاعل الخلاق، وليس رفضاً واعياً لديه القدرة على طرح البديل.

وفي رفض الآخر رفضاً مطلقاً، دعوة إلى محاصرة كل الثقافات المعاصرة، والاستهانة بها، والاستدبار عن التعرف العلمي والموضوعي على الثقافات الحية، وفي هذا النهج خروج من العصر والحياة إلى الموت الحضاري التدريجي..

فالمجتمعات والأمم التي ركبها الوهن الفكري، والعجز الثقافي، هي التي تحارب الآخر؛ لأنه يشعرها دائماً بضعفها، فتخاف أن تتواصل معه، خوفاً من أن يغزو أفكارها ويحصد أفرادها. والخوف وروح الانهزام لا تزيد الفرد أو الجماعة إلا ضعفاً واندثاراً، لأنه عندما يفقد الارتباط مع الآخرين، يفقد الفرد القدرة على فهم معطيات الصراع والمتغيرات، وبذلك يبدأ بفقدان أوقافه، وتتساقط أفكاره، وينكشف وهنه، فيرتمي في أحضان الغير مستسلماً استسلاماً مطلقاً.

أما الأمم التي غرقت في صراعاتها، وخلافاتها السلبية، فقد تحولت إلى فتات مهمش، لا يقوى على تجميع أجزائه، حتى تقضي عليه قوانين التاريخ القاسية، وقد رأينا كيف سقطت الأمم عن عليائها نتيجة لذلك التعصب والتمرد ضد الآخرين، بحيث تتحول حياة تلك الأمة إلى جحيم ملتهب لعدم قدرتها على التفاهم والتعايش.

## الخاتمة والنتائج

استهدفت هذه الدراسة محاولة وضع استراتيجية لفقهِ حوارِي مع المخالف عموماً. وقد أوضحت الدراسة ضرورة الحوار، وحتمية تنمية ثقافته، داخليا وخارجيا. كما استهدفت الدراسة محاولة استنباط الأسس التي يقوم الحوار الناجح عليها، والأهداف المتوخاة منه، وضوابط تفعيله وإنجاحه، ووسائل ذلك كله، وآثاره الإيجابية وما يمكن أن يترتب على غيابه عن الساحة، وذلك من خلال العودة إلى نصوص الوحي (قرآنا وسنة)، مع التركيز على السنة النبوية باعتبارها الوعاء التنفيذي للوحي. ولئن غاب عن العديد من الدراسات المعاصرة طرح وتناول الجوانب النفسية والاجتماعية في موضوع الحوار، فقد حرصت هذه الدراسة على طرح قضية الحوار بشكل يجمع بين فقه نصوص الوحي وفقه الثابت من هذه الدراسات، موضحة أهمية التكامل بينهما؛ لإحداث التغيير الإيجابي في الطرح والمعالجة لموضوع الحوار وغيره. ويمكن تلخيص أهم نتائج الدراسة في النقاط التالية:

- الحوار الناجح لا بد أن يقوم على أسس، من أهمها: الاعتراف بظاهرة التنوع والاختلاف بين البشر، وفقه طبيعة ذلك الخلاف، وخاصة الواقع منه بين المسلمين، وما يقتضيه من فهم للنصوص الواردة في ذلك. وتأكيد روح التعايش والتسامح بين البشر بوجه عام، وتحقيق الاجتماع والألفة، والاعتصام بحبل الله بين المسلمين، مع ضرورة اتباع الحق والإنصاف والعدل مع المخالف بوجه عام، وتأكيد حرمة عرض المسلم.

- لا بد للحوار من أهداف يروم تحقيقها وإلا بات عبثا وترفا فكريا لا طائل من

ورائه. ومن أبرز أهداف الحوار: إظهار الحقائق المدعومة بالأدلة والبراهين، والتفاهم والتعاون؛ للخروج من مرحلة الأزمة، والترقي بالذات، والتلاقح الحضاري، وتصحيح المفاهيم، وحلّ النزاعات والخلافات.

- أهمية التقييد ببعض الضوابط والآداب أثناء إجراء الحوار، ومنها: الحوار بالتي هي أحسن، ومراعاة حال المحاورين ومستوياتهم الدينية والثقافية، والإنصات والاستماع الجيد، والتأكيد على القواسم المشتركة، والاحتجاج بما يكون حجة عند المتحاور معه.

- ضرورة الإفادة من مختلف الوسائل والإمكانيات في سبيل نشر ثقافة الحوار، وتفعيل دورها في مسيرة التنمية الفكرية والثقافية والاجتماعية، ومن أبرز الوسائل: الحوار من خلال وسيلة القدوة والسلوك العملي، وتنفيذ الحوار وآدابه سلوكاً وممارسة. وتفعيل دور الوسائل المعاصرة، كدور السفارات المنتشرة في دول العالم، ودور المؤسسات التعليمية والتربوية والإعلامية، إضافة إلى محاولة تفعيل دور المؤسسات الدينية والمساجد.

- أهمية استحضار الآثار الإيجابية، التي يمكن أن تنجم عن الحوار؛ لمقارنة تقدم عملية الحوار بما يتمخض عنها من نتائج. ومن أبرز الآثار الإيجابية المترتبة على الحوار: التلاقح الحضاري، وتخفيف حدة التعصب، وتخليص المجتمع من الشخصيات "السيكوباتية"، وتحقيق الوحدة والاجتماع بين المسلمين، والدعوة إلى الله.

- أهمية مراقبة الآثار السلبية الناجمة عن غياب الحوار وثقافته؛ بغية تداركها ومعالجة ما يظهر من أعراضها ودواعيها. ومن أبرز تلك الآثار السلبية: الإسراف في تقدير

الذات، وشيوع فكر التعصب، وبروز التطرف الفكري، وانتشار السلوك العدواني والعنف، وفقدان الثقة بين الأفراد في المجتمع الواحد، وتكريس الأحادية الفكرية، والوقوع في الظلم والبغي، وبروز ظاهرة التكفير، وانتشار داء الفرقة والنزاع، وتمكين الأعداء من الأمة، والتراجع الحضاري.



## فهرس المصادر والمراجع

- ابن إبراهيم، ابن وهب أبو الحسين إسحاق، البرهان في وجوه البيان، تحقيق: أحمد مطلوب، خديجة الحديثي، القاهرة، طبعة عيسى الحلبي، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.
- "أرنولد، توماس"، القاهرة الدعوة إلى الإسلام، ١٩٧٠م.
- الأصبحي، مالك بن أنس، موطأ مالك، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مصر، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.
- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد خليل عيتاني، بيروت، دار المعرفة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠١م.
- الأصبهاني، أبو محمد عبد الله بن محمد، ١٩٩٨م، أخلاق النبي ﷺ وآدابه، تحقيق: صالح الونيان، الرياض: دار المسلم.
- الأعرجي، زهير، دراسات في الإعلام، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.
- الألباني، محمد ناصر الدين، دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد على جهالات البوطي وكتابه فقه السيرة، دمشق: مكتبة الخافقين، بدون تاريخ.
- "الفا، زوني أيلي"، موسوعة أعلام الفلسفة، مراجعة: "جورج نخل"، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م.
- الباجي، أبو الوليد سليمان، المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق: عبد الحميد تركي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
- البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مجد الدين الخطيب، بيروت، دار المعرفة، بدون تاريخ.

- البطلوسى، عبد الله بن محمد، الإنصاف، تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- البعلبي، المطلع على أبواب المقنع، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٥م.
- البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر، الفرق بين الفرق، وبيان الفرقة الناجية، تحقيق: محمد عثمان الخشت، القاهرة، مكتبة ابن سينا، ١٩٨٠م.
- البكري، أبو بكر السيد، إعانة الطالبين، بيروت، دار الفكر، بدون تاريخ.
- "بياجيه، جان"، اللغة والفكر عند الطفل، ترجمة أحمد عزت راجح، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٤م.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة، مكتبة دار الباز، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
- البهوتي، منصور بن يونس، كشف القناع عن متن الإقناع، تحقيق: هلال مصيلحي، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٢هـ.
- —، الروض المربع، الرياض، مكتبة الرياض الحديثة، ١٤١٥هـ.
- "تايلور، فيليب"، قصف العقول: الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي، إبريل ٢٠٠٠م.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر وآخريين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.
- التهانوني، محمد علي، كشاف اصطلاحات الفنون، بيروت، شركة خياط للكتب والنشر، ١٩٦٦م.
- ابن تيمية، أحمد عبد الحلیم، كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه، تحقيق:



- عبد الرحمن محمد قاسم العاصمي، السعودية، مكتبة ابن تيمية، بدون تاريخ.
- \_\_\_\_\_، الاستقامة، تحقيق: محمد رشاد سالم، الرياض، مطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٠٣هـ.
- \_\_\_\_\_، دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، تحقيق: محمد السيد الجليند، دمشق، مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.
- ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، السعودية، مؤسسة قرطبة، ١٤٠٦هـ.
- جاب الله، شعبان، زين العابدين وآخرون (محرر)، علم النفس الاجتماعي أسسه وتطبيقاته، مصر، مطابع زمزم، ١٩٩٣م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، المختار في الرد على النصارى، تقديم وتحقيق: محمد عبدالله الشرفاوي، القاهرة، دار الصحوة، ١٩٨٤م.
- الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأياري، القاهرة، دار الريان، بدون تاريخ.
- الجصاص، أحمد بن علي الرازي، أحكام القرآن، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، بيروت، دار التراث العربي، ١٤٠٥هـ.
- الجندي، أنور، الإسلام يزحف بقوته الذاتية في أفريقيا، مجلة حضارة الإسلام، السنة العاشرة، العدد الرابع، جمادى الآخرة ١٣٨٩هـ/ أيلول ١٩٦٩م.
- "جورافسكي، أليكسي"، الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم، ترجمة: خلف الجراد، الكويت، إصدار عالم المعرفة، تشرين الثاني ١٩٩٦م.

- الجوزية، محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: طه سعد، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٣م.
- ، أحكام أهل الذمة، تحقيق: صبحي الصالح ، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية ، ١٩٨١م.
- ، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة عشر، ١٩٨٦م.
- ، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، بدون تاريخ.
- ، أحكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف أحمد البكري، شاعر العاروري، الدمام، دار رمادي للنشر، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- ، الصواعق المرسله في الردّ على الجهمية والمعطلة، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله ، الرياض، دار العاصمة، الطبعة الثالثة ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
- ، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، بلا تاريخ، بيروت، دار الكتب العلمية.
- الجويني، عبد الملك، الكافية في الجدل، تحقيق: فقيه حسين محمود، مصر، عيسى الحلبي، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- حاتم، محمد عبد القادر، ١٩٧٢م، الرأي العام، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.
- الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، المستدرک على الصحیحین، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م.
- حبيب، صموئيل، فن الحوار، القاهرة، الدار الثقافية، ١٩٩٤م.

- حجازي، أحمد، المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان، القاهرة، مكتبة زهران، ١٩٨٨م.
- ابن حزم، أبو محمد، المحلى، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، بدون تاريخ.
- ابن الحسن، محمد، السير الكبير، مصر، مطبعة مصر، ١٩٥٧م.
- حسين موسى وآخرون، الإفصاح في فقه اللغة، مصر، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.
- حفني، عبد الحليم، أسلوب المحاوره في القرآن الكريم، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.
- الحفني، عبد المنعم، موسوعة مدارس علم النفس، مصر، مكتبة مدبولي، ١٩٩٥.
- \_\_\_\_\_، الموسوعة النفسية، مصر، مكتبة مدبولي، ١٩٩٥.
- الحلبي، علي بن برهان، السيرة الحلبية في سيرة الأمين والمأمون، بيروت، دار المعرفة، ١٤٠٠هـ.
- حلمي، منيرة أحمد، ثلاث نظريات في تغيير الاتجاهات، القاهرة، الأجلو المصرية، ١٩٧٧م.
- حميد الله، محمد، الوثائق السياسية للعهد النبوي، والخلافة الراشدة، بيروت، ١٩٩٠م.
- الحنبلي، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مفلح، المبدع، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ.
- الخربوطلي، علي حسن، الإسلام وأهل الذمة، الكتاب التاسع والأربعون، القاهرة،

المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٦٩م.

- خضر، لطيفة إبراهيم، دور التعليم في تعزيز الانتماء، مصر، عالم الكتب، ٢٠٠٠م.
  - خطاب، محمود شيت، عمرو بن العاص، القائد المسلم، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ربيع الأول ١٤١٧هـ.
  - ابن خلدون، عبدالرحمن، المقدمة، بيروت، دار القلم، الطبعة الخامسة، ١٩٨٤م.
  - خلف الله، سلمان، الحوار وبناء شخصية الطفل، الرياض، مكتبة العبيكان، ١٩٩٨م.
  - خليفة، حاجي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م.
  - خليفة، عبد اللطيف محمد، دراسات في "سيكولوجية" الاغتراب، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م.
  - "دافيدوف، ليندا"، مدخل علم النفس، ترجمة سيد الطواب وآخرين، القاهرة، ١٩٨٣م.
  - دروزة، محمد عزة، سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٠٠هـ.
  - الدمشقي، محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين، الرد الوافر. تحقيق: زهير الشاويش، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٣٩٣هـ.
  - الدهلوي، شاه ولي الله، حجة الله البالغة في أسرار الحديث وحكم التشريع، بيروت، دار المعرفة، بدون تاريخ.
  - الذهبي، حمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم
- فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنة النبوية

- العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ.
- الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود شاكر، بيروت، مكتبة ناشرون لبنان، ١٩٩٥م.
- الريسوني، أحمد، نظرية المقاصد عند الشاطبي، الرياض، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- الزبيدي، السيد محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: محمود الطناحي، الكويت، طبعة وزارة الإعلام، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- الزحيلي، محمد، الإمام الجويني، دمشق، دار القلم، ١٩٨٦م.
- الزركشي، محمد بن بهادر، المنثور، تحقيق: تيسير فائق، الكويت، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
- الزنكي، جمال محمد حسن، كيفية تحقيق الهوية الإسلامية الملتزمة، للطالب الجامعي، ندوة استراتيجية الثقافة والتنمية ودور كليات الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية في دول مجلس التعاون الخليجي، الكويت، جامعة الكويت، كلية الآداب، ٢٧-٢٩ مارس، ٢٠٠٠م.
- زهران، حامد عبد السلام، علم النفس الاجتماعي، القاهرة، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، ١٩٧٤م.
- أبو زهرة، محمد، تاريخ الجدل، مصر، دار الفكر العربي، بدون تاريخ.
- الزيايدي، محمد فتح الله، انتشار الإسلام، دار قتيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- السايح، أحمد عبد الرحيم، في الغزو الفكري، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون

الإسلامية، كتاب الأمة، رجب ١٤١٤هـ.

- السرخسي، أبو بكر محمد بن أبي سهل، المبسوط، بيروت، دار المعرفة، ١٤٠٦هـ.
  - سعد، إسماعيل علي، الرأي العام بين القوة والأيدلوجية، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٨م.
  - ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، بدون تاريخ.
  - سفر، محمود محمد، دراسة في البناء الحضاري، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، كتاب الأمة، ١٤٠٩هـ.
  - السكوني، أبو علي عمر، عيون المناظرات، تحقيق: سعد غراب، تونس، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٧٦م.
  - سليمان، ميخائيل، صورة العرب في عقول الأمريكيين، ترجمة عطا عبدالوهاب، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧م.
  - السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد، قواطع الأدلة في الأصول، تحقيق: محمد حسن الشافعي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.
  - "سوفي، ألفريد"، الرأي العام، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٦٦م.
  - سويف، مصطفى، التطرف كأسلوب للاستجابة، القاهرة، الأجلو المصرية، ١٩٦٨م.
  - السيد، فؤاد البهي، علم النفس الاجتماعي، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨١م.
  - السيواسي، محمد بن عبد الواحد، شرح فتح القدير، بيروت، دار الفكر، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.
  - الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبدالله دراز، بيروت،
- فقه الحوار مع المخالف في ضوء السُّنة النبويَّة

- دار المعرفة، بدون تاريخ.
- الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس، الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة، ١٩٣٩م.
- الشاهد، السيد محمد، المسيحية والإسلام من الجوار إلى الحوار، القاهرة، دار الأمين للنشر والتوزيع، ١٤١٢هـ / ٢٠٠١م.
- الشربيني، محمد الخطيب، مغني المحتاج، بيروت، دار الفكر، بدون تاريخ.
- الشرقاوي، محمد عبد الله، بحوث في مقارنة الأديان، مصر، دار الفكر، ٢٠٠٠م.
- أبو شنب، أحمد إسماعيل، مشكلات الحوار وأثرها على النهوض الثقافي.. دراسة نقدية، العدد الحادي والعشرون، قطر، حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية، ١٤٢٤ / ٢٠٠٣م.
- الشوكاني، محمد بن علي، نيل الأوطار، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٣م.
- —، السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٥م.
- —، فتح القدير، بيروت، دار الفكر، بدون تاريخ.
- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد، مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٠٩هـ.
- الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي، طبقات الفقهاء، تحقيق: خليل الميس، بيروت، دار القلم، بدون تاريخ.
- الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام، مصنف عبد الرزاق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

- ضياء الحق، محمد، أحكام المعاهدات الدولية في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، الإمارات العربية المتحدة، مجلة آفاق الثقافة والتراث، السنة الثانية عشرة، العدد السادس والأربعون، يوليو/ تموز ٢٠٠٤م.
- الطبري، محمد بن جرير، تفسير الطبري، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٥هـ.
- الطحاوي، أحمد بن محمد، حاشية الطحاوي على مراقبي الفلاح، مصر، مكتبة البابي الحلبي، الطبعة الثالثة، ١٣١٨هـ.
- الطريي، عبد الرحمن، العقل العربي وإعادة التشكيل، قطر، وزارة الأوقاف، كتاب الأمة، ١٩٩٢م.
- طلعت، شاهيناز، وسائل الإعلام والتنمية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠م.
- طنطاوي، محمد سيد، أدب الحوار في الإسلام، القاهرة، دار النهضة مصر، ١٩٩٧م.
- عبد الحلیم، محيي الدين، القدوة الحسنة وفعاليتها في الإقناع بالثوابت الإسلامية، الإمارات العربية المتحدة، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد الثامن عشر، ربيع الثاني ١٤١٨هـ/ أغسطس ١٩٩٧م.
- عبد الرؤف، السيد، الإعلام والتأسيس لفكر وحدوي إسلامي، بحوث مؤتمر التقريب بين المذاهب الإسلامية وأثره في تحقيق وحدة الأمة، البحرين، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، سبتمبر ٢٠٠٣م.
- عبد الستار، ليلي، تنمية التفكير السليم لدى الشباب الجامعي لمواجهة التطرف، مجلة دراسات تربوية، المجلد السابع، الجزء ٤٣، القاهرة، ١٩٩٢م.



- عبد الله، معتز، وصالح أبو عباة، أبعاد السلوك العدواني دراسة علمية مقارنة، مجلة دراسات نفسية، المجلد الخامس، العدد الثالث، ١٩٩٥م.
- عبد الله، معتز، التعصب دراسة نفسية اجتماعية، الطبعة الثانية، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.
- عبد الله، معتز سيد، ومحمد خليفة، عبد اللطيف، علم النفس الاجتماعي، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١م.
- عبد المختار، محمد خضر، الاغتراب والتطرف نحو العنف، مصر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٩م.
- عرجون، محمد الصادق، الموسوعة في سماحة الإسلام، السعودية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.
- العسقلاني، ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد خان، الهند، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٧٢م.
- العسقلاني، ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت، دار الجليل، ١٩٩٢م.
- العسقلاني، ابن حجر، الدراية في تخريج أحاديث الهداية، تحقيق: السيد عبدالله هاشم، بيروت، دار المعرفة، بدون تاريخ.
- العلمي، عبد الواحد، حرية الاعتقاد في الإسلام .. دلالات وإشكالات، مجلة رؤى، السنة الثالثة، العدد ١٤، شتاء ٢٠٠٢م.
- عمرو، يونس، ومزعل، غانم، العربي في أدب الأطفال العبري، الخليل: منشورات مركز البحث العلمي، جامعة الخليل، ١٩٨٨م.

- العلواني، رقية طه، أثر العرف في فهم النصوص، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٣م.
- العلواني، طه جابر، أدب الاختلاف في الإسلام، قطر، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، جمادى الأولى ١٤٠٥هـ.
- عمارة، محمد، الغزو الفكري وَهَمُّ أم حقيقة، القاهرة، طبعة الأزهر، ١٩٨٨م.
- عمارة، محمد، في فقه الحضارة الإسلامية، مصر، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٣م.
- "فرايري، باولو"، تعليم المقهورين، ترجمة: يوسف نور عوض، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٠م.
- "فروم، إيريك"، المجتمع السليم، تعريب: محمود محمود، بلا مكان نشر.
- الفقي، حامد، لويس كامل مليكة (محرر)، أنماط الضبط الوالدي في المجتمع الكويتي، قراءات في علم النفس الاجتماعي في الوطن العربي، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٤م.
- فلوسي، مسعود بن موسى، الجدل عند الأصوليين، الرياض، مكتبة الرشد ناشرون، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- ابن قدامة، عبد الله بن أحمد، المغني، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٥هـ.
- القرضاوي، يوسف، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، مصر، مكتبة وهبة، ١٩٧٧م.
- \_\_\_\_\_، الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، مصر، دار الشروق، ٢٠٠١م.
- القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، القاهرة، دار الشعب، الطبعة الثانية، ١٣٧٢هـ.

- "قرم، جورج"، تعدد الأديان ونظام الحكم، بيروت، ١٩٧٩م.
- القضاة، أمين محمد، معاملة غير المسلمين في الإسلام، الأردن، بحوث المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، بدون تاريخ.
- القنوجي، صديق بن حسن، أجد العلوم، تحقيق: عبد الجبار زكار، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م.
- الكاساني، علاء الدين، بدائع الصنائع، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.
- "كب، ستانورد"، المسلمون في تاريخ الحضارة، الرياض، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، بدون تاريخ.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير ابن كثير، بيروت، دار الفكر، ١٤٠١هـ.
- الكلاعي الأندلسي، أبو الربيع سليمان بن موسى، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، تحقيق: محمد كمال الدين، بيروت، عالم الكتب، ١٩٩٧م.
- الكيرانوي، رحمة الله بن خليل الرحمن، إظهار الحق، تحقيق: عمر الدسوقي، قطر، طبعة الشؤون الدينية، بدون تاريخ.
- الكيلاني، ماجد عرسان، أهداف التربية الإسلامية في تربية الفرد وإخراج الأمة وتنمية الأخوة الإنسانية، أمريكا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١٧/١٩٩٧م.

- ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الفكر، بدون تاريخ.
- "متز، آدم"، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، بيروت، ١٩٦٧م.
- مجموعة من الباحثين والعلماء، مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، كتاب الأمة، رجب ١٤١١.
- ابن محمد، أبو بكر بن أحمد، طبقات الشافعية، تحقيق: الحافظ عبد العليم خان، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٧ هـ.
- المخزنجي، السيد أحمد، العدل والتسامح الإسلامي، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، السنة السادسة، العدد ٦٧، شوال ١٤٠٧ هـ/ يونيو ١٩٨٧م.
- مرحبا، محمد عبد الرحمن، أصالة الفكر العربي، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٨٢م.
- المرادوي، علي بن سليمان، الإنصاف، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.
- المقدسي، عبد الله بن قدامة، الكافي في فقه ابن حنبل، تحقيق: زهير الشاويش، بيروت، المكتب الإسلامي، الطبعة الخامسة، ١٩٨٨م.
- المقدسي، ابن قدامة، المغني، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٥ هـ.
- —، العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكاتب العربي، بدون تاريخ.
- مناظرة بين الإسلام والنصرانية، الرياض، نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية، ١٤٠٧ هـ.

- المناوي، محمد عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت، دار الفكر المعاصر، ١٤١٠هـ.
- ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، بيروت، دار صادر، بدون تاريخ.
- الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، دمشق، دار القلم، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- ندوات علمية حول الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان في الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٧٣م.
- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق، الفهرست، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٨م.
- نعيم، سمير، المحددات الاقتصادية والاجتماعية للتطرف الديني، المستقبل العربي، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، يناير ١٩٩٠م.
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، شرح النووي على صحيح مسلم، بيروت، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.
- النووي، ترجمة: سامي خشبة، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- النيسابوري، محمد بن عبد الله الحاكم، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م.
- النيفر، أمحيدة، المعيار والهوية والحوار قراءة في التجربة التاريخية للغرب الإسلامي، الإمارات العربية المتحدة، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد الرابع عشر، سبتمبر ١٩٩٦م.
- ابن هشام، عبد الملك، السيرة النبوية، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، بيروت، دار

الجيل، ١٤١١هـ.

- "هونكه، زيغريد"، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون، كمال دسوقي، بيروت، دار صادر، الطبعة العاشرة، ٢٠٠٢م.
- ابن الوزير، محمد بن إبراهيم، إثثار الحق على الخلق، بيروت، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.
- ابن أبي الوفاء، أبو عبد القادر، بدون تاريخ، طبقات الحنفية، كراتشي، مير محمد كتب خانة، بدون تاريخ.
- "ويتبيج، أرنو ف"، نظريات ومشكلات في سيكولوجية التعلم، ترجمة: عادل عز الدين الأشول وآخرين، بلا مكان نشر: دار "ماكجروهيل" للنشر، ١٩٨٤م.
- ابن أبي يعلى، أبو الحسين محمد، طبقات الحنابلة، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، دار المعرفة، بدون تاريخ.
- اليعمري، إبراهيم بن علي، الديباج المذهب، بيروت، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.

## المراجع باللغة الانكليزية:

- Corisini, R. (Ed), Encyclopedia of Psychology. New York, John Wiley & Sons.
- Henri Tajfil, Individuals and Groups in Social Psychology, British Journal of Social and Clinical Psychology, Vol, 18,1979.
- Jerry Fawell, Listen America, New York: Bantam Book. Inc., 1981.
- John M. Darely and Russell H. Fazio, Expectancy Confirmation Processes Arising in the Social Interaction Sequqnce, American Psychologist, vol. 35, No. 10, October 1980.
- Lin. Nan, The Study of Human Communication, New York, 1973.
- Olivioir Zunz and Alan S. Kahan, The Tocqueville Reader, Blackwell Publishing. Oxford, 2003
- Paul F. Secord and Carl W. Backman, Social Psychology, New York: McGraw-Hill, 1974
- Spring. Joel. Education, The Worker Citizen, the Social Economic and Political Foundation of Education, New York, London, Long man, 1980.
- Straughn, R. Wringley, J. eds, Values & Evaluation in Education, London, Harper & Row Pub. 1980
- Tajfil, Social Stereotypes and Social Groups, Little Brown Co, 1980.
- Yinger, J. M and Simpson, G. E., Techniques for reducing prejudice; Changing the Prejudiced Person: P. Waston (Ed), Psychology and Race, Chicago Aldine Publishing Company, 1973.

